القول الحق في
سيرة سيد الخلْق صلى الله عليه وسلم
خاتم النبيين:

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

تأليف

أ. د. عطية القوصي

(ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليمًا)

[الأحزاب: ٤٠]

(وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين)

[الأنبياء: ١٠٧]

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"مَثلي ومثَل الأنبياء كرجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"

القول الحق في سيرة سيد الخلْق

تأليف

د. عطية القوصي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم. . والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين. . . وبعد.

فلقد أكرمني الله تعالي هذا العام بأداء فرض العمرة بعد غياب لي عن أدائها عدة سنين، أديتُ قبلها عدة عمرات كما أديت فريضة الحج مرتين بحمد الله، وكنت أود معاودة أداء فريضة الحج لكن تغير الأحوال في هذا الأيام من حيث اشتداد الإقبال من المسلمين على أداء الفريضة وشدة الزحام وارتفاع التكلفة وكبر السن جعلني كل ذلك أكتفى هذا العام بأداء العمرة في شهر شعبان، وأحضر هناك ليلة النصف ويوم النصف من شعبان حيث تحولت قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وأسعد بزيارة مسجد القبليتن بالمدينة المنورة حين قمنا هنالك بالزيارات. ولقد استمتعت هذه المرة بالعمرة استمتاعًا زائدًا سواءً في مكة المكرمة أو المدينة المنورة حيث قضينا في كل مدينة منها خمسة أيام، كانت من أسعد أيام حياتي وأكثرها نورانية وروحانية

فقد ملأت عيني بالنظر إلى الكعبة المشرفة وعتقت بصلاة جميع الأوقات في الحرم الشريف والطواف حول البيت العتيق، كما عتقت في المدينة المنورة بزيارة الصديق أبي بكر والفاروق عمر، والجلوس والصلاة في الروضة الشريفة ما بين بيت الرسول ومنبره، وشعرت بحلاوة الجنة في الدنيا قبل الآخرة متعنا الله بها وأسكننا فيها في الفردوس الأعلى بإذن الله، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة. وسعدت بالجلوس والصلاة أمام قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان ينزل عليه الوحي في المدينة المنورة بآيات الله المدنية، وما أحلى أن تجلس إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصلى في حضرته، وتسترجع مع نفسك حياة هذا الرسول العظيم والنبي الكريم وتتحسس آثار أقدامه الشريفة وهي تمشى على أرض هذه الأماكن الطاهرة التي شرُفت بمحياه ومماته، وتستنشق عبير النبوة الذكى الطاهر حيث كان يتنفس رسول الله ويدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد، ويقيم دولة الإسلام، ويحشد الجيش لحرب الكفر والكفار ولدحر الشرك والوثنية. سرح بي الفكر وأنا جالسٌ في رحابه في صلاة فجر يوم من أيام المدينة المنورة

وتذكرت ما قرأته عنه صلى الله عليه وسلم في سيرته الطاهرة وما فعله خلال عشر سنوات قضاها في المدينة المنورة بعد الهجرة من مكة حتى صعد إلى الرفيق الأعلى في ذها المكان الطاهر الذي دفت فيه وهو حجرة السيد عائشة التي منها صعدت روحه الطاهرة المطمئنة ورجعت إلى ربها راضيةً مرضية، تذكرت يوم قدومه إلى المدينة مهاجرًا مع صديق عمره الصديق أبي بكر، ويوم شروعه في بناء مسجده هذا وبيوت أزواجه ومشاركته بيديه الشريفتين في أعلى البناء، ويوم مؤاخاته بين الأوس والخزرج، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، وكتابته كتاب "الصحيفة"، أول دستور للحكم في المدينة، ويوم إعداده الجيش لغزوة بدر، ويوم احتفائه بالنصر في بدر، تذكرت ما وقع للمسلمين يوم غزوة أحُد، وتذكرت حزنه على من استشهد من المسلمين في هذه المعركة وفي مقدمتهم عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكيف كان ذلك اليوم درسًا للمسلمين استوعبوه جيدًا في معاركهم وغزواتهم مع الكفار. تذكرت إعداده للجهاد ضد اليهود من بني قنينقاع وبني النضير وبني قريضة، وطردهم وإجلائهم عن المدينة. كذلك سرح بي الفكر إلى يوم إعداده العدة لأداء العمرة حين ازداد حنينه إلى مكة المكرمة مسقط رأسه وسُرة العالم حيث الكعبة المشرفة أول بيت وُضع للناس على هذه الأرض. وتذكرت صلح الحديبية، وبيعة الرضوان، ثم فتح مكة وإعلانه حرمة مكة كما أعلن حرمة المدينة من قبل. تذكرت وفائه بعهده للأنصار بالعودة إلأى مدينتهم حتى يتوفاه الله.

وتذكرت إعداده لغزوة تبوك وجيش العُسرة والمساهمة الكبرى من عثمان بن عفان رضى الله عنه في إعداد هذا الجيش. وأخيرًا تذكرت مرضه صلى الله عليه وسلم مرض الموت وطلبه أبا بكر أن يصلى بالناس، ثم ذرفت عيناي الدمع حين تذكرت وفاته صلى الله عليه وسلم وانقطاع نزول الوحي لوفاته، وعشت اللحظات التي لم يصدق الناس فيها أنَّ محمدًا قد مات رغم علمهم بأنَّ محمدًا بشر لابد أن يموت كما يموت كل البشر، وعشت مع هياج عمر بن الخطاب حين بلغه الخبر، ورفعه سيفه ملوحًا به قائلًا: "من قال محمدًا قد مات قطعت رأسه بهذا السيف". والتقطت أنفاسي ومسحت دموعي وأنا أسمع صوت أبي بكر من داخلي يقول للناس: أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن اللهَ حيٌّ لا

يموت، وقراءته قوله تعالى: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يغير الله شيئًا وسيجري الله الشاكرين". صدق الله العظيم، بالفعل أدركت أنَّ محمدًا قد مات وها هو جثمانه الطاهر يرقد في مثواه الأخير خلفي، مات جسدًا ولكن روحه باقيةً حية خالدة إلى أبد الأبدين، ورسالته ودعوته باقية إلى يوم الدين، وراية لا إله إلا الله محمد رسول الله الذي رفعها ستظل خفاقة عاليةً شامخة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم نادى المنادي للصلاة وقمنا نصلي، ونصلي الفجر فرض الله ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صاحب الحضرة الشريفة والمقام المحمود والخلق العظيم.

فجزاك الله عنا يا رسول الله خير الجزاء يا من أخرجتنا من الظلمات إلى النور، ويا من هديتنا إلى الإسلام وانقذتنا من ظلام الشرك والكفر والطغيان، ويا من هديت الأمة وكشفت الغَمة وتركتنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وبعد عودتي من أداء العمرة قررتُ مع نفسي كتابة هذا الكتاب عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ثاني كتاب لي عن رسول الإنسانية ومنقذ البشرية فأرجو أن أكون قد وفقت في أدائي لحقك يا رسول الله وأرجو أن يكون قلمي المتواضع وفكري الضحل غير مجازفين في الخوض في سيرتك العطرة التي خاض فيها الكثيرون ولا يزالون يخوضون. وأرجو أن يكون كتابي هذا عن شخصك الكريم فيه علم للناس وفيه إضافة عمن سبقني في هذا المجال، وأرجو أن يكون ما فيه من علم صدقة جارية لي تنفعني يوم ألقى الله وألقى المصير المحتوم، وأرجو أن يغفر القارئ لي أن تقصير قصرته في سيرة خير الأنام عن غير قصد، فالخير أردت والكمال لله وحده وما توفيقي إلا بالله العلي العليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد أشرف الخلق أجمعين

المؤلف

أول رمضان سنة ١٤٢٤ هجرية

١ – من الميلاد حتى نزول الوحي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا سيد ولد آدم، وإنَّ اللهَ اصطفى مِن وَلِد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" ونسبه صلى الله عليه وسلم، فهو محمد الطيب المبارك بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة الحمد) بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصى، بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فِهر بن ملك بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أُدُن وينتهى نسبه صلى الله عليه وسلم إلى جده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم.

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم هي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرة. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما خرجتُ مِن نكاح ولم أخرج مِن سفاح، مِن لدُن آدم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شيء، لم أخرج إلا مِن طهرة".

وكانت آمنة في حِجر عمها وهيب بن عبد مناف بن زهرة، فمشى إليه عبد المطلب ابن هاشم بن عبد منافَ بن قصى بابنه عبد الله بن عبد المطلب، أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطب عليه آمنة، فزوَّجها عبد الله، وخطب إليه عبد المطلب في مجلسه ذلك ابنته هالة بنت وهيب على نفسه فزوجه إياها، فكان تزوج عبد المطلب وتزوج ابنه عبد المطلب في مجلس واحد، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة، وولدة آمنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب وأخاه في الرضاعة. ولمَّا تزوج عبد الله آمنة أقام عند أهلها ثلاثة أيام، وكان تلك السُنى في قريش إذا دخل الرجل على إمرأته في أهلها.

وكان عبد الله، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أتى على إمرأة من قبلة خثعم، فرأت بين عينيه نورًا ساطعًا إلى السماء، فقالت له: هل لك فيَّ؟ ثال: نعم حتى أرمى الجمرة، فانطلق فرمى الجمرة، ثم أتى إمرأته آمنة، ثم تذكر الخثعمية، فأتاهأ، فقالت: هل أتيت إمرأة

بعدي؟ فقال: نعم، إمرأتي آمنة بنت وهب، قالت: فلا حاجة لي فيك، إنك مررت وبين عينيك نور ساطع إلى السماء، فلما وقعت عليها ذهب، فأخبِرها أنها قد حملت خيَر أهل الأرض.

ولمَّا حملت آمنة بنت وهب برسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقول: "ما شعرت أني حملتُ به، ولا وجدتُ له ثقلة كما تجد النساء، ولقد أتاني آت وأنا بين النائم واليقظان، فقال: هل شعرتِ أنك حملتِ، فكأني أقول: ما أدري؟ فقال: إنك قد حملتِ بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، فكان ذلك مما يقَّن عندي الحمل، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد، قالت: فكنت أقول ذلك؟.

وكان عبد الله، والد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد خرج إلى بلدة غزة بفلسطين في عير مِن عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم، ثم انرفوا ومروا بيثرب (المدينة المنورة) وعبد الله يومئذ مريض بالحمى، فقال: أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضًا شهرًا، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله، فقالوا: خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب الحارث أكبر أولاده، فوجده قد تُوفى ودفن في دار النابغة وهو رجل من بني عدي بن النجار، وأخبره أخواله بمرضه وبقيامهم عليه وماولوا من أمره، وأنهم قبروه. فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجدًا شديدًا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ في الحمل، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة.

وترك عبد الله أم أعين وخمسة نياق فأكل الأراك وقطعة غنم، فورث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أم أعين، واسمها بركة، فحضنته وهكذا شاء لرسول الله أن يولد يتيمًا دون أن يرى والده ودون أن يفرح ويسعد عبد الله أبيه بمولده وهذه إرادة الله جلت وعلت إرادته.

ولقد أخبر الواقدي بأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وُلد يوم الاثنين لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول (٢٠ نيسان – أبريل ٧٠م) وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك للنصف من

المحرم، فبين الفيل وبين مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس وخمسون ليلة، وُلد يشعب بني هاشم بالدار التي عند الصفا.

وذكر ابن عباس رضي الله عنه أنَّ آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم – فما وجدتُ له مشقة حتى وضعته، فلمَّا فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب، ثم وقع على الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء" وفي الحديث: ". . . ورؤيا أمي الذي رأت حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام"

ولمَّا ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب فجاءه البشير، وهو جالسٌ في الحِجر معه ولده ورجال من قومه، فأخبره أنَّ آمنة ولدت غلامًا، فسَّر ذلك عبد المطلب، وقام هو ومن كان معه فدخل عليها، فأخبرته بكل ما رأت وما قيل لها وما أمُرت به. فأخذه عبد المطلب فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه. . وسماه محمدًا. وفي اليوم السابع لمولده ختنه جده وأولم وليمة بتلك المناسبة دعا إليها أعيان قريش. وقد أحب عبد المطلب محمدًا صلى الله عليه وسلم حبًا شديدًا نابعًا من حبه لأبيه الذي افتقده وهو في زهرة شبابه، وكان أحب أبنائه إلى قلبه. وكان لعبد المطلب فراش ومجلس خاص في ظل الكعبة لم نجلس معه أحد من أبنائه أو أحفاده والوحيد الذي أجلسه عليه هو حفيده المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ولقد تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم محمد، وأحمد، والحاش، والماحي، والمقفي، والخاتم، والعاقب، وبني الرحمة، وكُني بأبى القاسم. وأول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثويبة، مولاة أبي لهب، أيامًا قبل أن تقدم حليمة السعدية مكة، وأرضعت معه أبا سلمة بن عبد الأسد. فكان أخاه من الرضاعة. وكان أبو لهب قد أعتق ثويبة حين بلغته بخبر مولد محمد صلى الله عليه وسلم ابن أخيه عبد الله فأرضعته.

وقدم مكة عشر نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن الرضاع، فأصبن الرضاع كلَّهن إلا حليمة السعدية بنت عبد الله بن الحارث، وكان معها زوجها الحارث بن الغرى، ويُكنى أبا ذؤيب، وولدها منه عبد الله، وكانت ترضعه، وأنيسة بنت الحارث، وجذامة بنت الحارث وهي الشيماء. وعُرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على حليمة فجعلت تقول: يتيم ولا مال له وما عسى أمه أن تفعل؟ فخرج النسوة وخلّفنها، فقالت حليمة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبي، وليس بمكة غلام يُسترضع إلا هذا الغلام اليتين، فلو أنا أخذناه فإني أكره أن نرجع إلى بلادنا ولم نأخذ شيئًا! فقال لها زوجها: خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيرًا. فجاءت إلى أمه، التي كانت تقف وهي تحمله مكسورة محزونة، فأخذته منها فوضعته في حِجرها، فأقبل عليه ثدياها حتى يقطرا لبنًا، فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى روى وشرب أخوه، ولقد كان أخوه لا ينام من قة لبن أمه. وقالت حليمة لآمنة: إن إبنك هذا سوف يكون له شأن، ماذا قيل لكِ فيه حين ولدتيه؟ قالت: قيل لي في ثلاث ليال: استرضعي إبنك في بني سعد بن بكر، ثم في آل أبي ذؤيب، قالت حليمة: فإن أبا هذا الغلام الذي في حجري أبو ذؤيب، وهو زوجي. فطابت نفسي حليمة وسُرت بكل ما سمعت ثم خرجت به إلى منزلها وركبت أتانها وحملت رسول الله صلى الله وسلم بين يديها وركب الحارث أتانه، وسألت صواحبها عن أمرها فقلن لها: يا حليمة ما صنعت؟ فقالت: أخذتُ والله خير مولود رأيته قط وأعظم بركة. قال النسوة: أهو ابن عبد المطلب؟ قالت: نعم، قالت: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رأيتُ الحسدَ من بعض نسائنا.

وقد أرضعت حليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة سنتين حتى فِطم، وكانت الشيماء هي التي تحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني سعد تنسم هواء البادية النقي ونطق لسانه أول ما نطق باللسان العربي السليم الذي يتميز به أهل البادية ونمى جسده صلى الله عليه وسلم وهو ابن سنتين حتى بدى ابن أربع سنين.

وقد قامت حليمة وأسرتها بزيارة لمكة بعد ذلك ليعيدوا محمدًا إلى أمه بعد الفطام وانتهاء الرضاع وهم جزعون لفراقه بعد ما رأوا من بركته، لكن مكة كان بها وباءٌ آنذاك فخافت عليه أمه منه فطلبت منهم العودة به إلى مضاربهم فسُّروا بذلك غاية السرور سعداء بصحبة هذا الطفل المبارك الذي تأكدوا بأنه سوف يكون له شأن، وبالفعل عادوا برسول الله إلى مضارب بني سعد وظل عند حليمة حتى بلغ سن الرابعة وصار يعدو ويروح مع أخيه وأخته في البهم داخل الحي ترعاه عناية الله ومصداقًا لقوله تعالى (ألم يجدك يتيمًا فآوى). ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتباهي بعروبته وبلسانه السليم في العربية فورد عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر".

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: "يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: نعم، أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهمًا لنا إذ أتاني رجلان – عليهما ثياب بيضٌ – بطست من ذهب مملوء ثلجًا، ثم أخواني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا علقة سوداء فطرحاه، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته. فوزنني لهم فوزنهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته فوزنني بهم فوزنهم، ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمة لوزنها".

وجاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوهن فيجدان رسول الله صلى الله عليه وسلم فينقع اللون، فنزلت به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جده آنافيا، ثم رجعت به أيضًا، فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكانًا بعيدًا. ثم رأت سحابة تظله، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، فأفزعها ذلك أيضًا من أمره، فقدمت به أمه لترده وهو ابن خمس سنين، فلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه. وهو في سن السادسة من عمره ماتت أمه وهي لم تتجاوز العشرين ربيعًا. وقد ماتت الأم

بمنطقة (الأبواء) بين مكة والمدينة (شمال شرقي رابغ على مسافة ٤٠ كم منها)، في طريق عودتها بعد زيارتها معه لقومها أخواله من بني النجار، ماتت من أثر حمى أصابتها. وكانت الأم قد اصطحبت معها في رحلتها إلى المدينة أم أيمن حاضنة الرسول وهما على بعيرين. فنزلت به في دار (النابغة) فأقامت به عندهم شهرًا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أمورًا كانت في مقامه ذلك قال: لما نظر إلى أُطُم بني عدي بن النجار عرفه وقال: كنت ألاعب أنيسة (جارية من الأنصار) على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطيِّر طائرًا كان يقع عليَّ" ونظر إلى الدار فقال: ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار. وكان قوم من يهود المدينة يختلفون ينظرون إليه، فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو بني هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامه، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب، فقبرها هناك.

فرجعت أم أيمن برسول الله صلى الله عليه وسلم على البعيرين اللذيْن قدما عليهما إلى مكة، وظلت تحضنه بعد وفاة أمه. فلَّما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة الحديبية بالأبواء قال: إنَّ الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه. فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له فقال: أدركتني رحمتها فبكيت، ثم قال: استأذنت بي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الانتظار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت".

وشاءت إرادة الله أن يذوق محمد صلى الله عليه وسلم مرارة اليتم وهو طفل صغير وأن يُحرم بذلك من حنان الأبوين لكن الله تعالى عوضه عن ذلك بأن فتح له أشد القلوب إيصادًا وألان له أشد الأفئدة تحجرًا وآواه خير المأوى فكفله جده عبد المطلب، وكان قد طعن في السن آنذاك وبلغ الثمانين من العمر. قال ابن إسحاق: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فِراش في ظل الكعبة. فكان بنوه يجلسون حول

فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنية إجلالًا له. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا إبني، فوالله إنَّ له لشأنًا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسُره ما يراه يصنع".

فلمَّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين مات عبد المطلب وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة وذلك بعد الفيل بثماني سنين، ودُفن بالحَجون، مدفن أهل مكة، فكفله عمه أبو طالب (عبد مناف)، وكان عبد المطلب، فيما يزعمون، يوصى به عمه أبا طالب، وذلك لأنَّ عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا طالب إخوان شقيقان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم. وكانت رئاسة بني هاشم قد آلت إلى ابي طالب بعد وفاة عبد المطلب لكونه أكبر إخوته وكان ابم أبي طالب عبد مناف. وكان له من الولد طالب، وكان أكبر أولاده فكُني به وصار يُعرف بأبي طالب بدلًا من عبد مناف. وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لحظ محمد صلى الله عليه وسلم ذلك، وهو في سن الصبا فطلب من عمه أن يرعى له غنمه، فرعاها، شأنه في ذلك شأن كل إخوته الأنبياء، وقد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "ما بعذ الله نبيًا إلا رعي الغنم".

وكان أبو طالب يحب محمدًا صلى الله عليه وسلم حبًا شديدًا لا يحبه لولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فرادي لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا" فيقول له أبو طالب: "إنك لمبارك".

وكان أبو طالب لا يسافر سفرًا إلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معه فيه. وخرج أبو طالب إلى الشام في رحلة الإيلاف الصبغية، وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة وهو في سن الثانية عشرة، وكانت رحلة الإيلاف تنتهي عند مدينة بُصرى من بلاد إقليم حوران بالشام، وهي تقع على أول الطريق التجاري القادم من الحجاز عند ملتقي

خمسة طرق تجارية هامة. وكانت مدينة بُصرى هي المقر الرئيس الرسمي للأسقف اليعقوبي (المونوفيزيتي)، الذي كان يغرض سيادته الدينية ومذهبه على دولة عرب (الغساسنة) هناك. وقد بنيت في بُصري كنيسة قديمة كانت بها بعض صوامع للرهبان. ويروي الطبري في تاريخه قصة لقاء محمد صلى الله عليه وسلم براهب نصراني كان يسكت إحدى هذه الصوامع يدّعي (بحيري)، وقد تصادف أن نزل محمد صلى الله عليه وسلم وعمه عنُد صومعة بحيري هذا، فصنع لهما طعامًا بعد أن خرج إليهما، وكان من قبل لا يخرج من صومعه ولا يلتفت لأحد من أشياخ قريش. ودار حوار بين محمد وبحيري عرف منه أنَّ بمحمد صلى الله عليه وسلم الأوصاف التي وردت فيما عنده من كتب دينية عن نني آخر الزمان. وطلب بحيري من أبي طالب أن يحافظ على ابن أخيه وأن يعود به سريعًا إلى بلده حتى لا يقع في يد اليهود الذين يعتقدون أنَّ نبي آخر الزمان سوف يكون من بين رجالات بني إسرائيل. وقال له: ارجع بابن أخيك إلى بلده وأضرر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به أبو طالب عائدًا إلى مكة.

وشب رسول الله صلى الله وسلم مع عمه أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته، وهو على دين قومه، حتى بلغ أنْ كان محمدًا صلى الله عليه وسلم رجلًا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا وأكرمهم مخالطةً وأحسنهم جوارًا وأعظمهم حلمًا وأمانة وأصدقهم حديثًا وأبعدهم عن الفحش والأذى، ومأرئى مُلاحيًا ولا مماريًا أحدًا حتى سماه قومه بالصادق الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه. فقد كان الغالب عليه بمكة وصف الصادق الأمين، وكان عمه أبو طالب يحفظه ويحوطه ويعضده وينصره إلى أن مات.

ومكة التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت مولده وطفولته وشبابه وكهولة، والتي عاش فيها رسول الله ثلاثًا وخمسين سنة قبل الهجرة إلى المدينة، بلد قفر فقير برغم عتقه بموقع جغرافي طيب على طريق التجارة بين الشام واليمن، لذا لم يكن لقومها سوى

العمل في التجارة، لم يكونوا مزارعين أو صناع بل كانوا تجارًا انحصر رأس مالهم في المشاركة في رحلتي الشتاء والصيف التجارتين اللتين تتمان إحداهما في الصيف والأخرى في الشتاء بين اليمن والشام.

وإن أبرز ما يلحظه الزائر المسلم لهذا البلد الحرام الطبيعة القاسية المحيطة به من جبال سود جرداء إلى أودية قفراء لا زرع فيها ولا ماء، إلى مناخها القاسي الشديد القيظ خاصةً في فصل الصيف، الأمر الذي يجعل المرء يتساءل سبحان ربي عن حكمته تعالى في أن تتفجر من هذه البيئة القاسية ينابيع الرحمة والحنان وتشع من ظلام أجوائها أنوار الهداية والإيمان.

وفي هذه المدينة الصحراوية التي تحضنها وتحيط بها الجبال الشاهقة الصماء وتخاصم العيش فيها معظم الكائنات الحية وُلد الهدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعايش أيام طفولته وصباه ورجولته وتلقى الوحي فيها من عند الله، وارتقى بها برسالته لتكون أقدس رسالات الله ولتكون آخر تنزيل من السماء إلى الأرض.

ولقد اختار الله تعالى موضع مكة المقدس حين أمر نبيه الخليل إبراهيم أن يرتحل من مصر إليها، وأن يترك ذريته بها وأن يؤذن للناس بالحج، وأن يناجي ربه وهو يودع زوجته الشابة وطفله الوليد بقوله (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وكذلك إخبار ربه عن دعواه لهذه البلدة المقدسة بالخير وبالثمرات في قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر).

واسم مكة اسم قديم، ذكر الباحثون أنه ورد في الكتابات اليونانية القديمة التي ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وأنه تحريف لاسم "مكربة" واختصار له. وإنها مدينة مقدسة كانت لها القداسة من قديم ويقصدها الناس من مواضع عديدة من حضر وبادية. والقرآن الكريم سماها (بكة) وذلك في قوله تعالى: (إن أول بيت وُضع للناس للذي ببمكة مباركًا وهدي للعالمين). كذلك عرُفت مكة بأسماء أخرى عديدة منها: صلاح، وأم رحم، والباسة، والناسة، والحاطمة،

وذكرت في القرآن الكريم أيضًا باسم "أم القرى"، وذلك في قوله تعالى: (وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدقٌ الذي بين يديه ولتُنذر أم القرى ومَنْ حولها).

وللبيت الحرام فضل كبير على أهل مكة منذ نشأتها، وهو أول بيت وُضع للناس على الأرض أسفل البيت المعمور بناه آدم عليه السلام حين نزل من الجنة إلى الأرض مع الملائكة.

وبسبب هذا البيت يقصدها الناس من كل فج عميق إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة لأداء فريضة الحج. وقد عرف البيت بالكعبة لأنه مكعب الشكل، وعُرف أيضًا بالبيت العتيق؛ وقد رفع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام أركان البيت بأمر الله بعد أن تعرض للهدم بسبب سيول قديمة ضربته.

وبمكة جبل يظل عليها يُقال له (أبو قبيس)، وأمامه جبل آخر، وبين الجبلين واد نبتت فيه مكة ونمت فصارت محصورة بين هذين الجبلين اللذيْن عُرفا باسم (الأخشبين). وقد سكنت قبيلة (جُرهم) جبل أبي قبيس قبل أن تسكن (بطحاء) مكة، تجنبًا لخطر السيول التي كانت تنزل من فوق الجبال في بعض الفترات على الوادي فتغرقه وتدمر الحياة فيه. ولمَّا أسكن جد القرشيين (قصي بن كلاب) القرشيين في بطحاء مكة في بيوت ثابتة مبنية، وعُرفوا بقريش البطاح، بقي منهم منْ فضل البقاء على الجبال في ظواهر مكة فعُرفوا بقريش الظواهر.

عاش محمد صلى الله عليه وسلم في بطحاء مكة في شعب بني هاشم من شعاب مكة، وكان دائم التأمل في تاريخ بلدته ومسقط رأسه مكة، وكان على علم كامل بهذا التاريخ، فهو يتذر أنَّ العماليق هم أول من سكن بلدته الحبيبة على أثر هجرتهم إليها من بلاد العراق. ويتذكر أيضًا أنَّ قبيلة جرهم الثانية اليمنية تلت العماليق في سكن مكة على أثر هجرتهم من اليمن إليها وتغلبهم على العماليق وطردهم منها. ويتذكر رسول الله جيدًا هجرة جده إبراهيم الخليلل إلى مكة من العراق في عهد سيادة جرهم عليها مع زوجته المصرية (هاجر) وطفله الرضيع (إسماعيل) جده وجد كل العرب المستعربة، ويتذكر كيف نبعت بئر زمزم بماء الجنة من تحت قدم جده إسماعيل واستمرار إنبثاقها حتى أيامه وحتى تقوم الساعة.

وها هي قبيلة جرهم تأتي على أثر الماء وتستأذن السيدة هاجر في السكن معها مع ابنها، وكيف قامت الحياة وازدهرت في تلك البقعة التي كانت بالأمس صحراء جرداء لا يسكن بها إنس ولا جان.

كان محمد يتأمل ويتذكر كيف أنقضت دولة جرهم من مكة وخلفتهم عليها قبيلة خزاعة التي هاجرت من اليمن بعد وقوع سيل العرِض هناك وانهيار سد مأرب، وكيف ظلت خزاعة على رياسة مكة حوالي ثلاثة قرون حتى تقوت عليها قبيلة قريش وانتزعت الرئاسة منها، بقيادة (قصى بن كلاب) الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجلتها إلى وادي فاطمة بالحجاز. وقد سُمي قُصى (مُجيمعاً) لأنه جمعَّ قومه قريش من الشعاب والأدوية والجبال إلى بطحاء مكة، وأسكنهم شعاب داخلها، كل شعب لعشيرة من العشائر، وصار أمر كل شعب لرؤسائه وهم أصحاب الحل والعقد فيه بسبب عدم وجود حكومة مركزية في مكة بالمعنى المعروف للحكومة الآن.

وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم طبيعة المجتمع المكي، الذي لم يكن في منأي عنه، عرف أن رؤساء الشعب وهم الزعماء في مكة، وقد عُرفوا باسم (الملأ)، وهم محافظون لا يقبلون تجديدًا ويتعلقون بتراث الآباء والأجداد، يجتمعون في (دار الندوة) للتشاور في أمورهم الهامة ويتخذون فيها القرارات، دون أن تكون تلكك القرارات مُلزِمة ولا يحصل الإجماع بها إلا بالاتفاق. ودار الندوة هي أول دار بنيت بمكة بناها قصي، الذي أحدق في مكة الرفادة والسقاي للحجيج، والحجابة، واللواء، وقد ظلت جميعها في يده، وهو شرف اختص به.

عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه كان لقصي أربعة أولاد وابنه واحدة، وأبناؤه هم: المغيرة، وشهرته عبد مناف وعبد الله وشهرته عبد الدار، وعبد العُزى، وعبد قصي، والإبنة تدُعي هند، وأنَّ عبد الدار كان أكبر أبناء قصي وأحبه إلى قلبه وأقربهم إليه، وأنَّ عبد مناف كان أشرفهم. وأنَّ قصيًا لمَّا طعن في السن وضعف بدنه لم يعد قادرًا على تولى أمور مكة فأوصى لابنه عبد الدار بما كان له من وظائف رئاسية على قريش وأن يحل مكانه فيها

ليعوضه بذلك ما نقصه من شرف أخيه عبد مناف. ولمَّا توفي قصي قام عبد الدار بعد أبيه بأمر مكة وقريش ولم ينازعه أخوه عبد مناف في ذلك، احترامًا لرغبة أبيه. واستمر الحال على ذلك حتى توفي عبد الدار وعبد مناف. وعرفت رسول الله وقوع النزاع بين أبناء الأخوين على الرئاسة وانقسام قريش إلى فريقين فريق مع أبناء عبد الدار وفريق مع أبناء عبد مناف، وهم أجداده: هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل. وقد عُرف فريق عبد مناف باسم (المطيبين) بينما عُرف الفريق الثاني (بالأحلاف)، وكان القتال يقع بين الفريقين لولا أن تداعي الناس إلى الصلح، فاصطلحوا على أن تقسم الاختصاصات بينهما، على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأن تبقي الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ورضي الفريقان بهذا وتحاجز الناس عن الحرب، وظل الأمر كذلك حتى مجيء الإسلام.

عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من حزب بني عبد مناف أنَّ جده هاشم بن عبد مناف وهو الذي تولي أمر بني هاشم ولزم السقاية والرفادة حتى وفاته (سنة ٤٦٤م)، وقد سن هاشم لقريش رحلةْ الشتاء والصيف. وقد تُوفي هاشم بالشام في رحلة من هذه الرحلات، مخلفه في مناصبه أخوه المطلب. وكان هاشم قد تزوج في يثرب من سيدة من الخزرج ذات شرف ونسب تدُعي سلمى بنت عمرو من بني النجار وأنجب منها ولدًا أسمته (شيبة). وقد ترك هاشم إنه مع أمه في يثرب قبل أن يلقي منيته، فلمّا مات هاشم في غيره ذهب أخوه المطلب إلى يثرب ليحضر ابن أخيه من هناك ليعين مع أهله في مكة. فلمَّا جاء به إلى مكة أطلق الناس عليه اسم (عبد المطلب)، وغلب هذا الاسم عليه حتى نسي الناس اسمه الأصلي شيبة.

وقد قام عبد المطلب، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مناصب أبيه بعد وفاة عمه المطلب ببلدة ردمان من بلاد اليمن (سنة ٤٩٥م). فصارت السقاية والرفادة لعبد المطلب. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشعر من سيرة جده عبد المطلب حب أهل مكة له

وعظم قدره عندهم خصوصًا عند تحديه وتصديه لأبرهة النجاشي حين قصد مكة لهدم الكعبة في العام الذي عُرف بعام الفيل، وهو العام الذي وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حب جده عبد المطلب له وهو طفل صغير وإيثاره له عن أولاده وتعويضه عن يتمه بعد موت أمه وهو ابن ثماني سنين. وتذكر حزنه على وفاته وهو في الثمانية من عمره وتوصية لابنه أبي طالب برعايته والقيام على أمره بعد أن ورث أبو طالب مهام أبيه.

تداعت أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الذكريات لهذه الأحداث التي سمع عنها والأحداث التي عاشها وهو طفل صغير، ثم تراءت أمامه الأحداث التي عاشها وهو شاب ومنها حروب الفجار التي كانت تقع في الأشهر الحُرم ومنها الحرب التي اقتتلت فيها كل من قبيلته قريش مع قبيلة هوازن وعُرفت (بيوم نخلة) في الأشهر الحرم واشتد وطيس القتال فيها حتى احتمت قريش بالحرم. وقد شهد رسول الله يوم نخلة الذي وقع في العام العشرين من عام الفيل ورسول الله عمره عشرون عامًا. وقد كان رسول الله يجمع سهام العدو لأعمامه ليُلقوا بها إليهم. وقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الفجار، فقال "قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت".

ومكة التي عاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت مولده ***وشبابه وكهولته، والتي عاش فيها رسول الله ثلاثًا وخمسين سنة قبل*** الهجرة إلى المدينة، بلد قفر فقير برغم عتقه بموقع جغرافي طيب على طريق التجارة *** الشام واليمن، لذا لم يكن لقومها سوى العمل في التجارة، لم يكونوا مزارعين أو صناع بل كانوا تجارًا انحصر رأس مالهم في المشاركة في رحلتي الشتاء والصيف التجارتين اللتين تتمان إحداهما في الصيف والأخرى في الشتاء بين اليمن والشام. وإن أبرز ما يلحظه الزائر المسلم لهذا البلد الحرام الطبيعة القاسية المحيطة به من جبال سود جرداء إلى أودية قفراء لا زرع فيها ولا ماء، إلى مناخها القاسي الشديد القيظ خاصةً في فصل الصيف. الأمر الذي يجعل المرء يتساءل سبحان ربي عن

حكمته تعالى في أن تتفجر من هذه البيئة القاسية ينابيع الرحمة والحنان وتشع من ظلام أجوائها أنوار الهداية والإيمان. في هذه المدينة الصحراوية التي تحتضنها وتحيط بها الجبال الشاهقة الصماء وتخاصم العيش فيها معظم الكائنات الحية وُلد الهدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاش أيام طفولته وصباه ورجولته وتلقي الوحي فيها من عند الله، وارتقى بها برسالته لتكون أقدس رسالات الله ولتكون آخر تنزيل من السماء إلى الأرض.

ولقد اختار الله تعالى موضع مكة المقدس حين أمر نبيه الخليل إبراهيم أن يرتحل من مصر إليها، وأن يترك ذريته بها وأن يؤذن للناس بالحج، وأن يناجي ربه وهو يودع زوجته الشابة وطفله الوليد بقوله (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غيرذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وكذلك إخبار ربه عن دعواه لهذه البلدة المقدسة بالخير وبالثمرات في قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر). واسم مكة اسم قديم، ذكر الباحثون أنه ورد في الكتابات اليونانية القديمة التي ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وأنه تحريف لاسم "مكربة" واختصار له. وأنها مدينة مقدسة كانت لها القداسة من قديم ويقصدها الناس من مواضع عديدة من حضر وبادية، والقرآن الكريم سماها (بكة) وذلك في قوله تعالى: (إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدي للعالمين). كذلك عُرفت مكة بأسماء أخرى عديدة منها: صلاح، وأم رحم، والباسة، والناسة، والحاطمة، وذكرت في القرآن الكريم أيضًا باسم "أم القرى"، وذلك في قوله تعالى:

****

هشام (أبو جهل)، وعمرو بن عبد الله بن صفوان من أمية، والوليد بن المغيرة المخزومي (والد خالد بن الوليد)، وسعيد بن العاصي بن أمية، وقيس بن عدي السهمي، وابو سفيان بن حرب، وعبد العزي بن عبد المطلب (أبو لهب) عم الرسول، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام.

عايش رسول الله صلى الله عليه وسلم جالية كبيرة بمكة من أصل أفريقي عُرفت ([الأحابيش)، وهم من الرقيق الأسود المستورد من أفريقيا، اشتراهم أثرياء مكة لخدمته والعمل لهم في مختلف الأعمال. وهم بخلاف القبائل التي حالفت قريش وقت نزولها بطحاء مكة، وكانت تعُرف أيضًا بالأحابيش وكانت تسكن أسفل جبل خارج مكة يعُرف باسم جبل حبيش، فنسبوا إليه. كذلط كان في مكة رقيقق أبيض كان يُشترى من أسواق النخاسة العالمية، وكان غالبيتهم نصارى لا يتقنون الحديث بالعربية.

ولقد أدى هذا التردي الاجتماعي في مكة قبل الإسلام إلى الخلل في المجتمع وإلى شيوع الفساد والرذيلة والظلم فيه، وكان الأمر في حاجة ماسة إلى الإصلاح، وكان مجتمع مكة يغلي كأنه يعيش على فوهة بركان. ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بمعزل عن رصد هذه الآفات التي كانت تنخر في جسد مجتمع مكة. كان يرى العصبية القبيلة وهي تفتك بهذا المجتمع ومن مظاهرها حمية الجاهلية والأخذ بالثأر والحروب المستمرة بين القبائل بعضها وبعض لأتفه الأسباب، وكيف أنَّ الأخذ بالثأر كان أمرًا مقدسًا عند تلك القبائل؛ الأمر الذي زرع الكراهية والحقد والانقسام بينهم وجعل الجروح تظل غائرة معهم طوال تاريخهم.

كان عليه السلام يستنكر العادات السيئة التي ورثها ثومه وأولها عبادة الأصنام والأوثان، كذلك عادة وأد الإثاث خوفًا من إلحاق العار بالقبيلة أو العشيرة، وأيضًا أنواع الزواج الفاسدة مثل زواج الشغار، وزواج المقت، وزواج المشاركة، وزواج الاستبضاع، وزواج الحزن، وزواج الأسى، وكلها زيجات لا تخرج عن نطاق الزنا الذي حرمه الإسلام.

كذلك إن رسول الله يستنكر حياة المجون التي كان يعيشها شباب عصره والانغماس في الشهوات والتباهي بذلك على أنه سمة من سمات الشباب والفتوة. كما أنه كان يستنكر تفشي شرب الخمر بين الناس وانتشار الخمارات في كل مكان، وكانت تعُرف بالحوانيت وبالمواخير.

عاش محمد صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه مثالًا للشاب النظيف، وشب وعناية الله تكلأه وتحفظه وتصونه من أقذار الجاهلية، ونشأ بين قومه واشتهُر بالصدق لأنه لم يجرب عليه كذب قط، وبالأمانة لأنه لم تعرف الخيانة وإلى طريقه على الإطلاق سبيلًا مميزًا عن غيره لا يجهل ذلك أحد ولا يساويه في ذلك رجل ولا ينكر ذلك عده ولا يهتمه خصم ولمَّا بُعث عليه السلام وكُلف بالرسالة وناصبه قومه العداء لم يشكوا في صدقه وأمانته فهم لم يعتادوه كاذبًا أو خائنًا، ولم يستطيعوا أن يتهموه في خلقه أو أن يعيبوا طريقه. لقد عاش محمد بينهم أربعين عامًا يجدون فيه القدوة الحسنة والمثل الأعلى لم يجدوا خلالها أي خصلة غير حميدة ولو كانوا وجدوها فيه لما تأخروا في الاجتماع بها أمام القبائل التي كان يخرج محمد إليها في المواسم يدعوهم إلى الإسلام وبخاصة في موسم الحج حتى يبعدوهم عنه ويسومونه أمامهم. لقد عجزوا عن ذلك بعد أن فتشوا في سجل حياة محمد طوال أربعين عامًا عاشها بينهم فلم يجدوا ما يتهمونه به سوى صفة الساحر، الساحر الذي سحر الناس بدعوته، وفرَّق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج والزوجة. وعندما أراد القلة منهم أن يصفوه بالكذب استنكر الغالب منهم ذلك وقالوا في فمٍ واحد جميعًا: "حاشا لله ما جربنا عليه كذبًا قط".

لم يشارك محمد صلى الله عليه وسلم شباب مكة في لهوهم ولعبهم وإقبالهم على الحياة واستغراقهم في الملذات والشباب، وكان ذلك أمرًا ميسرًا لشباب مكة الذي كان يعيش في مجتمع استشرى فيه الفساد وانغمس الشباب فيه إلى الأذقان وأولت لهم فيه الموبقات والمنكرات وليس هنالك من راوع يردعهم عنه ولا وازع يوزعهم. لقد أثر محمد صلى الله عليه وسلم رصد مجتمع والتأمل لمَا يقع فيه وتحسره على حالة التردي والانيهار الخلقي التي وصل إليها، وكثيرًا ما كان يؤثر الوحدة والخلوة مع نفسه والتطلع إلى السماء يستلهم فيها الإلهام والطمأنينة. كانت نفسه حيرى وكان قلبه ينبض من داخله بأشياء كثيرة غامضة عنه. وكانت فطرته صلى الله عليه وسلم تأبى عليه أن يكون مثل أقرانه، وكان إعداده الرباني محيفة من التهافت على على الدنيا، فلقد أعده الله تعالى إعدادًا خاصًا لتحمل مسئولية رسالة

كبرى وشب وعين الله ترعاه وتحفظه من أوراق مجتمعه الجاهلي. كان عليه أن يصبر وينتظر حتى تحين الساعة المرجوة وحتي ينفلق ضوء الصبح الجديد، وقد أمره الله تعالى بذلك حين قال (وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم). لقد كفلك الله يا محمد وحباك بالخلق العظيم ومدحك في كتابه الكريم بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم).

لمَّا بلغ محمد صلى الله عليه وسلم الخامسة والعشرين تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي بنت شريفات قريش من بني أسد، ترملت وهي صغيرة السن ومات عنها زوجها أبو هالة (هند بن زرارة) وأنجبت منه ابنها هالة، ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد عزفت خديجة عن الزواج بعد موت زوجها حتى بلغت سن الأربعين، ففكرت في الزواج من محمد صلى الله عليه وسلم الذي حُمدت سيرته بين جميع شباب قريش. وقد اختبرت خديجة أمانته وصدقه وطهره حين استأجرته على تجارة لها ببلاد الشام، وكانت هذه المرة الثانية التي يتوجه فيها رسول الله إلى بلاد الشام. وكانت خديجة تشارك في تجارة الإيلاف بأموالها تستأجر الرجال الأمناء ليقوموا لها بذلك في قوافل الشام واليمن نظير مال تجعله لهم. فلمَّا بلغها ما بلغها عن محمد صلى الله عليه وسلم من حسن الخصال وكرم الأخلاق والصدق والأمانة وطيب السيرة، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطيه لغيره من التجار الأجراء. فوافق وخرج إلى الشام في رحلته الثانية إليها مع خادم لها يُدعي (ميسرة). وقد كانت نهاية رحلة التجارة إلى بلدة بصرى، التي سبق لرسول الله زيارتها مع عمه أبي طالب وهو في سن الثانية عشرة. وهنالك باع سلعته التي خرج بها واشترى لخديجة ما طلبت منه شراءه من سلع. ولمَّا عاد الرسول إلى مكة وعاد معه ميسرة، أخذ ميسرة يفيض لسيدته في الحديث عما شاهده ولمسه من كرامات محمد أثناء الرحلة وحسن صحبته. فلمَّا أخبرها ميسرة بذلك ازدادت خديجة تعلقًا بحب هذا الفتي النبيل والشاب الأمين، فبعث إليه تعرض عليه نفسها

ليتزوج منها، وكانت تلك عادة الشريفات من نساء مكة أن يخطبن لأنفسهن من يجدن فيه شرف الاقتران بهم.

ويحكي ابن سعد في طبقاته عن خبر التزويج هذا بقوله: "أخبرنا محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، حدثنا موسى بن شيبة، عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك عن أم سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد المعزى بن قصي، امرأة حازمة جَلْدَ شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا، وكلُ قومها كان حريصًا على زواجها لو قدر ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتنى وسيسًا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد، ما عيفك أن تزوج. فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا يجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت قلتُ: عليَّ، قال: فأنا أفعل، فذهبتُ فأخبرتها، فأرسلت إليه أن إئت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليُزوجها، محضر، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته فزوَّجه أحدهم، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة، وكانت قد ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة. ولقد عاش محمد صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة عيشة زوجية هانئة هادئة وفرتها إليه الزوجة الصالحة المحبة.

وقد أنجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة كل أبنائه وبناته ما عدا إبنه إبراهيم الذي أنجبه من (ماريا القبطية) المصرية. وكان أبناء الرسول من خديجة ولدان وأربعة بنات؛ أما الولدان فهما أكبرهما وهو (القاسم) وقد وُلد قبل النبوة وبه كان يُكني فعُرف بأبي القاسم، وقد مات وهو ابن سنتين. أما الابن الثاني فهو (عبد الله) وقد لِقُبَ بالطيب وبالطاهر، وقد توفى بعد البعثة بعامين وهو أيضًا ابن سنتين. أما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وكانت زينب كبرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوجت قبل البعثة من

ابن خالتها (أبي العاصي بن الربيع) وتويت في العام الثامن للهجرة، والإبنة الثانية هي رقية، ووُلدت قبل البعثة وتزوجت من (عتبة بن أبي لهب)، ثم طُلِّقَت منه حين بُعث رسول الله لاستمرار رغبة على الكفر، وتزوجت من بعده من ذي النورين عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت في المدينة غداة رجوع رسول الله منتصرًا من غزوة بدر السنة الثانية للهجرة. والإبنة الثالثة هي أم كلثوم، تزوجت قبل البعثة بن عتيبة بن أبي لهب، ثم فارقه لعدم دخوله في الإسلام، وهاجرت إلى المدينة وتزوجت من عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقية، وظلت مع عثمان حتى وفاتها عنده في العام التاسع للهجرة. أما فاطمة فهي صغرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وُلدت في العام الخامس قبل البعثة، وتزوجت من علي بن أبي طالب في العام الثاني للهجرة، وتوفيت بالمدينة بعد وفاة أبيها سيد الخلق الخالد الذكر في العام الحادي عشر للهجرة بستة شهور، ومن أبنائها الحسن والحسين وفاطمة الزهراء.

* * *

تصدعت الكعبة، ومحمد صلى الله عليه وسلم، في سن الخامسة والثلاثين على أثر سيل عارم أصاب مكة آنذاك، وكانت مكة تتعرض للسيول في أوقات متفاوتة، وكانت هذه السيول تتفاوت في قوتها وشدة تخريبها. وفي ذلك العام، الخامس قبل البعثة، كان التخريب قويًا، وكان لزامًا أن يعُاد بناء البيت من جديد من جراء التصدع الشديد الذي أصابه. وقد تصادف أن رمي البحر آنذاك بسفينته تجارية قادمة من مصر في البحر الأحمر، وكانت مملوكة لتاجر رومي يُدعي (باخوم)، وكان باخوم هذا بناءً إلى جانب كونه تاجرًا. فاشترت منه السفينة بما تحمل من خشب ومواد بناء، وكان يسكن مكة رجل من أقباط مصر يحترف النجارة، فوافقهم على أن يعمل لهم مع باخوم في إعادة بناء الكعبة. وذكر ابن سعد أن السفينة الرومية كانت قد تحطمت عند مرفأ الشعيبة بسبب فعل الريح القوية. وذكر أيضًا أنَّ الوليد بن المغيرة هو ونفر من قريش قاموا بشراء خشبها والاتفاق مع باخوم على أمر بناء الكعبة.

فلَّما أجمعوا على هدم الكعبة، لإعادة بنائها، بدأ الوليد الهدم وأخذ المِعول، فهدم وهدمت معه قريش، ثم أخذوا في بنائها، وميَّزوا البيت وأقرعوا عليه، فوقع لعبد مناف وزهرة ما بين ركن الحجر وجه البيت، ووقع لبني أسد بن عبد العزى وبني عبد الدار بن قصي ما بين ركن الحِجر إلى ركن الحِجر الآخر، ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحِجر إلى الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدي وعامر بن لؤي ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود، فبنوا. فلما انتهوا إلى حيث يوضع الحجر الأسود من البيت قالت كل قبيلة نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى كادوا أن يقتتلوا. ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو واضعه، وقالوا رضينا وسلمنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بني شيبة، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا بما قضى بيننا. ثم أخبروه الخبر، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءَه وبسطه في الأرض، ثم وضع الحجر فيه، ثم قال: ليأتي من كل ربع من أرباع قريش رجل، فكان في ربع بني عبد مناف عقبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب، ثم ارفعوه جميعًا، فرفعوه، ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في موضعه ذلك، ثم بنوا حتى انتهوا إلى موضع الخشب عند السقف.

وحسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الموقف ومنع بحكمته ورجاحة عقله تقاتل قريش، ووضعت الحجر مكانه اليد التي أراد الله تعالى أن يتشرف الحجر بوضعها له مكانه.

وكان الحجر الأسود، وهو حجر مبارك أُنزل مع آدم عليه السلام من الجنة، وكان أشد بياضًا من الثلج، ولمَّا حج آدم وضع الحجر الأسود على جبل أبي قبيس فكان يضيء لأهل مكة في الليالي المظلمة كما يضيء القمر؛ فلمَّا كان قبل الإسلام بأربع سنين وقد كان الحائضات والجُنب يصعدون إليه ويتمسحون به فأسود فأنزله قريش من جبل أبي قبيش إلى الكعبة.

وذكر ابن إسحاق ما كانت قريش قد ابتدعته فيما يسمى بالحُمْس، وهو الشدة في الدين والصلابة. وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيمًا زائدًا بحيث التزموا بسببه أن لا يخرجوا منه ليلة عرفة ولا يتفون بعرفة، وكانوا يقولون: نحن أبناء الحرم وتطّاق بيت الله، فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من بدعة الحمس الفاسدة. وكانوا يمنعون الحجاج والمعتمرين – ما داموا محرمين – أن يأكلوا إلا من طعام قريش ولا يطوفوا إلا في ثياب قريش، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس طاف عريانًا ولو كانت امرأة، فكانوا كذلك حتى بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن يدحض ما ابتدعوه بقوله تعالى: (ثم أفيضوا حيث أفاض الناس)، أي من عرفات. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف بعرفات قبل أن ينزل عليه الوحي توفيقًا من الله له، وكان يفيض منها وكان أصحاب الحمس يفيضون من جَمْع (المزدلفة).

* * *

٣- بشارات مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلامات نبوته قبل نزول الوحي عليه وبعده

أ) قبل نزول الوحي

قال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان والنصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قبل مبعثه لما تقارب من زمانه.

أما أحبار اليهود ورهبان النصارى فقد وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه. وأمَّاَ الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع إذ كانت هي لا عَجُبُ عن ذلك بالقذف بالنجوم. وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ولا تُلقى العرب لذلك فيه بالًا، حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون، فعرفوها. فلمَّا تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر

مبعثه، حجُبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها فرُموا بالنجوم. فعرفت الجن أنَّ ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد. يقول الله تعالى لبنيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه، وهو يقص عليه خبر الجن إذ حُجبوا عن السمع فعرفوا ما عرفوا وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا: (قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا وأنه تعالى جدُ ربنا ما اتخذ صاحبَّه ولا ولدًا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططًا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبًا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا).

إلى قوله تعالى: "وأنا لا ندرى أشرٌ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا".

فلمَّا سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما مُنعت من السمع قبل ذلك لئلا يُشكل الوحي بشيء من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه لوقوع الحجة وقطع الشبهة فآمنوا وصدّقوا، ثم: (ولو إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أُنزل مِن بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم). وكان قول الجن: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا)، أنه كان الرجل من العرب من قريش وغيرهم إذا سافر فنزل بطن وادٍ من الأرض ليبيت فيه قال: "إني أعوذ بعزيز هذا الوادي من الجن الليلة من شر ما فيه".

ولقد وجد أحبار اليهود ورهبان النصارى في كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه، قال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم من المنكر ويحُل لهم الطيبات ويُحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون) [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل) كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) [آل عمران: ٨١].

وقال ابن إسحاق بأنَّ اليهود كانوا يعرفون قرب نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويكفرون به، وقال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه من الأنصار قالوا: "إنَّ مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لِمَا كنا نسمع من رجال يهود، وكنا أهل شِرك أصحاب أوثان وكانوا هم أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلمَّا بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من سورة البقرة: (ولمَّا جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لِما معهم وكانوا مِن قبل يستفتحون على الذين كفروا. فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)".

وأورد ابن إسحاق حديث سلمة بن سلامة بن وقش حديثه عن جاره اليهودي الذي أنذر بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، فخرج علينا يومًا من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل، وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنًا عليَّ بُردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، وذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يروْن أنَّ بعثًا كائنًا بعد الموت. فقالوا له:

ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائنًان أنَّ الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يُجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلف به، ويوَدُ أن له بحظةِ من تلك النار أعظم تنور في الدار، يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطيغونه عليه بأن ينجو من تلك النار غدًا. فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال: بني مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، فقالوا: ومتى تراه؟ فنظر إليَّ وأنا مِن أحدثهم سنًا، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمَره يدركه". قال سلمة: "فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسوله، صلى الله عليه وسلم، وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به وكفر هو به بغيًا وحسدًا". قال: "فقلنا له: ويحك يا فلان! ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به".

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: "ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنَن به ولينصرنَه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بعُث محمد وهم أحياء ليؤمنَن به ولينصرُنه"، ويُعلو من هذا أنَّ جميعَ الأنبياء قد بُشروا بمعثه وأمُروا باتباعه. وقد قال إبراهيم عليه السلام، أبو الأنبياء، فيما دعا به لأهل مكة: (ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) [البقرة: ١٢٩].

وروي الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي أمامة قوله: "قلت يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟"، قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام".

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: "يا رسول الله أخبرنا عن نفسك". قال: "نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام". ومعنى هذا أنه أراد صلى الله عليه وسلم بدء أمره بين الناس واشتهار ذكره وانتشاره، فذكر دعوة إبراهيم الذي تنتسب العرب إليه، قم بشرى عيسى الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ويدل هذا على أن من بينهما من

الأنبياء بُشروا به أيضًا. أمَّا في الملأ الأعلى، فقد كان أمره مشهورًا مذكورًا معلومًا حين قبل خلْقه آدم أبي البشر عليه السلام. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد في مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني عند الله خاتم النبيين، وآدم لمنجدل في طينته". وفي رواية: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "متى وجبت لك النبوة؟" قال: "بين خلْق آدم ونفخ الروح فيه"، ومن حديث ابن عباس: "قيل يا رسول اله متى كنت نبيًا؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد".

وقال الله تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون) [الأعراف: ١٥٧].

وثبت في الصحيح أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بمدارس اليهود فقال لهم: "يا معشر اليهود أسلموا، فوالذي نفسي بيده؛ إنكم لتجدون صفتي في كتبكم".

وروي الإمامان أحمد والبخاري عن عطاء بن يسار قال: "لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرني عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال: "أجل؛ والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي وإنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عُميًا وآذانًا صُمًا وقلوبًا غُلفًا".

وفي الكتاب العزيز آيات كثيرة تتحدث عن علم أهل الكتاب بحقيقة قرب بعث محمد برسالة الإسلام، من ذلك قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) [القصص: ٥٢ ، ٥٣]. وقوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنَّ فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)

[البقرة: ١٤٦]. وقال تعالى: (إنَّ الذين أوُتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سُجدًا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولًا) [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]. وقال تعالى إخبارًا عن القسيسين والرهبان: (وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) [المائدة: ٨٣].

وأورد ابن إسحاق إثبات بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإنجيل برواية (يحنس الحوارى) عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحنس هذا قد نسخ الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم عليه السلام الذي قال: "منْ أبغضنى فقد ابغض الرب، ولولا إني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة ولكن من الآن بَطروا وظنوا أنهم يغروننى وأيضًا للرب ولكن لابد من أن تتم الكلمة التي في الناموس. إنهم أبغضوني باطلًا فلو قد جاء (المنحمنا) هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب. وروح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيدٌ عليَّ وأنتم أيضًا لأنكم قديمًا كنتم معي في هذا، قلت لكم ليكا لا تشكو". والمُنْحْمنِا بالسريانية: محمد، وهو بالرومية: البرقليطس (الفارقليط) والمراد محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد ظهرت علامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحي إليه منها أنَّ حليمة السعدية لمَّا جاءت إلى مكة وأخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم لترضعه قالت لها أمه آمنة بنت وهب: "يا حليمة، اعلمي أنك قد أخذتِ مولودًا له شأن، والله حملتُه فما كنت أجد ما تجد النساء من الحمل، ولقد أتيت فقيل لي: إنك ستلدين غلامًا فسميه أحمد وهو سيد العالمين، وقد وقع معتمدًا على يديه رافعًا رأسه إلى السماء". قال محمد بن عمر الواقدي: "فخرجت حليمة إلى زوجها فأخبرته، فسُر بذلك، وخرجوا على أتانهم منطلقة وعلى مشارفهم درَّت باللبن، فكانوا يحلبون منها غبوقًا وصبوحًا، فطلعت على صواحبها فلمَّا رأنيها قلن: من أخذتِ؟ فأخبرتهن، فقلن: والله إنا لنرجو أن يكون مباركًا، قالت حليمة: قد رأينا بركته، كنت لا أروي إبني عبد الله ولا يدعنا ننام من الغرث، فهو وأخوه يرويان ما أحبا وينامان ولو كان

معهما ثالث لروى. ولقد أمرتني أمه أن أسأل عنه فرجعت به إلى بلادها فأقامت به حتى قامت سوق عكاظ فانطلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تأتي به إلى عَرّاف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلمَّا نظر إليه صاح: يا معشر هذيل، يا معشر العرب. فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم، فقال: اقتلوا هذا الصبي! وانسلت به حليمة فجعل الناس يقولون: أي صبي؟ فيقول: هذا الصبي، ولا يرون شيئًا، وقد انطلقت به حليمة إلى أمه. فيقال للعراف: ما هو؟ فقال لهم: رأيتُ غلامًا وآلهتي ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آلهتكم وليظهرن أمره عليكم. فطلُب بعكاظ فلم يوجد ورجعت به حليمة إلى منزلها. فكانت بعد ذلك لا تعرضه لعراف ولا لأحد من الناس".

قال محمد بن عمر الواقدي: "جعل الشيخ الهذلي يصيح: يا لهذيل وآلهتها، إنَّ هذا الصبي لينتظر أمرًا من السماء. قال: وجعل يُغرى بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى دَلَه فذهب عقله حتى مات كافرًا".

وأورد الواقدي عن ابن عباس قوله: "خرجت حليمة تطلب النبي صلى الله عليه وسلم وقد بدت البَهم تُقَيّل، فوجدته مع أخته، فقالت: في هذا الحر! فقال أخته: يا أمه ما وجد أخي حَرًا، رأيتُ غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت معه حتى إنتهى إلى هذا الموضع".
وقد تنبأ عبد المطلب، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لِما سمعه من مواصفات مولد النبي وكراماته بأنه سوف يكون له شأن كبير، وقد حدَّث بذلك أبناءه لمَّا أرادوا أن يحولوه عن فراشه حول الكعبة. وكان النبي عليه السلام يأتي، وهو غلام، حتى يرقى الفراش فيجلس عليه فيقول أعمامه: "مهلًا يا محمد عن فراش أبيك"، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك به: " إنَّ ابني ليُحدِث نفسه بمُلك".

وروى أبو طالب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يومًا بذي المجاز ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركه العطش فشكي إليه قائلًا: "يا ابن أخي قد عطشت، وما قلت له ذلك

وأنا أرى أنّ عنده شيئًا من الماء، قال: فنزل عن الدابة وقال: يا عم أعطشت؟ قال: قلت نعم، قال فأهوى بعقبيه إلى الأرض وإذا بالماء. فقال: أشرب يا عم، قال فشربت".

وروى ابن سعد قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع بحيرًا الراهب عند سفرته الأولى إلى الشام وهو ابن ثنتي عشرة سنة، وكيف أنه لحظ الغمامة تظلل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام بالنظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته. وأورد ابن سعد الحديث الذي دار بين بحيرًا والنبي صلى الله عليه وسلم وأول سؤال له هو قوله: "يا غلام أسألك بحق اللات زالعزى إى أخبرتني عما أسألك؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئًا بغضهما. قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه؟ قال سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حال قومه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده. قال: فقبل موضع الخاتم. وقالت قريش؟ "إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا". وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ فقال أبو طالب: إبني، قال: ما هو بإبنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حُبلى به، قال: فما فعلت أمه، قال: توفيت قريبًا، قال: صدقْت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا عنه ما أعرف ليبُغنه غنتًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، وأعلم أني قد أديت إليك النصيحة". فلمَّا فرغوا من تجارتهم خرج به أبو طالب سريعًا.

وأورد ابن سعد، أنَّ رجالًا من اليهود رأوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وعرضوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرًا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: "أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل فصدقوا وتركوه" ورجع به أبو طالب، فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه.

قال الواقدي: قال الراهب لأبي طالب: "لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ههنا، فإن يهود أهلُ عداوة، وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب ويهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك".

وأضاف الواقدي بخصوص علامات النبوة في رسول الله عليه السلام قبل أن يوحى إليه، أنه لمَّا خرج عليه السلام في التجارة لخديجة مع غلامها ميسرة حتى قدما بُصرى من الشام، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان يقال له (نسطورس)، فاطلع الراهب إلى ميسرة، وكان يعرفه قبل ذلك، فقال: "يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟" فقال ميسرة: "رجل من قريش من أهل الحرم"، فقال له الراهب: "ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي"، ثم قال: "في عينيه حمرة؟" قال ميسرة: "نعم لا تفارقه"، قال الراهب: "هو هو آخر الأنبياء يا ليت أني أدركه حتى يؤمر بالخروج".

ثم حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى، فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل: "احلف باللات والعزى"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما حلفت بهما قط وإني لأمُر فأعُرض عنهما". قال الرجل: "القول قولك". ثم قال لميسرة وخلابه: "يا ميسرة هذا والله نبي، والذي نفسي بيده إنه لهو تجده أحبارنا في كتبهم منعوتًا"، فوعى ذلك ميسرة، ثم انصرف أهل العير جميعًا.

وكان ميسرة يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا كانت الماجرة واشتد الحر يى ملكيْن يظلانه من الشمس وهو على بعيره. قالوا: "كان الله قد ألقي على رسوله المحبة من ميسرة فكان كأنه عبدٌ له".

وأخبر الواقدي بأنَّ رسول الله حين أراد الله كرامته وابتداءَه بالنبوة، وكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يُرة بيتًا ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بمجر ولا شجرة إلا قالت: "السلام عليك يا رسول الله"، فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدًا.

وقال ابن عباس: كانت يهود قريظة والنضير وفدك وخيبر يجدون صفى النبي صلى الله عليه وسلم عندهم قبيل أن يُبعث، وأن دار هجرته بالمدينة، فلمَّا وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أحبار اليهود: "وُلد أحمد الليلة، هذا الكوكب قد طلع"، فلما تنبيَّ قالوا: "قد تنبى أحمد، قد طلع الكوكب الذي يطلع"، كانوا يعرفون ذلك ويقرأون به ويصفونه، إلا الحسد والبغيْ.

وكان إسلام ثعلبة بن سعد وأسيد بن سعية وابن عمهم أسد بن عبيد بسبب حديث ابن الهيبان أبي عمير، وهو يهودي من الشام أخبر بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثه بسنوات. وكان أبو الهيبان رجلًا صالحًا يصلي الصلوات الخمس، وكان يستسقي للناس عند انحباس المطر فينزل المطر، وعندما حضرته الوفاة قال: "يا معشر اليهود، ما الذي ترون أنه أخرجني من أرض الخمر والخمير (يقصد الشام) إلى أرض البؤس والجوع؟ (يقصد الحجاز)"، قالوا: "أنت أعلم يا أبا عمير"، قال: "إنما قدمتها أتوكف خروج نبي قد أظلكم زمانه، هذا البلد بُها جَره وكنت أرجو أن أدركه فأتبعه فإن سمعتم به فلا تُسبقن إليه فإنه يسفك الدماء ويسبي الذراري والنساء فلا يمنعنكم هذا منه"، ثم مات. فلمَّا كان في الليلة التي في صباحها فتحُت بنو قريظة، قال لهم ثعلبة وأسيد إبنا سعية وأسد بن عُبيد: "يا معشر يهود والله إني الرجل الذي وصف لنا أبو عمير بن الهيبان فاتقوا الله واتبعوه"، قالوا: "ليس به"، قالوا: "بلى والله إنه لهو هو"، فنزلوا وأسلموا، وأبى قومهم من بني قريظة أن يُسلِموا.

وأخبر الواقدي عن عامر بن ربيعة قال: "سمعتُ زيد بن عمرو بن نُفيل، وهو من المتحنفين، يقول لأبى: أنا أنتظر نبيًا من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه. وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك. قال له أبى: هلم، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارقه عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد (مكة) مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منه ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تُخدع عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم (الحنفية)،

فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك ويقولون لم يبق نبي غيره". قال عامر بن ربيعة"فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول زيد بن عمرو وأقرأته مني السلام، فردَّ عليه السلام وترحم عليه وقال: قد رأيته في الجنة يسحب ذيولًا".

وروى ابن سعد في طبقاته أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا كان في حِجر بي طالب، وكان أبو طالب قليل المال، كانت له قطعة من إبل فكان يُؤتي بلبنها، فإذا أكل عيال أبي طالب جميعًا أو فُرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وسلم شبعوا، فكان إذا أراد أن يطعمهم قال: إربعوا حتى يحضر إبني، فيحضر فيأكل معهم فيفضل من طعامهم، وإن كان لئن شرب أولهم ثم يناولهم فيشربون فيروون من آخرهم، فيقول له أبو طالب: "إنك لمبارك". وكان صبيان أبي طالب يصبحون شعثًا رُمصًا، ويصبح النبي صلى الله عليه وسلم مدهونًا مكحولًا. قالت أم أيمن، حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم، ما رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم شكا صغيرًا ولا كبيرًا، جوعًا ولا عطشًا، كان يغدو فيشرب من زمزم، فأعرض عليه الغداء فيقول: لا أريده أنا شبعان".

وكانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أنَّ نبيًا يُبعث من العرب اسمه محمد، فسمي من بلغه ذلك من العرب ولده محمدًا طمعًا في النبوة. وسُمي محمد بن خزاعي بن حزابة من بني ذكوان من بني سليم طمعًا في النبوة، فأتى أبرهة باليمن فكان معه على دينه حتى مات. وكان في بني تميم محمد بن سفيان بن مُجاشع، وكان أسقفًا، قيل لأبيه

***

من ٢٩ إلى ٣٧ غير موجود بالأصل

***

وذلك في إخبار الله تعالى عنه بقوله: (قل أغير الله اتخذ وليًا فاطر السماوات والأرض ولا يُطعم ولا يُطعَم قل إني أمَرتُ أنُ أكون أولَ مَنْ أسلم ولا تكونن من المشركين).

فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وهو الدين الحق، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)، (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربهِ فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذِكر الله أولئك في ضلال مبين).

ولمَّا أكمل محمد صلى الله عليه وسلم رسالته وأتم دعوته ونشر الإسلام في الأرض تنفيذاً لإرادته تعالى نزل قوله عليه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا) [المائدة: ٥].

جاءت رسالة محمد بالإسلام رحمةً للبشر أجمعين في وقت ساد العالم فيه لحلام الشِرك والوثنية، وسادت خلاله عبادة الأصنام والأوثان والملوك والحكام. ولقد حرَّف أحبار اليهود، من بعد موسى، رسالة الإسلام التي نزلت عليه وعلى أنبياء بني إسرائيل، وأدخلوا الوثنية عليها فأضاعوا بذلك التوحيد الذي نادي به الإسلام وجعلوا لهم إلهًا غير الله وعبدوا العجل والمال. كذلك حُرفت رسالة الإسلام التي جاء بها عيسى عيله السلام بعد أن حدث الزواج بين المسيحية الحقة والوثنية الرومية، فجاءت بمسيحية وثنية انقسمت من داخلها إلى مزق ومذاهب كل منها يكفر الأخرى وتترك عامة الشعب فريسة لهذا التخبط وذلك الاختلاف المذهبي الخطير.

ابتعد الناس، خارج جزيرة العرب، آنذاك عن ضياء الروح، وكست قلوبهم غشاوة العمى وتحكمت فيهم المادة ونسا الله فأنساهم أنفسهم وعاشت أكبر دولتين كانتا تحكمان العالم آنذاك، وهما دولتى الفرس والروم، في جدب روحي. الفرس يعتنقون الديانة المجوسية (الزرادشتية) وما دخل عليها من نحل المانوية والمزركية، والرود يعتنقون المسيحية الوثنية وما دخل عليها من نحل الأريوسية والاثناسيوسية والمونوفيزيتية (اليعقوبية) والنسطورية.

أما الجزيرة العربية، فقد سادتها الديانات الوثنية وعبادة الأصنان والأوثان وعبادة مظاهر الطبيعة وما فيها من كواكب ونجوم وبرق ورعد ومطر وسحاب. ولقد كان العربي في

الجاهلية يعتقد في قدرة هذه المظاهر على تسيير حياته وتحديد عمره على الأرض ووقت مفارقته لها، فآمن بأن إرضائها يجلب له الخير والبركة والسعادة ***

صفحة ٣٩ بالأصل غير موجودة

***

يكتفي بعبادة الأصنام الكبرى التي كانت قد نصبت في أماكن خاصة محددة من أقاليم شبه الجزيرة العربية، بل كان أكثرهم يتخذ لنفسه صنمًا خاصًا أو نُصبًا خاصًا في بيته، يطوف به حين خروجه من البيت وعند عودته إليه، ويأخذه معه في سفره إذا أذن له هذا الصنم أو هذا النصب في السفر. وهذه الأصنام والأوثان والأنصاب جميعها، سواء عنها ما هو بداخل الكعبة أو حولها أو ما كان في مختلف بلاد العرب دين سائر قبائلها، كان العرب عابدوها يعتبرونها واسطة العقد بينهم وبين المعبود الأكبر، وكانوا يعتبرون عبادتهم إياها إنما يتقربون بها إلى الله، ومع مرور الوقت عبد العرب هذه الأصنام والأوثان والأنصاب لذاتها. وقد قال الله تعالى في ذلك: (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم مختلفون. إنَّ الله لا يهدي من هو كاذب كفار).

وتذكر المصادر العربية نسبة إدخال عبادة الأصنام بين العرب في الجاهلية إلى عمرو بن لحي الخزاعي، كبير خزاعة والذي كان يلي أمر مكة والكعبة في القرن الثالث الميلادي، وأنه أول من أدخلها إلى جزيرة العرب من بلاد الشام، ثم انتشرت بين العرب، وأنه هو الذي أحضر الإله هُبل، وكان من الياقوت الأحمر، وأسكنه ي جوف الكعبة، وجعله أكبر الآلهة، وأيًا كانت صحة هذا الرأي، فمن المعروف أنَّ عبادة الأصنام انتشرت في بلاد الشرق من عهد الأنبياء إدريس ونوح وهود وإبراهيم عليهم السلام، وهي الجاهلية الأولى، التش أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطبًا نساء النبي (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى). وقد قصى الله تعالى خبر الأصنام التي عبدها قوم نوح وهود على رسوله صلى الله عليه وسلم في

قوله تعالى: (وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودًا ولا سواعًا، ولا يغوث ويعوق ونسرًا وقد أضلوا كثيرًا).

وذكر ابن إسحق أنَّ الذين اتخذوا تلك الأصنام آلهة كانوا من ولد إسماعيل عليه السلام وغيرهم حين فارقوا ملة إسماعيل الحنيفية، ومن هؤلاء: بني هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الذين اتخذوا سواعًا إلهًا لهم، وكان بمنطقة رهاط من أرض ينبع. واتخذ بنو كلب وبرَّه من قضاعة وُدًا إلهًا لهم بمنطقو دومة الجندل بين الشام والعراق، وعبدت قبائل أنعم من طئ اليمنية وجرش من مذحج اليمنية يغوثًا بمنطقة جرش باليمن. وعبدت همدان يعوقًا بأرضها باليمن. وعبد بنو ذي الكلاع من حمير باليمن نسْرًا. وعبد بنو ثقيف بالطائف اللات، ورمزوا لها بالزهرة، وهي الإلهة فينوس عند اليونان الأقدمين، وكانت صخرة مربعة على شكل زهرة أقيم عليها بناء أشبه ببناء الكعبة، وكانت في موضع بناء مئذنة مسجد الطائف اليسرى اليوم. أما العُزى، فهي إله القوة عند العرب، وكانت شجيرات في وادي نخلة عند يمين المتجه من مكة إلى العراق. أما منات، فهي إلهة القدرة والحياة والموت، عبدها الأوس والخزرج بيثرب، وكان لها نُصب على ساحل البحر الأحمر ببلدة قديد، بين مكة والمدينة.

كذلك عبد عرب الحجاز صنمين هما: إساف ونائلة، وكانا على موضع من زمزم، وكانوا ينحرون الذبائح عندهما، وقيل أنهما رجلًا وامرأة من جُرهم فواقعا عند الكعبة فمسخهما الله حجرين ليكونا عظة وعبرة لمن يطوف بالكعبة، ولمَّا مكثهما وتباعد الزمن بهما ونسي الناس واقعهما، وعرف العرب عبادة الأصنام عبدوهما ضمن باقي الأصنام التي كانت حول الكعبة.

وقد قيل أنه عند ظهور الدعوة المحمدية كان حول الكعبة ثلثمائة وستين صنمًا، بعدد أيام السنة، يعبدهم العرب ويتبركون بهم ويقدمون لهم الذبائح والقرابين. وكان لتلك الأصنام سدنة وحُجاب؛ فكان بنو شيبان بن سليم، حلفاء بني هاشم، سدنة وحُجاب العزى، وكان بنو معين من ثقيف، سدنة اللات وحُجابها.

وقدَّس العرب الكعبة ووضعوا في جوفها الأصنام وحولها، ونحروا عندها الذبائح، وعرفوا قدرها وفضلها وأنا بيت جدهم إبراهيم، وأبقوا على ما كان من مناسك بها في القديم من طواف حولها وحج وعمرة إليها وذبح البدُن عندها. وكان العرب يحجون إلى الكعبة في شهر ذي الحجة، وهو شهر حرام عندهم ضمن الأشهر الأربعة الحرُم. وكان الطواف حولها يستمر لمدة أسبوع، ثم يتم السعي بين اسف ونائلة عند الصفا والمروة، ثم يقفون بعرفة ساعة غروب الشمس، ويفيضون منها إلى المزدلفة عند شروق شمس اليوم الثاني، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مِنى. وكانوا يطوفون حول البيت عرايا ويقولون: "لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها"، ولكن كان من بينهم من يطوف مرتديًا ثيابه وقد عُرف هؤلاء باسم الحُمْس. وقد حرم هؤلاء الحمس على أنفسهم، أثناء إحرامهم بعض الطعام فكانوا لا يقدمون السمن ولا يأكلونه ولا يأكلون الزبد، ولا يستظلون بالوبر والشعر ما داموا حُرمًا، ولا يتناولون شيئًا من ثبات الحرم. فحرَّم الله تعالى ما جاء به الحمس وتعنييقهم على أنفسهم وذلك في قوله تعالى: (قل مَن حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).

وكانت بعض القبائل العربية الوثنية تعبد الجن، وقد ذكر الله تعالى ذلك *** من ٤٢ : ٤٦ غير موجود بالأصل

***

وقال تعالى: (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور مصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين) [المائدة: ٤٦]. وقوله تعالى: (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) [المائدة: ٤٧]. (. . وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن) [التوبة: ١١١] (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) [آل عمران: ٣، ٤]. (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) [المائدة: ٦٨].

ويُفهم من النصوص القرآنية أنَّ الإنجيل هو كتاب الله أنزله الله تعالى على نبيه ورسوله عيسى المسيح، وأنَّ الأناجيل الموجودة الآن ليست هي الإنجيل الحقيقي الذي نزل على المسيح، وهي كتب تُنسب إلى الرسل، ويُعني بهم حواريين عيسى وتلاميذه، وهم يروون فيها مسيرة حياة المسيح وبعض معجزاته وبعض وصاياه وتعاليمه، وموقف الحكام الرومان واليهود منه حتى زعم النصارى صلبه بعد قتله، ثم بعثه من جديد وصعوده إلى السماء. وعدد هذه الأناجيل خمسة أناجيل، هي: إنجيل متى، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل برنابا. وتعترف الكنائس المسيحية بالأربعة الأناجيل الأولى ولا تعترف بإنجيل برنابا، ويدعي رجال الكنيسة أنه إنجيل موضوع وأنَّ أحد الكتَّاب المسلمين في العصور الوسطى قام بتأليفه، لما فيه من تعاليم تتفق مع تعاليم الإسلام بصدد شخص المسيح ورسالته وتناقض ما هو موجود في الأناجيل الأخرى التي تعكس الاعتقاد الحق، كما يزعم المعتنقون لهذا الدين. والأمور الجوهرية التي يختلف فيها إنجيل برنابا عن بقية الأناجيل المسيحية المعتمدة من الكنيسة هي:

أولها: قوله أنَّ يسوع (المسيح) أنكر بنفسه ألوهيته، وأنكر أنه ابن الله، وذلك على مرأة وسمع ستمائة ألف جندي روماني، وسكان أورشليم من رجال ونساء وأطفال.

وثانيها: أنَّ الابن الذي عزم بني الله الخليل إبراهيم على ذبحه بأمر من الله، هو إبنه البكر إسماعيل وليس إبنه إسحق.

وثالثها: أنَّ (مسَّيا)، أو المسيح المنتظر ليس هو (يسوع)، بل هو محمد، وقد ذُكر محمدٌ باللفظ الصريح المتكرر في فصول كثيرة، وورد عنه

***

٤٨ غير موجود بالأصل

***

الإمبراطورية البيزنطية ليضطر معتنقوها إلى الهجرة الجماعية إلى لابد غربية. وبفضل ما كان للمبشرين من علم ومن وقوفهم على الطب والفلسفة والمنطق استطاعوا أن يؤثروا في النفوس، وتمكنوا من اكتساب سادات القبائل إلى صفهم فأدخلوهم في دينهم، أو حصلوا منهم على مساعدتهم وحمايتهم.

وقد أثرت الأديرة تأثيرًا مهمًا في تعريف التجار العرب ورجال الأعراب بالمسيحية، وقد وجد هؤلاء التجار والأعراب في أكثر هذه الأديرة ملاجئ لهم يرتاحون فيها وأماكن يتزودون فيها بالماء، كما وجدوا فيها أماكن للهو والشراب. وقد اشتهرت هذه الأديرة بتواجد الخمور فيها وظلت هذه الشهرة قائمة فيها في الإسلام. ومن هؤلاء الرهبان المتواجدين في الأديرة ومن مشاهدة التجار والأعراب لهم وهم يقومون بطقوسهم الدينية عرفوا المسيحية، وقد أشير إلى هؤلاء الرهبان الناسكين في كثير من قصائد الشعر الجاهلي.

ومن الطبيعي أن يكون انتشار المسيحية في بلاد العرب في الأطراف الشمالية لها، على حدود العراق والشام واضحًا بسبب علاقة هذه البلاد بدولة الروم المسيحية وعلاقتها بالأمارات العربية التي قامت هناك واعتنقت المسيحية مثل إمارة الغساسنة.

ويلي عرب العراق في انتشار المسيحية بينهم عرب الشام، وذلك لاحتكاكهم بالنصارى الذين هربوا إلى بلادهم من اضطهاد أباطرة الروم لهم لاعتناقهم المذهب النسطوري، المخالف للمذهب الملكافي الرسمي للدولة، ولجوئهم إلى مدن الحيرة والأنباء وجنديسابور. وبرغم أنَّ انتشار المسيحية في العراق لم يكن في مصلحة الفرس الحاكمين لها، إلا أنَّ ديانة الفرس المجوسية (الزرادشتية) لم تكن ديانة تبشيرية شأنها في ذلك شأن اليهودية اقتصر الدخول فيها على الفرس فقط. وهذا الأمر صرف الحكومة الفارسية عن الاهتمام بأمر أديان الشعوب الخاضعة لها من غير أبناء جنسها. ثم إنَّ النصارى الذين لجأوا إلى بلادهم كانوا من أعداء أعدائهم الروم ولم يكونوا على مذهبم فعزوا بدينهم إلى تلك البلاد، ولهذا لم تجد الحكومة الفارسية في هذه الناحية ما يهود سياستها ولا دينها بالأخطار فغضت النظر عنها مما أدى إلى

ممارسة النصارى لعقيدتهم هناك بحرية وقيام مبشرين بإدخال أعداد من أهل العراق في هذا الدين.

ووجدت المسيحية مواضع أخرى لما للانتشار غير أطراف الشام والعراق، فانتشرت في أطراف شبه الجزيرة وذلك عن طريق التجارة، وعن طريق اتصال هذه الأطراف بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت المسيحية فيها ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها، فكان هؤلاء التجار يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي يزلون بها لنشر دينهم فيها.

ولاتصال الحجاز بفلسطين، مهد المسيحية، وبيعة بلاد الشام، وكان من الطبيعي مجيء المسيحية من فلسطين ودخولها الحجاز. وإنا لنجد في أخبار الفتوح الإسلامية ما يشير إلى إمارات عربية مسيحية كانت قائمة في تلك المواضع عليها أمراء من العرب النصارى، وقد صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أداء الجزية، مثل إمارة دومة الجندل، وإمارة أيله، وإمارة تيماء، وإمارة أذرح. وكان بعض أهل مكة والطائف وبقية أنحاء الحجاز قد اعتنق المسيحية وأخذوها عن أهل مدينة الحيرة الذين كانوا يتجرون معهم. وقد كان لهذه الإمارة المسيحية، برغم بعدها عن مكة، أثر ثقافي وديني كبير على أهل مكة، على ما يُفهم من روايات أهل الأخبار.

أما اليمن، التي عرفت اليهودية، عرفت أيضًا المسيحية، بل حدث هنالك صراع بين الديانتين، كما رأينا، في القصص المروي من شهداء نجران في حادث الأخدود، الذي أورده القرآن الكريم في سورة البروج. قال تعالى: (والسماء ذات البروج، واليوم الموعود. وشاهدٍ ومشهود. قُتل أصحابُ الأخدود. النارِ ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نَّموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) [البروج: ١ – ٨].

وزعم بعض الأخباريين أنَّ الذي أدخل المسيحية ونشرها بين اليمنيين أيام دولة حميَّر، هو التُبع عبد كلال بن مثوب، الذي اعتنق المسيحية على سد الغساسنة حين كان عندهم ببلاد

الشام. وورد أيضًا في الأخبار أنَّ الإمبراطور البيزنطي قنسطِنطين الثاني (٣٣٧ – ٣٦١م)، قد أرسل مبشرين من عنده إلى اليمن ليقيموا الكنائس هناك، وحتى تكون هذه الكنائس منفذًا لهم لدخول هذه البلاد الغنية والاستفادة من حاصلات زراعتها ودخل تجارتها. وقد كان إقليم نجران هو أهم مواطن المسيحية في اليمن، ولعلها كانت الموطن الوحيد الذي رسخت في هذه الديانة في هذه البلاد. وقد اشتهرت نجران (بالبيعة) التي أقامها الأحباش بها، وعُرفت بكعبة نجران، والتي عرفها العرب باسم (القلّيس)، وهو من أصل كلمة (أكليسيا) اليونانية، بمعنى كنيسة، وموضعها الآن جامع صنعاء الكبير.

وتوجد في كتب الأخباريين أسماء مسيحية خالصة تسمي بها نفر من عرب الجاهلية قبل الإسلام، مثل: بختيشوع (عبد يسوع)، وعبد المسيح، وعبد مريم، وعبد عذراء، وأبجر، وبولس، وجرجس، وسمعان، وحنين، ومن أسماء النساء: مريم، ومارية، وحنه، وبتول، ونسرين. وعرف عرب الجاهلية بعض الأعياد المسيحية، مثل: عيد الشعانين، وعيد الفصح، وعيد القيامة.

ولقد عرف عرب قبل الإسلام المجوسية الفارسية، كما عرفوا اليهودية والمسيحية.

والمجوسية، هي الزرادشتية، ديانة الفرس أبتاع بنيهم زرادشت، وهي ديانة ثنيوية يؤمن أصحابها بوجود آلهين أحدهما للخير والآخر للشر، ويعرفون الأول باسم أهرمزدا ويرمزدن له بالنور فهو إله النور عندهم، ويعرفون الآخر باسم أهرمين ويرزون له بالظلمة فهو إله الظلمة عندهم. وقد وردت لفظة مجوس في القرآن الكريم [الآية ١٧ من سورة الحج]، وردت علَمًا على هذا الدين، فدل ذلك على وقوف أهل الحجاز على خبرهم ومعرفتهم بهم، قال تعالى: (إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والدين أشركوا إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد). ولا يُستبعد من وجود هؤلاء المجوس ووجود أعداد منهم في مدن الحجاز مكة ويثرب والطائف وفي مواضع أخرى منها، جاءوا مع تجارة الرقيق، وكانوا من رقيق الفرض الذين وقعوا في الأسر وبيعوا في أسواق النخاسة.

ولابد أن يكون تجار مكة قد وقفوا على خبر مجوس فارس عند ذهابهم للاتجار مع أهل هذه البلاد قبل الإسلام.

هذا ولم يذكر الأخباريون شيئًا عن دخول قبائل عربية في المجوسية واعتناقهم لها، وذكروا أنَّ معظم مجوس جزيرة العرب كانوا من الفرس المقيمين في العراق والبحرين وعُمان واليمن ومن رقيق الفرس الوافد إلى الجزيرة. وقد ظلت المجوسية قائمة في بلاد فارس والعراق وجنوب شبه الجزيرة العربية. وبلاد الخليج حتى فتح الإسلام هذه البلاد، وتحول أهلها عنها إلى الإسلام. وكانت قد دخلت على المجوسية بعض نزعات دينية فارسية أخرى مشتقة عنها منذ أيام حكم الدولة الساسانية لبلاد فارس، وقد عُرفت إحدى هذه النزعات باسم (المايونية) وعُرفت الأخرى باسم (المزدكية). وقد دعى أصحاب هذه النزعات إلى تعاليم هدامة تتعارض مع تعاليم المجوسية بالذاعمل ملوك الفرس الساسانيين على محاربتها والقضاء عليها، لكن هؤلاء الملوك نجحوا في القضاء على أصحاب هذه الحركات إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء على الأفكار التي أشاعوها بين رعاياهم.

وجاء الإسلام إلى بلاد فارس ليقضي على هذه النزعات وعلى المجوسية نفسها، وليهدي شعبها إلى عبادة الله الواحد القهار ويحولهم من عبادة النار إلى عبادة رب النار العزيز الغفار.

وكان من بين العرب قبل الإسلام رجالٌ عُرفوا بالمتحنفيين، والأحناف، والحنفاء، ممن كانوا على دين إبراهيم الخليل عليه السلام ولم يشركوا بالله أحدًا، وما كان دين إبراهيم إلا الإسلام. هؤلاء الرجال نبذوا عبادة الأصنام والأوثان، كما لم يتقبلوا تعاليم اليهودية والمسيحية، وعابوا كل هذه العبادات ومغزوا منها ودعوا الناس إلى نبذها والتمسك بملة إبراهيم الحنيفية.

وقد ذكر الأخباريون أسماء رجال قالوا عنهم أنهم أنكروا ديانة آبائهم وأجداهم في الحجاز والتي كان يتمثل معظمها في عبادة الأصنام والأوثان، وأنهم لم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية لأنهم لم يجدوا منهما ما كانوا يبحثون عنه من توحيد خالص لإله واحد قهار خالق لهذا الكون

ومسيرٌ له. ومن هؤلاء الرجال من مات على اعتقاده هذا، ومنهم من لحق بالإسلام فأسلم بعد أن وجد فيه ضالته ووجد أنه متمم لدعوة إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام.

وكان من بين هؤلاء الأحناف الموحدين: قس بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأرباب بن رئاب، وسوِّيد ابن عامر المصطلقى، ووكيع بن سلمة بن زهير الأيادي، وعمير بن جندب الجُهني، وحرمة بن أبي أنس، وورقة بن نوفل القرشي، وعامر بن الظرب العدواني، وعلاف بن شهاب التميمي، وزهير بن أبي سلمى الشاعر، وكعب بن لؤى بن غالب، وآخرون. ولقد كان بني الله إبراهيم الخليل قدوة لهؤلاء الأحناف، وهو الذي قال في شأنه سبحانه وتعالى: (وما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين).

ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى (الصابئين)، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: (إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والثابئين)، وذكروا وسطًا بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وسورة الحج: (إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى)، (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا). وقد ربط علماء المسلمين بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن الكريم وبين صابئة حران بالعراق عبدة النجوم، فبينوا أنَّ الأولين هم طائفة من الحنفاء الموجدين، وأنهم هم أصحاب إبراهيم الخليل عليه السلام الذين كانوا في حران، وكانوا على دعوته. أما الصابئون الأخارى، فهو صابئون مشركون عبدوا النجوم من دون الله، وهم ممن فسد من صابئة إبراهيم وتحولوا عن ملته فعبدوا الكواكب وأشركوا.

ولقد كان المشركون من القرشيين يعتبرون منْ خرج عن ملة آبائهم وأجدادهم وعبادة أصنامهم وأوثانهم صابئًا، ويطلقون عليه لفظة (صابئ). وقد أطلقوها على الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم، وكذلك أطلقوها على الصحابة وعلى كل من اعتنق الإسلام وتحول عن عبادة آبائه وأجداده، ولمَّا كان الحنفاء قد انشقوا عن قومهم وخالفوهم في عدم القيام بعبادة الأصنام

والأوثان، صاروا في نظر المشركين صابئة. ويلاحظ أنَّ مشركي قريش كانوا يطلقون هذه التسمية على عموم المسلمين وعلى كل من شكوا فيه ورأوا فيه ميْلًا للإسلام فرموهم بهذه التهمة. إلا أن المسلمين لم يرتضوا بهذه التسمية لعلمهم أنهم أرادوا بها اتهامهم بالخروج على عبادة الأصنام والأوثان. وقد دفع المسلمون عن أنفسهم هذا الاتهام بشدة ورفضوا أن يسموا بالصابئين لأنهم كانوا لا يرون صلة ما بين قواعد دينهم الحنيف وبين الصابئة، ولو كانوا قد رأوا أن المشركين قصدوا بنعتهم هذا الصابئة الأوُل أتباع الدين الحنيف لسكتوا وتقبلوا هذا الوصف بقبول لسن، كما تقبلوا صفة الأحناف عليهم لِما كانوا يرون أنَّ الأحناف هم سلف المسلمين الصالح، وأنهم أتباع جدهم إبراهيم الذي كان حنيفًا وكان أول المسلمين.

هذه هي العبادات التي كانت قائمة في مجتمع جزيرة العرب قبل بزوغ شمس الإسلام، ونرى أنها خليط بين الوثنية والديانات الكتابة التي حُرمت وشوهت واختلطت الوثنية بها، وهي عبادات تقبلها العرب على أساس أنها تراث وتقليد متوارث وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم، وهم على آثارهم سائرون، لكن قلة منهم لم تتقبل هذه الأحناف أتباع ملة إبراهيم الخليل. وعمومًا فقد كان الناس في الجزيرة العربية وخارجها قبل الإسلام في تخبط ديني وفي فراغ روحي، لم تستطع الوثنية أن تروي عطشهم الروحي، ولم تستطع اليهودية والمسيحية والمجوسية بطقوسها المعقدة المبهمة، ولعدم خلوص الوحدانية فيها أن تجعلهم يؤمنوا بها، لذا تطلع الناس إلى بزوغ فجر يوم جديد يبدد الظلمات من حولهم ويثير لهم الطريق ليصلوا إلى ضالتهم المنشودة وهي العبادة الحقة والدين القويم، الذي بعث الله تعالى به الأنبياء والرسل من لدن آدم في عيسى المسيح، فكان الناس في انتظار بني آخر الزمان الذي قربُ يوم ظهوره، وقد أدركوا أنَّ كل ليل آخر يأتي بعده النور. وقد بزغت شمس هذا النور يوم مولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله تعالى ليكون للناس هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ورحمةً للبشر والناس أجمعين.

* * *

٤ – إشراق نور النبوة

مضى العمر بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يحيا في مكة حياة صافية طاهرة نظيفة بين دنس الجاهلية، صادقًا أمينًا مع نفسه ومع أهله ومع أهل المدينة التي وُلد فيها وتعلق قلبه بحبها وكانت أحب البلاد عنده: مكة، رغم قساوة طبيعتها ورغم قساوة قلوب أهلها وفساد طبعهمن أحب محمد صلى الله عليه وسلم مكة لأنه كان يعلم أنها المدينة المقدسة التي اختار الله تعالى أن تكون مهبط أبى البشر وأمهم آدم وحواء عليهما السلام، وأنها مهبط الوحي مع آدم لوضع أول بيت للناس على الأرض، وأنها مهبط جده إبراهيم الخليل مع زوجه هاجر وطفله إسماعيل والموضع الذي دعا فيها الخليل ببركة هذا الموضع حيث بيت الله الحرام، بأن يقيم الناس الصلاة فيه بعد أن يأوون إليه وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون، كان معتاد الذهاب إلى الكعبة والمكوث عندها والتأمل في بنياتها والتطلع إلى السماء لما فوقها، وهو موقن بأن الكعبة إتصالًا بالسماء التي ملأها الله تعالى بالنجوم والكواكب والأقمار. وكان يتجنب النظر للأصنام التي أحاطت بالكعبة ويبغضها كل البغض ويتمنى تحطيمها لتنظف الكعبة من درنها وأقذارها، وكان سدنة البيت يلحظون منه ذلك فيبادلونها لأصنامهم بكره، كان يذهب لزمزم ويشرب منها فترتوى عروقه وتمتلئ بطنه ويستغني بمائها المبارك عن الطعام. وحفظ الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم في شبابه وطهره من مظاهر الدنس وحياة اللهو وجد الفساد الذي كان يعيش فيه شباب الجاهلية من أقرانه ويتسابقون إليه ويتباهون به. وكان إذا مر عيله موكب عرس فيه طرب أو رقص، كان النوم يسبق عينيه وأذنيه فلا يرى ولا يسمع منه شيئًا، وكان يمتع عينيه بالنظر إلى قدرة الله وإبداعه وحسن صنعه فيما خلق من حيوان ونبات وجماد، وكان يشغف آذانه بسماع تسبيح الطيور وصفير هواء الريح في الوادي وصوت البرق والرعد والمطر، مكان يدرك أنَّ وراء كل ذلك الصنع وما به من جمال وإبداع وإتقان خالقاً عظيم.

قضى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرين عامًا في التحنث والتأمل والتفكير في سر هذا الكون وسر خالقه ومبدعه، وكان ينتظر الإجابة على أسئلة كثيرة وكانت تدور في ذهنه وتحير تفكيره، وعسى أن تجيبه السماء عن هذه الأسئلة وتعطيه الجواب الشافي وطمأنينة القلب. عمل محمد صلى الله عليه وسلم برعي الغنم، وتابع أكلها وشربها وتواثرها ومولدها ومماتها فعرف سر الحياة وسر الممات.

وعمل محمد صلى الله عليه وسلم بالتجارة، منذ صغره، وانتقل من مكة إلى بلاد بعيدة ومختلفة عنها، وهي بلاد الشام، حيث كانت تعيش في كنف الروم وحضارة الغرب وديانة هي النصرانية، وفي كل ذلك تغير عما عليه الناس في مكة، فهم يعيشون في بداوة ويعبدون الأصنام والأوثان ويحيْون كما تحيا الدواب يأكلون ويشربون ولكنهم لا يفكرون ولا يتعلمون ولا يتقدمون، يتعصبون لقديمهم ولما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عادات وتقاليد وعبادات باطلة.

وقام محمد صلى الله عليه وسلم بأمر أسرته خير قيام ورعاها حق الرعاية، ووفرت له زوجته خديجة الجو الأسري الهادئ الهانئ ورُزق منها بالبنين والبنات، وقضى محمد صلى الله عليه وسلم سنيَّ عمره حتى الأربعين في التجارة بالصدق والأمانة، حتى غلبت عليه بين أهل مكة صفة الصادق الأمين. واعتاد عليه الصلاة والسلام أن يذهب، في كل عام، إلى جبل في منطقة (حراء) يبعد أميالًا قليلة شرقي مكة، في شهر رمضان، ويصعد هذا الجبل الوعر الصلد إلى غار بداخله يتحنث فيه مدة تتراوح ما بين العشرة أيام من الشهر والشهر كله. وكان عليه السلام يتحمل مشاق الصعود إلى هذا الجبل الوعر والصعب تسلقه، كي يصل إلى هذا الغار دون أن يعلم أحد بمكانه، فتزودًا بالقليل من الزاد الذي يكفي قوته الأيام التي سوف يقضيها بداخله. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى ما عسى أن يختبئ في هذا الغار من حيوان كاسر أو حشرات ضارة، فقد كان الجبل يأنس به وكذلك الحيوانات والحشرات، والكل

يُسلم عليه. وقد نشأت صداقة وألفه بينه وبينهم، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يعلم أن تلك كرامة من كرامات السماء له ونعمة أنعمها خالق السماء والأرض عليه.

وكانت نفس محمد، وقد بلغ سن الأربعين، تتهيأ للحدث الكبير والأمر الخطير، وكانت روحه الحيرى تبحث عن طوق النجاة في بحر الانفعالات الكثيرة داخل نفسه. وكان إذا ما عجز عن تفسير ما يحدث بداخلخ وما يجول بخاطره ينظر إلى السماء ويناجي عالمها يرتقب نزول شيء عليه لا يعلم سره أو كنهه. ولكن في رمضان هذا، من سن الأربعين، كانت نفسه تحدثه أنَّ الوقت قد حان له للخروج من هذه الحيرة، وأنَّ وقت الانتظار قد نفد وأنَّ أبواب السماء قاربت بأن تفتح له. ووقع بالفعل ما توقع عندما أذن الله تعالى ببزوغ فجر الإسلام من جديد بعد أن غاب هذا الفجر عن طلوعه حِقبًا طويله، كان آخرها يوم بعث الله تعالى بنيه ورسوله عيسى بن مريم إلى قومه من بني إسرائيل يدعوهم إلى عبادته ووحدانيته.

وفي يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان، العام الثالث عشر قبل الهجرة، الموافق أول شهر فبراير (شباط) سنة ٦١٠ ميلادية، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد بلغ من السن تمام الأربعين، فُتح باب في السماء وانشق عن نور عظيم أضاء الكون كله ونزل منه الملَك جبريل الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو في الغار، نزل عليه الوحي بالقرآن الكريم ليعلن له أنه قد آن له أن يتحول من راع للغنم إلى راع للبشر.

نزل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب ملفوف نجري ديباج، واستوى عنده في الوحي وقدَّم له هذا الكتاب، قائلًا: "إقرأ"، فقال محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أُخذ بما رأى: "ما أنا بقارئ"، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دار بينه وبين جبريل في هذا الموقف العصيب، فيقول عليه الصلاة والسلام: "فضمني إليه حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: "إقرأ"، قلت: ما أقرأ؟ قال: فضمني ثانيةً حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: "إقرأ"، قلت: ماذا أقرأ؟ قال" "إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علمَّ بالقلم. علمَّ الإنسان ما لم يعلم". قال: " فقرأتها، فلمَّا انتهيت إنصرف عني،

فكأنما كُتبت في قلبي كتابًا". قال: "فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل فرفعُت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدمه في أفق السماء، يقول: "يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل"، قال: "فوقفت أنظر إليه ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني". تلك كانت رواية الصادق الأمين عن بدء نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم.

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حتى أتى خديجة، وفؤاده يرجف من هول ما رأى وما وقع، وهو يقول: "زملوني زملوني"، أي لفوني وغطوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي" إني أرى ضوءً وأسمع صوتًا، لقد خشيت أن أكون كاهنًا وأن يكون فيَّ جُنُن" فبدت السعادة على وجهها وتبسمت واستبشرت قائلة: "لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله أبشر يا ابن العم واثُبت فوالذي نفسي خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة، والله لا يخزيك أبدًا" إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقرى الضيف، وتحمل الكَل (أي عن غيرك)، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق (الخير).

ثم قامت خديجة وانطلقت إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى)، وكان إمرءًا قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا أصابه العمى، فأخبرته بأمر رسول الله. فقال ورقة: "قدوس قدوس، والذي نفسي ورقة بيده لئن كنتِ صدقيتني يا خديجة فلقد جاءه الناموس الأكبر (التشريع)، الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت". فرجعت خديجة إلى الرسول فأخبرته بقول ورقة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة وطاف بها، فلقيه ورقة هناك، فقال له: "يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت"، فأخبره، فقال ورقة: "والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتُكذبَن

ولتؤذَين ولتُخرجَن ولتقاتلَن، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، يا ليتني فيها جَذَعًا (شابًا) ليتني أكون حيًا إذ يُخرجك قومُك". فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو تُخرجيَّ همُ؟"، فقال: "نعم، لم يأت أحدٌ بمثل ما جئت إلا عوديَّ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا". ثم أدنى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم منه وقبلَّها، ثم أنصرف، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله. ولم يلبث ورقة أن توفي بعد ذلك بأيام، وهو على الإسلام. وقد روي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، على لسان السيدة عائشة أنه في الجنة، وذلك بقوله عليه السلام: "لا تسبوا ورقة، فإني رأيت له جنة أو جنتين".

وأسلمت خديجة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنت بما نزل عليه من وحي، وكانت أول من أسلم وأول من أيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ونصره ووقف إلى جانبه، وهوَّن عليه وشاركته ما لاقاه من الناس؛ فبشرها الله تعالى لذلك ببيت في الجنة "من قصب لا صخب فيه ولا نصب". (والمقصود بالقصب هنا: اللؤلؤ المجوَّف).

وفتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة أربعين يومًا حتى شق ذلك عليه فأخزنه حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجمال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقي نفسه تبدى له جبريل فقال: "يا محمد! إنك رسول الله حقًا" فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدي له جبريل، فقال له مثل ذلك. حتى جاءه جبريل بعدها على صورته الملائكية جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، فرُعب منه، ورجع إلى خديجة وهو يرتعد قائلًا لها: "دثروني دثروني"، فأخذت خديجة بيده وهونت الأمر عليه ودثرته طما طلب، فأنزل الله عليه قوله في سورة المدثر: (يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر).

ثم جاءه جبريل ثانيةً ونزل عليه بسورة الضحى، بُشرى له من عند الله وتأكيدًا من عنده تعالى بأنه معه وأنه اصطفاه لرسالته وأنه ما ودعه ولا تخلى عنه ولكنه اصطفاه إليه واجتباه، وذلك

في قوله تعالى: (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضي. . .) . فحمَّى الوحي بعد ذلك وتتابع نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقام حينئذٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرسالة أتمَّ القيام، وشمَّر عن ساق العزم، ودعا إلى الله القريب والبعيد، والأحرار والعبيد، فآمن به حينئذٍ كل لبيب نجيب سعيد، وخالفه وعصاه كل جبار عنيد. وكانت دعوته أول الأمر للإسلام سرّا، وقبلَّ دعوته ودخل في الإسلام بعض الرجال والنساء والشباب أغنيااء وفقراء أحرار وأرقاء.

وكان أول من بادر إلى التصديق من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الغلمان على بن أبي طالب، ومن النساء خديجة بنت خويلد، زوجته عليه السلام، ومن الموالى مولاه زيد بن حارثة الكلبي، رضي الله عنهم جميعًا وأرضاهم، ومن أعيان قريش آمن به من بني هاشم: علي بن أبي طالب، وكان وقتها صبيًا في الثامنة من عمره وكان يعيش في حِجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمن به وأسلم أخوه جعفر بن أبي طالب (الطيار). ومن بني عبد شمس أسلم: عثمان بن عفان (ذو النورين)، وخالد بن سعيد العاص، وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة. ومن بني المطلب: عبيدة بن الحارث، ومن بني تميم: أبو بكر (الصديق) بن قحافة)، وطلحة بن عبيد الله. ومن بني عبد الدار: مصعب بن عمير. ومن بني أسد: الزبير بن العوام. ومن بني عدي: سعيد بن زيد، ونعيْم بن عبد الله. ومن بني عامر: أبو سبرة بن أبى رهم، وسليط بن عمرو، وأخويْه حاطب وحطاب أبناء وعمرو. ومن بني الحارث: أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح. ومن بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير بن أبو وقاص. ومن بني مخزوم: عياش بن أبي ربيعة، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم. ومن بني سهم: خنيس بن حذافة. ومن بني جُمَح: عثمان بن مظعون، وقدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون، وحاطب بن الحارث.

وأول من أسلم من الموال أربع عشرة هم: خباب بن الأرت، صهيب بن سنان، عامر بن فهيرة، عمار بن ياسر، زيد بن حارثة، واقد بن عبد الله، خالد بن البكير، وأخواه عاقل وإلياس إبنىْ البكير، عبد الله بن جحش، وأخوه عبد بن جحش، وبلال بن رباح.

وأول من أسلم من النساء اثنتي عشرة إمرأة هم: خديجة بنت خويلد، أسماء بنت أبي بكر، وأختها عائشة بنت أبي بكر، أسماء بنت عميس، زوج جعفر بن أبي طالب، أم أيمن بركة، زوج زيد بن حارثة وحاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاطمة بنت الخطاب، زوج سعيد بن زيد، فاطمة بنت المحلل، زوج حاطب بن عمرو، وفكيهة، زوج حطاب بن عمرو، وصلة بنت أبي عوف، زوج المطلب بن أزهى، أمينة بنت خلف، زوج خالد بن سعيد، أسماء بنت سدرمة، زوج عياش بن ابي ربيعة، وسمية زوج ياسر وأم عمَّار بن ياسر.

وهكذا فإنا نرى أنَّ دخول الإسلام في أول دعواه لم يقتصر على عامة الناس والفقراء المستضعفين والعبيد، كما يزعم بعض المستشرقين، بل دخل فيه عدد من أشراف قريش وأبنائهم يزيدون على الثلاثين نفرًا، وهو عدد يصل إلى نصف عدد إجمالي الذين دخلوا في الإسلام آنذاك، وهم السابقون الأولون، الذين وصل عددهم إلى ستين نفرًا.

ولقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى رسالته سرًا حتى أذن الله له بالجهر بها بعد ثلاث سنوات من مبعثه. وكان خلال بتلك السنوات الثلاث يلتقي بأتباعه في دار الأرقم به أبي الأرقم في أعالى مكة، كما كان يصلي بهم خفية في شعاب مكة خشيةً عليهم من قومهم. وكان الله تعالى قد فرض الصلاة على رسول وعلى المسلمين في السنة الثانية من البعثة وقد قام جبريل عليه السلام بتعليمه كيفية الصلاة والوضوء وتعيين أوقاتها.

وذكر ابن إسحق، بأنَّ الصلاة حين فرُضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاه جبريل عليه السلام، وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبيه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأي جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به،

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة، فتوضا لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلت بصلاته.

وروى ابن عباس عن تعيين جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم أوقات الصلاة، فقال: لمَّا أفترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام، فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثلُه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مُسفرًا غير مشرق، ثم قال: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس.

***

وبعد مرور السنوات الثلاث أمر الله تعالى رسوله أن يصدع بالدعوة وأن يجاهر بها، وأن يدعو الناس للإسلام علانيةً، ونزل عليه بصدد ذلك قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمَر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين). كذلك أمره الله تعالى أن يبدأ بالدعوة عشيرته الأقربين، فقال تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعلمون. وتوكل على العزيز الرحيم. الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين إنه هو السميع العليم) [الشعراء: ٢١٤ – ٢٢٠].

ولمَّا أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيات أتى النبي صلى الله عليه وسلم (الصفا)، فصعد عليه ثم نادى: "يا صباحاه"، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر قريش! أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل

أكنتم تصدقوني؟" قالوا: "نعم، أنت عندنا غير مُتهم، وما جربنا عليك كذبًا قط"؟ قال: "فإني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهره – حتى عدَد الأفخاذ من قريش – إنَّ الله أمرني أن أُنْذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله"، فقال أبو لهب عمه (عبد العُزى بن عبد المطلب): "تبًا لك سائر اليوم؟ ألهذا جمعتنا؟" فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: (تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارًا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد).

قال ابن إسحق: "فلمَّا بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومَه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه، حتى ذكر ألهتهم وعابها، فلمَّا فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، ورقَّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحدبه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه".

وأخبر الواقدي بأنه لمَّا أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن معه وفشا أمره في مكة ودعا بعضهم بعضًا، فكان أبو بكر يدعو ناحيةً سرًا، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وأبو عبيدة بن الجراح. فغضبت قريش من ذلك، وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغي، وأشخص منهم رجال فبادَوْه وتسترَ آخرون وهم على ذلك الرأي، إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان أهل العداوة والمباداة بها لرسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه، والذين يطلبون الخضوبة والجدل لكم: أبو جهل (الحكم بن هشام) وأبو لهب وعبد العزى بن عبد المطلب)، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي (ابن الغيْطلة، والغيطله أمه)، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف وأخوه أُبي بن خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلوة، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة

بن أبي مُعيط، وابن الأصدى الهذيلي، والحكم بن أبو العاص، وعدي بن الحمراء. وذلك أنهم كانوا جيرانه. والذي كانت تنتهي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، وكان عُتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يتعرضوا للنبي بأذى، ولم يسلم من هؤلاء جميعًا أحدٌ إلا أبو سفيان والحكم بن أبو العاص.

عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت بين شر جاريْن، بين أبي لهب وعُقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي. فيخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: يا بني عبد مناف أي جوارٍ هذا! ثم يلقيه بالطريق.

واستمر أتباع النبي صلى الله عليه وسلم يؤدون صلواتهم في شعاب مكة، ووقع بينهم في إحدى المرات قتال وبين المشركين، ذلك أنه بينما كان سعد بن أبي وقاص يصلى مع نفر من أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من الشعاب إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فأنكروا عليهم صلواتهم وعابوها. واشتد الجدال بين الطرفين حتى تقاتلا. فضرب سعد يومئذٍ رجلًا من المشركين بعظم فخذ بعير فشج رأسه، فكان دمه أول دم أهُرق في الإسلام.

وبدأت قريش تشعر بخطورة دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع ازدياد عدد الداخلين فيها يومًا بعد يوم، وكان أول ما يعينها من خير هذه الدعوة موقفها من عبادتهم وأصنامهم وأوقاتهم، وأدركوا خطر هذه الدعوة بين استنكرت تلك المعبودات وأعلنت بطلان أمورها، فتصدوا لها ووقفوا دونها بكل ما يملكون من قوة.

وكان أبو جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة) هو القائد الأكبر لعملية التصدي هذه، وقد كان صاحب نفوذ كبير في قومه من بني مخزوم، وكان من كبار تجارها وأغنيائها، فصار العدو الأول اللدود للإسلام وللمسلمين. وقد قاوم أبو جهل انتشار الإسلام بكل الطرق؛ فإذا ما سمع بدخول أي شريف من أشراف مكة الإسلام، ذهب إليه وعيَّره بنقضه عبادة آبائَه وأجداده،

وهدده في ثروته وتجارته إن كان تاجرًا. وإن كان الداخل في الإسلام فقيرًا معدمًا لا ناصر له قام بضربه وتعذيبه وحرض الناس ضده.

وقد عاني الفقراء الداخلون في الإسلام الكثير من وراء ذلك، ومن أمثلة هؤلاء الفقراء (بلال بن رباح)، مولى أمية بن خلف، الذي اعتنق الإسلام دون إذن سيده، فقام سيده بتعذيبه تعذيبًا شديدًا، وذلك بإخراجه عاريًا إلى بطحاء مكة وقت قيلولة النهار مع شدة لهيب الشمس، مكان يطرحه على الرمال الساخنة وهو موثق بالحبال، وكان يضع على صدره صخرة كبيرة ساخنة ليرده بذلك عن إسلامه، وقد ضرب بلال أكبر المثل في قوة التحمل والصبر على الأذى والاستمساك بدية وأعيانه الذي ذاق حلاوته، فكان كلم طلب منه سيده أن يكفر بمحمد وبرب محمد، كان يرد عليه بكلمة واحدة هي: "أحد. . أحد".

وقد قام بنو مخزوم وعلى رأسهم أبو جهل بإخراج عمار بن ياسر وأبيه ياسر وأمه سمية بنت خياط، وكانوا من فقراء القبيلة وأسلموا، فعذبهم في رمضاء مكة وكووهم بالنار، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم، وهم على هذه الحال، فيناديهم مخففًا عنهم ما هم فيه بقوله: "صبرًا آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة". وقد مر أبو جهل يومًا بسمية أم عمار، وهي تعذَب مع زوجها وابنها، فطعنها بحربة كانت في يده في فرجها فقتلها، وكانت بذلك أول شهيدة في الإسلام.

وقام المشركون بضرب عبد الله بن مسعود، الذي اعتنق الإسلام، في كل جسده حتى سال الدم منه من كل جزء فيه وذلك لجهره بالشهادتين عند المقام بالكعبة لأول مرة. وقد جاء هذا الأخطاء الذي تعرض له فقراء المسلمين بعكس ما كانت تنتظره قريش منه، فقد تشبث هؤلاء بدينهم وصاروا أكثر تمسكًا به وضربوا في القدرة على تحمل الأذى المثل النادر، وكان الرسول عليه السلام إمامهم في ذلك.

وعطف أبو طالب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ابن أخيه، وأعلن حمايته له وعدم رده عن دعواه، رغم عدم دخوله في الإسلام، لذلك لم تفعل قريش بالرسول ما فعلت

بالمستضعفين من أتباعه لمكانة عمه وشرفه فيهم. وحاولت قريش أن تقنع العم بأن يتخلى إبن أخيه عن دعوته، ولكنه أبى ووقف مع ابن أخيه حين رأى ثباته في دعوته. وقام أبو طالب، حين رأى صنيع قريش بالمسلمين، فدعا قومه من بني هاشم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا عمه أبو لهب. فتمادى المشركون في تعذيب فقراء المسلمين وإعلان الحرب ضدهم في كل مكان نكايةً في الرسول وعمه وبني هاشم عشيرته.

وهكذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمان كافران، أحدهما أشد الناس عليه وأكثرهم عداوة له وهو أبو لهب، والثاني أشد حبًا له وأكثرهم إحسانًا له وهو أبو طالب. وقد خالف أبو طالب قومه في عدائهم لابن أخيه مع إنه كان على دينهم، إلا أنَّ الله امتحن قلبه بحبه طبعيًّا لا شرعيًا. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ومما صنعه لرسوله من الحماية؛ إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا هابوه ولا احترموه ولإجترأوا عليه ولدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه.

وكان وفد من أشراف قريش قد مشى إلى أبى طالب يفاوضه في أمر ابن أخيه، وكان في هذا الوفد: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأخوه شيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وأبو البختري (العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العُزى)، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والحكم بن هشام بن المغيرة (أبو جهل)، والوليد بن المغيرة، وبنية بن الحجاج بن عامر، وأخوه منبه بن الحجاج، والعاص بن وائل بن هاشم السهمي. ودخل هذا الوفد علي أبي طالب فقالوا له: "أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك مِن تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا وتضليل آبائنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلِّى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفكيه". فنادى أبو طالب على إبنه عقيل وقال له: "يا عقيل! انطلق فأتنى بمحمد" فانطلق واستخرجه من خنس (بيت صغير) فجاء به في الظهيرة في شدة الحر، فلما أتاهم قال

له أبو طالب: "إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم". فحلَّق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فقال: "ترون هذه الشمس؟" قالوا: "نعم". قال: "فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منها بشعله". فقال أبو طالب: "والله ما كذب ابن أخي قط، فأربعوا".

وفي ذلك دلالة على أنَّ الله تعالى عصمه بعمه؛ مع خلافه إياه في دينه، وقد كان الله عاصمًا له حيث لا يكون عمه بما يشاء، ولا معقبَّ لحكمه.

ولقد توعد أبو جهل أن يطأ على رقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآه يصلى عند الكعبة وليعفرن وجهه بالتراب. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى لينفذ وعده أمام من تواجد وقتها عند الكعبة، ففوجئوا به، بعد أن تقدم تجاه محمد صلى الله عليه وسلم، ينكص على عقبيه مذعورًا ويتقى بيديه. فقالوا له: "ما لك؟"، قال: "لقد وجدت بيني وبينه خندقًا من نار وهولًا وأجنحة"، ولمَّا سألوا رسول الله عن ذلك، قال لهم: "لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا".

وروى عبد الله بن مسعود قوله: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش، غير يوم واحد، فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور قريب منه، فقالوا: من يأخذ هذا السلا فيلقيه على ظهره؟ فقال عقبة بن أبي معيط: أنا، فأخذه فألقاه على ظهره، فلم يزل ساجدًا حتى جاءت فاطمة (إبنته) فأخذته عن ظهره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم عليك بهذا الملأ من قريش، اللهم عليك بعقبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهم عليك بأميَّة بن خلف" قال عبد الله: "فلقد رأيتهم قتلوا جميعاً يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب؛ غير أمُية بن خلف فإنه كان رجلًا ضخمًا منقطع.

وروىعبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ أشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلى في حِجر الكعبة. إذ أقبل عليه عقبة بن

أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه مخنقة خنقًا شديدًا. فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم".

وعاودت قريش سعيها مع أبي طالب لإقناع الرسول بوقف دعوته بعد أن رأوا تزايد عدد أتباعه في ظل حماية عمه له، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخي خالد بن الوليد)، فقالوا: قد جئناك بفتى قريش جمالًا ونسبًا ونهادة وشعرًا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فتقبله، فإنَّ ذلك أجمعٌ للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة"، فقال لهم أبو طالب: "والله يا أنصفتموني، تعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟ ما هذا بالنَّصف، تسومونني سوْم العرير الذليل". قالوا: "فأرسل إليه فلنعطه النَّف". فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا ابن أخي هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا أسمع". قالوا: "تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك". قال أبو طالب: "قد أنصفك القوم فأقبل منهم". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرأيتكم إن أعيطتكم هذه هل أنتم مُعطِيَّ كلمةً إن أنتم تكلمتم بها سلكتم. بها العرب ودانت لكم بها العجم؟". فقال أبو جهل: "إنَّ هذه كلمة مُربحة، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها"، قال: "قولوا لا إله إلا الله"، فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: "اصبروا على آلهتكم، إنَّ هذا لشيء يُراد" وكان المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا لا نعود إليه أبدًا وما خيرٌ من أن يُغتال محمد.

فلمَّا كان مساء تلك الليلة فُقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع أبو طالب فتيانًا من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال لهم: "ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم بما فيهم ابن الحنظلية – يعني أبا جهل – فإنه لم يغبْ عن شر إن كان محمد قد قُتل. فقال الفتيان: "نفـِعل"، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: "يا زيد

أحبستَ ابن أخي؟" قال: "نعم، كنت معه آنفًا"، فقال أبو طالب: "لا أدخل بيتي أبدًا حتى أراه"، فخرج زيد سريعًا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في البيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب، فقال: "يا ابن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟" قال: "نعم"، قال: "أدخل بيتك"، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا أصبح أبو طالب غدا على النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والطالبيون، فقال: "يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به؟" قالوا: "لا"، وأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: "اكشفوا عما في أيديكم" فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه جديدة صارمة، فقال: "والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحدًا حتى نتفانى نحن وأنتم"، فانكسر القوم، وكان أبو جهل أشدهم انكسارًا.

وانفرد أبو طالب برسول اللله صلى الله عليه وسلم ينصحه، خوفًا عليه من غدر قريش، وقال له: "يا ابن أخي لقد رأيت القوم وسمعت ما قالوه فابق عليَّ وعلى بين قولك". فدمعت عينيْ رسول الله وظن أنَّ عمه تاركه، فقال متأثرًا كلمات رائعة شجاعة خلدها التاريخ: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه". فربت العم على كتفه مطيبًا لخاطره معجبًا بشجاعته وصموده على مبدئه ومؤكدًا له حمايته له ووقوفه معه مهما كلفه الأمر، وصموده على مبدئه ومؤكدًا له حمايته له ووقوفه معه مهما كلفه الأمر، وقال: "إمض يا ابن أخي على أمرك فوالله لن أسلمك لهم أبدًا". فأعاد أبو طالب دعوته لقومه إلى نصرة محمد صلى الله عليه وسلم، فأجابه جميع بني هاشم والمطلب ولم يتخلف عنهم سوى عمه أبو لهب الذي أصر على عداوته له وللإسلام.

وقد نزل في المشركين آنذاك قوله تعالى: (ص. والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق). كما نزل قوله تعالى: (يا أيها النبي إتقِ الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنَّ الله كان عليمًا حكيمًا. واتبع ما يوحي إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرًا وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا).

واستعرت نار الحرب بين رسول الله والمشركين وتحولت مكة آنذاك إلى أتون نار مستعر أحرقت قلوب الكافرين والمشركين، وكانت بردًا وسلامًا على قلوب عباده المؤمنين الصابرين.

ولقد كان أكبر المؤذين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل فيهم قرآن:

- أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب، التي نزل في حقها سورة (المسد).
- أمية بن خلف بن وهب بن جُمح، الذي كان إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزة ولمزة، فأنزل الله تعالى فيه قوله: (ويلٌ لكل همزة لمزة).
- العاص بن وائل السهمي، والد عمرو بن العاص، والذي كان يسخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله فيه سورة (الكوثر)، وقوله تعالى: (إنَّ شانئك هو الأبتر)، كذلك أنزل الله فيه: (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالًا وولدًا أطلع على الغيب. . . .) إلى قوله تعالى: (ونرثه ما يقول ويأتينا فردًا).
- أبو جهل (عمرو بن هشام المخزومي)، وكان أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، ونزل فيه قوله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم) وقوله تعالى: (إن شجرة الزقوم. . .).
- النضر بن الحارث بن كلدة، وكان يتعقب مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعو الناس ويحدثهم عن ملوك فارس الأقدمين، وإدعائه أنَّ القرآن أساطير اكتتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل فيه قوله تعالى: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تمُلى عليه بكرةً وأصيلًا)، ونزل فيه قوله تعالى: (إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) ونزل فيه: (ويلٌ لكل أفاك أثيم. . . .).
- عبد الله بن الزبعري السهمي، وكان ينكر دخول النار مَنْ يعبد غير الله، فنزل فيه قوله تعالى: (إنَّ الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون). وكذلك نزل فيه قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه. . .).

- الأخنس بن شريق بن عمرو الثقفي، وقد نزل فيه قوله تعالى: (ولا تُطع كلَ حــلاف مهين هماز فساء بنميم. . .).
- الوليد بن المغيرة، الذي قال: أينزل القرآن على محمد وأتُــرك وأنــا كبيــر قــريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الصقفي، سيد ثقيــف، ونحــن عظمــاء القريتين، فنزل فيه قوله تعالى: (وقالوا لولا نُزِل هذا القرآن على رجل من القــريتين عظيم).
- أُبيَّ بن خلف بن وهب، نزل فيه قوله تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسى خلْقه قال مــن يُحيى العظام وهي رميم).
- عُقبة بن أبي مُعيط، نزل في قوله تعالى: (ويوم يعضُ الظالُم على يديه يقول يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلًا. . .).

* * *

٥- الهجرة إلى الحبشة وإلى الطائف

استعرت الحرب بين مشركي قريش والمسلمين، وساءهم ازدياد عدد التابعين لمحمد صلى الله عليه وسلم وثبوتهم على الإسلام وثبوت محمد صلى الله عليه وسلم نفسه وتحديه لقريش ولكل من حالفها من القبائل في حربه وحرب المسلمين. فاشتد أذى قريش للمسلمين وللنبي، وحادوا الله ورسوله، ولقد هددهم القرآن الكريمبعاقبة موقفهم المعادي هذا لله ورسوله في قوله تعالى: (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) [التوبة: ٦١]، وقوله تعالى: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنَّ له نار جهنم خالدًا فيها ذلك الخزي العظيم) [التوبة: ٦٣] وقوله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا وأعد لهم عذابًا مهينًا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا).

قال ابن إسحق بصدد عدوان قريش على ضعاف المسلمين وفقرائهم: "ثم إنهم عدوًا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، مَن استضعفوه منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتَن من شدة البلاء الذي يصيبهم، ومنهم مَنْ يصلبُ لهم ويعصمه الله منهم". ولقد أخذ المشركون هؤلاء المستضعفين من المسلمين "فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا؛ إلا بلالًا"، فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول : أحد أحد". وعن جابر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار بن ياسر وأهله وهم يضربون ويحرقون بالنار، يقول لهم: "أبشروا آل عمار وآل ياسر! فإنَّ موعدكم الجنة".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقتها لا يملك شيئًا لهؤلاء الفقراء المضطهدين سوى مطالبتهم بالصبر ووعدهم بالنصر آخر الأمر، وقد روى البخاري في ذلك أنَّ خباب بن الأرت، كان مولى من الموالي وكان له دْيناً عند العاص بن وائل وعند مطالبته له به رفض سداده وشرط سداده له بأن يكفر خباب بمحمد فرفض خباب وذهب يشكو لرسول الله شدة المشركين مع المسلمين، يقول خباب: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؛ فقعد، وقد أحمر وجهه، فقال: لقد كان مَنْ قبلكم ليُمشَط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب؛ ما يصرف ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه. فيشُق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمَّن الله هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه، ولكْنكم تستعجلون".

وعن ذكر ما لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذى قومه، قال ابن إسحاق: "ثم إنَّ قريشًا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ أسلم

معه منهم، فأعزوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُظهرٌ لأمر الله لا يستخفى به، مُبادِلهُم بما يكرهون مِن عيْب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم".

وروى الإمام عبد بن حميد في مسنده بسنده عن جابر بن عبد الله قال: "اجتمعت قريش يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر؛ فليأتِ هذا الرجل الذي فرَّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتّاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: إنْ كنت تزعم أنَّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا وشتَّت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أنَّ في قريش ساحرًا وأنَّ في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل إنْ كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا واحدًا، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئتَ فلنزوجك عشرًا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرغت؛ قال: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربيًا لقوم يعلمون) إلى أن بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود) [فصلت: ١ –١٣]. فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؛ قال: لا. فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ قال: لا والذي نصبها بيِّنه، ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ماذا قال؟. قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

وفي رواية ابن إسحاق: أنَّ عتبة لمَّا قام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولًا والله ما سمعتُ مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي وخلُوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُعبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وكان الوليد بن المغيرة قد اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، الذي تتوافد فيه القبائل على مكة للحج والتجارة، فقال لهم: "يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإنَّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ويُرِد قولكم بعضه بعضًا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقِم لنا رأيًا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن؟. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن (كلامه الخفيِّ) ولا سجعه. قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو يخنقه ولا تخالجه وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رِجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم (يقصد عقدْ الساحر للخيط والنفخ فيه بفمه، وهي النفاثات في العقد). قالوا: فما نقول يا أب عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لَعَذق وغنَّ فرعه لجناة (بمعنى أنه كالنخلة التي طاب فرعها وحان جنُيه)، وما أنتم بقائلين مِن هذا شيئًا إلا عُرفت أنه باطل. وإنَّ أقربَ القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يُفرِق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسَبل الناس، حين قدموا الموسم، لا يمر به أحدهم إلا جذروه إياه وذكروا لهم أمره وطلبوا منهم عدم الاقتراب منه ومباعدته. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله: (ذرني ومَنْ خلقتُ وحيدًا. وجعلت له مالًا ممدودًا وبنيه شهودًا، ومهدت له عتيدًا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدًا)، أي خصيمًا. وكذلك قوله تعالى فيه: (سأرهقه صعودًا. إنه فكرَّ وقدَّر. فقُتل كيف قدَّر. ثم قُتل كيف قدَّر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إنْ هذا إلا سحر يُؤثر. إنْ هذا إلا قول البشر. سأُصليه سقر) [المدثر: ١٧ – ٢٦].

ورد القرآن الكريم على أصحاب الوليد الذين صنفوا القول في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى: (كما أنزلنا على المقسمين. الذين جعلوا القرآن يمضين. فوربِك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون. فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون) [الحجر: ٩٠ – ٩٣].

وحاولت قريش إغراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالماديات وعرض الدنيا ظنًا منها أنَّ ذلك يثنيه عن أمر دعوته ويحفظ لهم ديانتهم ومعبوداتهم، فاجتمع به زعماؤهم من أهل الملأ عند ظهر تالكعبة يومًا بعد غروب الشمس وعرضوا عليه عرضهم قائلين: "إن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فمن نسوِّرك علينا. وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك – وكان يسمون التابع من الجن رئيًا – فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعذر فيك. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا أشرف فيكم ولا المُلك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات وبي ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: يا محمد، فإن كنت غير

قابل منا شيئًا مما عرفناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشًا منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيرَّ عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث فيهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخَ صُدُقْ فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولًا كما تقول. فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ما بهذا بُعثتُ إليكم من الله، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرُسلتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك بأن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وسلَه فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضه يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا". قالوا: "فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أنَّ ربك إن شاء فعل،فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك إلى الله إن شاء يفعله بكم فعل. قالوا: يا محمد أفما علِم ربك أنَّ سنجلس معك ونسألك عمَّا سألناك عنه ونطلب منك ما تطلب، فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به. إنه قد بلغنا أنك إنما يعلِمَ: هذا رجل باليمامة يُقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

فلمَّا قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم وقام معه عبد الله بن أُبيَّ بن أبي أمية، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول

ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل. فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلّمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيُم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينًا آسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

فلمَّا قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل: يا معشر قريش، إنَّ محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيْب ديننا وشتم آبائنا وآلهتنا وتسفيه أحلامنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أُطيق حمله فإذا سجد في صلاته نضخت به رأسه، فاسلموني بعد ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد. فلَّما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو وصلى بين الركن اليماني والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وغدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا لونه مرعوبًا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده.

وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحة، فلَّما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيتُ مثل هامة ولا مثل أصل عنقه ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني. قال ابن إسحاق: فُذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه.

وكان النضر بن الحارث بن كلدة، وهو طبيب قريش، ومن شياطينها، كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة، وكان قد ذهي إلى الحيرة بالعراق، وتعلم بها أحاديث

ملوك الفرس الساسانيين، وأحاديث قوادهم ستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا فذَّكر فيه بالله وحذر قومه مما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم من نقمة أن مثل قوم عاد وثمود، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم إليَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس وقوادهم، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟. ولقد أورد ابن عباس رضي الله عنهما قوله بأنه نزل في النضر هذا ثمان آيات من القرآن يتصل كل ما فيها عما قاله عن أساطير الأولين. قال تعالى عنه في سورة المطففين [الآيات ١٠ – ١٣]: (ويلٌ يومئذٍ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذبُ به إلا كل معتدٍ أثيم. إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين).

ولمَّا قال النضر ذلك لقومه بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصيفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره وأخبراه ببعض قوله، وقالا لهم: "إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا"؛ فقال لهم أحبار اليهود: "سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإنْ لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها،

وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبركم بما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن، فانصرفوا عنه: فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يُذكر، خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا ولا يأتيه جبريل حتى أَوْجِف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكثُ الوحي عنه وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة: ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أهل الكهف، فيها معاتبة إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، وأمر الرجل الطواف والروح.

فلمَّا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدَّث. وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين إتباعه وتصديقه: فعتقوا على الله وتركوا أمره عَيانًا، ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أي اجعلوه لغوًا وباطلًا واتخذوه هُزوًا لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يومًا غلبكم. فلَّما قال ذبك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له. فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم خوفًا منهم. فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفَّض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئًا من قراءته وسمع هو شيئًا دونهم أصاخ له يستمع منه. وقد نزله قوله تعالى: (لا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلًا) من أجل أولئك النفر، فيقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ولا تخافت بها فلا يسمعها مَنْ يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أولَّ مَنْ جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. وقد غدا يومًا حتى أتى المقام عند الكعبة في الضحى، وقريش في أنديتها، وقام

عند المقام وقرأ رافعاً صوته سورة (الرحمن)، فتأملوه فجعلوا يقولون: "ماذا قال ابن أم عبد؟"، ثم قالوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف ابن مسعود إلى أصحابه والدم يسيل من وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهّون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا؛ قالوا: لا ما حسبك، قد أسمعتم ما يكرهون.

وقال ابن إسحاق أنَّ ثلاثة من زعماء قريش من عتاة الكفر، وهم أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شرين الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلى من الليل في بيته، فأخذ كل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌ لا يعلم عُبان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتهم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم اصنرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا بزح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك، ثم تفرقوا ولم يعودوا.

فلمَّا أصبح الأخنس بن شرين أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما لايُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا يُراد بها؛ قال الأخنس: وأنا والذي حلفتُ به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعتُ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: مِنا نبي يأتِه الوحي من السماء، فمتى نورك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه.

فقان عنه الأخنس وتركه. وهذا يثبت لنا حسد أبي جهل لبني عبد مناف عامةً ولرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصةً بنزول الوحي عليه ومعاداته له رغم علم بصدق دعوته وحقيقة نبوعته.

ولقد تعنتت قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعهم إياه يتلو ما نزل فيهم من قرآن وحين يدعوهم إلى الله، فقد قالوا يهزءون بخ (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) أي لا نفقه ما تقول، (وفي آذاننا وقر) أي لا نسمع ما تقول (ومن بيننا وبينك حجاب)، قد حال حاجز بيننا وبينك، (فاعمل أننا عامون)، أي اعمل بما أنت عليه واننا عاملون بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئًا.

فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قولهم: (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مسقورًا وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًأ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورًا. نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلًا مسحورًا. أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلًا).

* * *

ولمَّا ازداد عدوان قريش على المسضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم مقدرته منع هذا الأذى عنهم، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وكانت أحبَّ الأرض إليه أن يُهاجر إليها. فهاجر إليها عدد من المسلمين، منهم من هاجر معه أهله، ومنهم مَنْ هاجر بنفسه. حتى قدموا أرض الحبشة. خرجوا متسللين سرًا، وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى (الشعيبة) منهم الراكب ومنهم الماشي، ووفقّ الله المسلمين، ساعة جاءوا، سفينتيهن للتجار حملوها فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من تالسنة الخامسة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦١٥م). وخرجت

قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منعهم أحدًا. قالوا: "وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمينًا على ديننا وعيدنا الله نُؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه".

وكان من المهاجرين الهجرة الأولى إلى الحبشة: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهل بن عمرو، والزبير بن العوام بن خويلد بن اسد، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وعبد الرحمن بن عوف بن زُهرة، وأبو سلَمة بن عبد الأسد، ومعه إمرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وعثمان بن مظعون الجمُحي، وعامر بن ربيعة العنزي ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رُهم العامري، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء، وعبد الله بن مسعود، وكان عثمان بن مظعون أميرًا عليهم.

ثم ازداد عدد المهاجرين إلى الحبشة بعد ذلك حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلًا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان، وكانوا كلهم من بطون قريش. وكان ممن لحق بالعشرة الأوائل: جعفر بن أبي طالب، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصطحبًا معه زوجته أسماء بنت عميس، وعمرو بن سعيد بن العاص ومعه زوجته فاطمة بنت صفوان وأخوه خالد بن سعيد ومعه إمرأته أمينة بنت خلف الخزاعية، وعبد الله بن جحش، وأخوه عبدي الله بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة (رملة) بنت أبي سفيان، وكان عدد المهاجرين إلى الحبشة جميعًا ثلاثة وثمانون رجلًا غير النساء والأولاد.

فلمَّا رأت قريش أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين إلى الحبشة قد أمِنوا واستقروا بها وحظوا برعاية مليكها المسيحي وأنهم قد أصابوا دارًا وقرارًا يدينون فيه بالإسلام بحرية؛ جن جنونهم وطاش صوابهم وأصروا على تالعمل على إعادتهم إلى مكة ليأخذوهم أسارى يفعلون بهم ما يشاءون. ورأوا أن الوسيلة المثلى لتحقيق ذلك هو الوقيعة بين المهاجرين وملك الحبشة واتهامهم بتكفيرهم للنصارى الذي هو على دينهم وكذلك أهل مملكته.

واتفقت قريش على أن تبعث لنجاشي الحبشة برجلين من رجالها يجيدان التحدث بالأمهرية، لغة الأحباش، محملين بلهدايا، يطلبان منه طرد المسلمين المهاجرين من بلاده وتهديده بخطرهم على دينه ودين قومه وخطر رسالة الإسلام ودين الإسلام الذي يعتنقونه، ولا يعتقد في ألوهية المسيح. فاختاروا لذلك عمرو بن العاص وعبد الله انب أبي ربيعة، وقد رأوا أنهم أنسب من يقومون بهذه المهمة من بين قومهم. وبالفعل جهزوهما للسفر إلى الحبشة وحملوهما هدايا من جلود وعطور للنجاشي ولبطارقة الكنيسة الحبشية. فركبا البحر، ووصلا إلى الحبشة وقدما هدايا قريش للنجاشي ولبطارقة الكنيسة الحبشية فتقبلوها منهما شاكرين. ثم تكلم الرجلان وقاما بشرح المهمة التي قدما من أجلها. فرفض النجاشي طلبهما، ثم أرسل للمهاجرين المسلمين يطلب منهم محاورتهم في أمر اعتقادهم.

وتصدى في الرد على النجاشي جعفر بن أبي طالب، وكان يتقن الأمهرية، مدافعًا عن الدين الجديد ومبيناً سبب اعتناقهم له وسبب هربهم من كيد قومهم لهم. ولمَّا سأل النجاشي جعفَر أن يقرئه شيئًا من القرآن، قرأ له جعفر صدرًا من سورة مريم وشرح له معناها. فبكى النجاشي والاساقفة حين سمعوا ما تلُي عليهم من آيات، ثم قال النجاشي لجعفر: "إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة". ثم وجه قوله إلى وفد قريش قائلًا: "انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون".

وفي اليوم التالي بذل عمرو بن العاص محاولة أخيرة مع النجاشي لإقناعه بخطر تواجد المسلمين في بلاده على دينه، وإخباره بزعم المسلمين بأن عيسى بن مرسم مجرد عبد وليس إله. فجمع النجاشي المسلمين ثانيةً وسألهم في أمر عيسى، فرد عليه جعفر بأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمة منه ألقاها إلى العذراء مريم البتول التي لم يسها بشر ولم يفرضها (لم يُخرها) ولد. قال: فرفع النجاشي عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم،

أنزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه وأوضئه.

وأمر بهدية الآخرين فرُدت إليهما. وزُعم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم استغفر له حين بلغه موته في رجب السنة التاسعة من البعثة، وأنه صلى عليه صلاة الغائب. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج به إلى المصلى، مضف بهم وكبرَّ أربع تكبيرات. وروى البخاري في موت النجاشي بسنده عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشي: "مات اليوم رجل صالح؛ فقوموا فصلوا على أخيكم (أصحمه)"، وهو اسم النجاشي، وهو بالعربية: عطية، وصلى عليه بالبقيع، رُفع سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو في المدينة، فصلى عليه.

وأقام المسلمون في بلد النجاشي خير قيام إلى السنة السابعة للبعثة، بينما رجع البعض الآخر إلى مكة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. وقد ظل جعفر بن أبي طالب باقيًا في الحبشة ومعه عدد من المهاجرين، ولم يعود ما إلى المدينة إلا يوم فتح المسلمين لخيبر.

وبعد ثلاثة أشهر من هجرة المسلمين إلى الحبشة، وفي السنة السادسة للبعثة أعز الله الإسلام بدخول رجلين عظيمين من رجال قريش فيه، وهما حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر بن الخطاب. وقد اشتهر كلا الرجلين بالقوة والشجاعة والفروسية والغلظة والمهابة والإقدام.

وقد جاء إسلام حمزة حميةً وغيرةً على ابن أخيه صلى الله عليه وسلم وإنصافًا له من أبي جهل العدو الأول للإسلام وللمسلمين. وكان أبو جهل قد مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره؛ فلم يجب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. حدث ذلك ومولاة لعبد الله بن جدعان بن عمرو في

مسكن لها تسمع ذلك. ثم انصرف عنه إلى أهل نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه، راجعًا من رحلة صيد خرج لها، وكان حمزة إذا رجع من رحلة الصيد كان يأتي الحرم أولًا ويطوف بالكعبة ثم ينصرف بعدها إلى أهله. وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلمَّ عليهم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأسد شكيمة. فلمَّا مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، قالت له: "يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محم صلى الله عليه وسلم.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد واعدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلَّما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوش فضربه بها فشج راسه شجة منكرة، ثم قال: "أتشتم محمدًا وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُد ذلك عليَّ إن استطعت". فقال رجال من بني مخزوم، قبيلة أبي جهل، إلى حمزة لينصروا رجلهم. فمنعهم أبو جهل لعلمه من قدرة حمزة على النيل منهم جميعًا، وقال: "دعوا أبا عمارة؛ فإني والله قد سببتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا". فتم بذلك إسلام حمزة، فلَّما أسلم عرضت قريش أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأنَّ حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ويكيدون له.

وأسلم عمر بن الخطاب، في الوقت الذي عاد فيه وفد قريش من الحبشة مردودًا مخذولًا، وقد أورد ابن إسحاق حديث أم عبد الله بنت أبي حثمة عن إسلامه، قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر (زوجها) في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليَّ وهو على شركه، وكنا نلقي منه البلاء اذى لنا وشدة علينا. فقال لي: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؛ فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها فيه، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو

رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا. قال: اطمعتِ في إسلامه؟ قالت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يُسلم حمار الخطاب، قال ذلك يأسًا منه لمِا كان يُرى من غلظة وقسوته على الإسلام.

كان عمر وقت إسلامه شابًا فتيًا في السابعة والعشرين من العمر، وكان رجلًا ذا شكيمة، شريفًا من أشراف قريش، وكان إسلامه فتحًا مبينًا، وكان سبب إسلامه، أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، عند الصفا، وهم قريب من أربعين رجل وامرأة ممن لم يخرجوا مع الذين هاجروا إلى الحبشة، وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب، وهو حديث عهد بالإسلام، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، فلقيَّه في طريقه نُعيْم بن عبد الله، فقال له: "أين تريد يا عمر"؟ فقال: "أريد محمدًا هذا الصابئ الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله". فقال له نعيمك "والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؛ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟". قال: "وأي أهل بيتي؟". قال: "ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما".

وكانت فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، قد أسلمت هي وزوجها سعيد بن زيد وأخفيا إسلامهما عن عمر خوفًا من بطشه وشدة كفره. وكان يختلف إليهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن. فرجع عمر عامدًا إلى منزل أخته وختنه وعندهما خباب معه صحيفة فيها (سورة طه) يقرئهما إياها. فلمَّا سمعوا وقع أقدام عمر عند عتبة بيتهما اختبأ خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر قراءة خباب عليهما حين دنا إلأى البيت. فلمَّا دخل قال لأخته: "ما هذه الهيمنة التي سمعت؟". فقالا له: "ما سمعت شيئًا". قال: " بلى، والله لقد أُخبِرتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينه". فسكتا ولم يجيبا، فأدرك صدق الخبر، فضرب سعيدًا، وقامت له أخته لتمنعه عن زوجها فضربها فشجها، فلمَّا فعل ذلك،

استجمعت فاطمة قوتها الذي استمدتها من قوة إيمانها غير مباليةً ببطش أخيها، وقالت له في تحدي: "نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك".

وهنا تدخلت عناية الله تعالى التي أرادت الهداية لعمر، وجاءت ساعة الحسم لتفصل بين عمر الجاهلي الشرير الكافر وعمر الصحابي المسلم المؤمن قوي الإيمان وذلك حين رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته ندم على ما صنع وانتابته رعشة خفية فجلس ساكنًا وقد بدى الأسى على وجهه واستحكمت الرقة منه، فنظر إليها بعيون حانية، وهي تلك العيون التي كانت منذ لحظة تطلق شرارًا وسهامًا من نار، وقال لها بصوت خفيض: "أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد"، وكان عمر يجيد القراءة والكتابة وكان من قلة القرشيين الذين كانوا يجيدونها آنذاك، فقالت له أخته: "إنا نخشاك عليها"؛ فقال لها: "لا تخافي"، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها؛ فلمَّا قال ذلك طمعت فاطمة في إسلامه، وهي لا تصدق ما يقع أمام عينيها، فقالت له: "يا أخي، إنك نجس، على شركك، وأنَّ هذا الكتاب لا يمسه إلا المطهرون"، فقال لها: "وكيف لي أن أتطهر؟" قالت له: "تغتسل"، فقام عمر فتوضا كما أسارت إليه بكيفية الوضوء، ولمَّا فرغ من وضوئه أعطته الصحيفة فقرأها، فلمَّا قرأ قسمًا كبيرًا منها قال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه" فلمَّا سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: "يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة بنيه؛ فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين: عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر" فقال له عند ذلك عمر: "فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسْلم"، فقال له خباب: "هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه". فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فضرب عليهم الباب؛ فلمَّا سمعوا صوته قام رجل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآن متوشحًا السيف، فرجع الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال: "يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا سيفه". فنهض حمزة، وقال لرسول الله: "إإذن له يا رسول الله فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن

كان يريد شرًا قتلناه بسيفه". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إإذن له"، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه عند مدخل الحجرة فأخذ يجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة، وقال له: "ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة"، فقال عمر: "يا رسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله من الحق" فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أنَّ عمرَ قد أسلم. هذا وقد بلغ عدد المسلمين بإسلام عمر أربعين رجلًا.

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله والمسلمين وأنهم سيتصفون بهما من عدوهم.

ولمَّا أسلم عمر ذهب إلى بيت أبي جهل ليخبره بإسلامه، فضرب عليه بابه، فلمَّا فتح له قال: "مرحبًا وأهلًا بابن أختي، ما جاء بك؟"، قال عمر: "جئت لأخبرك أني قد آمنت بمحمد وبرب محمد وصدقتُ ما جاء به من الحق". فضرب أبو جهل الباب في وجه عمر، وقال له: "قبحك الله وقبحَّ ما جئت به". ولم يُخفِ عمر إسلامه ولم يستتر، بل أعلنه على رؤوس الملأ، ولم يرض أن يستمر المسلمون في إخفاء إسلامهم بصلاتهم في شِعاب مكة دون الحرم. فذهب وصلى عند الكعبة متحديًا قريش، وصلى المسلمون هناك معه محتمين بوجوده معهم.

ولقد وصل خبر إسلام عمر وعزة الإسلام به إلى المسلمين المهاجرين بالحبشة، وسمعوا أنَّ أهل مكة أسلموا وأنَّ قريشًا كفت أذاها عن محمد وعن المسلمين، فارتأى لذلك البعض أنه لا داعي عندئذٍ لتبعاتهم في الحبشة وقد هدأت الأمور في مكة فقرروا العودة إلى وطنهم. وعاد منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا في شهر شوال من لسنة السادسة من البعثة كانوا قد غاروا مكة في شهر رجب من العام نفسه. ولكن ما كان هؤلاء العائدون يصلون مكة حتى وجدوا مكة على ما تركوها عليه، ولم يتغير بها شيء، بل وجدوا اضطهاد قريش للمسلمين قد تزايد وصار أمرًا مفروضًا في جوار عدد من سادة قريش والاحتماء بهم من أذى المشركين حتى تتاح لهم

العودة ثانيةً سالمين إلى الحبشة. فدخل أبو سلمة ومعه عدد من المهاجرين في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون ومعه الباقون في جوار الوليد بن المغيرة.

وتُرجع بعض الروايات عودة المهاجرين من الحبشة إلى قيام ثورة داخلية في الحبشة ضد مليكها الذي كان يحمي المسلمين، وخوف المسلمين على أنفسهم من رجال الحكم الجديد المعادي فآثروا العودة إلى بلادهم بعد سماعهم عن إسلام عمر وظنهم أنَّ اضطهاد المسلمين في مكة قد خف أو تلاشى.

كذلك روى الأئمة مسلم وابو داود والنسائي في سننهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال أن عودة المهاجرين من الحبشة إلى مكة كانت بسبب ما وصل إليهم من خبر سماعهم بأنَّ المشركين في مكة سجدوا متابعةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ عليهم سورة (النجم) واعتقدوا أنهم قد أسلموا واصطلحوا معه ولم يبق نزاع بينهم، "فطار الخبر بذلك وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة بها فظنوا صحة ذلك فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك، وثبتت جماعة، وكلاهما محسن مصيب فيما فعل".

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (والنجم) بمكة فسجد فيها وسجد مِنْ معه؛ غير شيخ أخذ كفًا من حصا أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعدُ قُتل كافرًا".

وقد زاد البخاري في الرواية أنه كان أمية بن خلف، وقد قتل في غزوة بدر، كما سيأتي فيها. وقال ابن إسحاق أنه الوليد بن المغيرة، وهو رأي باطل لمخالفته رواية البخاري، ذلك لأن الوليد لم يُقتل.

ويحلو لبعض المشركين من المستشرقين المغرضين والكُتاب المضللين، ربط عودة مهاجري الحبشة إلى القصة التي عُرفت بقصة (الغرانيق)، وملخص هذه القصة الكاذبة التي أوردوها هي: أن حدثت مصالحة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قريش على أن يعترفوا بينهما على هذا الأساس.

وكلمة (غرانيق)، ومفردها (غرنوق)، كلمة غير شائعة في اللغة العربية، وهي تعني: الحجر الأبيض، والغرانيق هي الحجارة البيضاء، والمقصود بها في القصة هنا: أوثان قريش وأصنامها.

وقد وردت القصة في طبقات ابن سعد نقلًا عن الواقدي، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، ونقلها عنه محمد بن جرير الطبري في الجزء الثاني من كتابه: (تاريخ الرسل والملوك)، والحافظ ابن كثير في تفسيره الكبير عند تعليقه على تفسير الآيات ٥٢ ، ٥٣، ٥٤ من سورة الحج، ابتداءًا من قوله تعالى: (وما أرسلنا مِن قبلِك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسَخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يُلى الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسيةِ قلوبهم وإنَّ والظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبِتَ له قلوبُهم وإنَّ الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم).

ويقول ابن كثير: "قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها بين طرق كلها مرسلة ولم أرها من وجه صحيح والله أعلم". ولقد أراد ابن كثير أن يوضح أنَّ كل هذه الروايات التي أوردت هذه القصة روايات مرسلة، بمعنى أنَّ إسنادها ينتهي إلى أحد التابعين لا إلى أحد الصحابة، وهي عنده بذلك روايات غير صحيحة. وقد أورد ابن كثير عديدًا من الرويات التي روت هذه القصة، منها واحدة ينتهي إسنادها إلى التابعي (سعيد بن جبير)، وقد ورد فيها قوله: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم، فلمَّا بلغ موضع: (أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى) قال: "فألقى الشيطان على لسانه": (تلك الغرانيق العُلى وإنَّ شفاعتهن لتُرجى)، قالوا: أي المشركون: "ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم" فسجد وسجدوا فأنزل الله هذه الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول).

وتتمادى الرواية في كذبها فتقول "أنَّ قريشًا أعلنت بذلك رضا عن محمد صلى الله عليه وسلم، وأنَّ باعتراف محمد بشفاعة أصنام وأوثان قريش قد زال وجه الخلاف بينهما، وأنَّ هذا الأمر فشا بين الناس حتى بلغ أرض الحبشة، وبسببه عاد المهاجرون المسلمون منها إلى موطنهم بمكة".

ورواية ابن سعد في طبقاته جاءت تحت عنوان: ذكر سبب رجوع أصحاب النبي عليه السلام من أرض الحبشة، وجاء فيها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى من قومه ما يكفي، فجلس خاليًا فتمنى فقال: "ليته لا ينزل عليَّ شيئًا يُنفرهم عني. وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يومًا مجلسًا في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم: (والنجم إذا هوى)، حتى بلغ: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان كلمتين على لسنه: "تلك الغرانيق العلى. وإنَّ شفاعتهم لتُرجى"، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعًا. ورفع الوليد بن المغيرة ترابًا إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخًا كبيرًا لا يقدر على السجود، ويُقال أنَّ أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابًا فسجد عليه، رفعه إلى جبهته وكان شيخًا كبيرًا. فبعض الناس يقول إنما الذي رفع التراب الوليد، وبعضهم يقول أبو أُحيحة، وبعضهم يوقل كلاهما جميعًا فعل ذلك، فرحبوا بما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: "قد عرفنا أنَّ الله يحُيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأمَّا إذ جعلتَ لها نصيبًا فنحن معك، فكبُر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قولهم حتى جلس في البيت، فلمَّا أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فقال جبريل: أجئتك بهاتين الكلمتين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قلتُ على الله ما لم يقل"، فأوحي الله إليه: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذًا لاتخذوك خليلًا) إلى قوله: (ثم لا تجد لك علينا نصيرًا.

ثال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر الواقدي، قال: حدثني محمد بن عبد الله عن الزُهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: "فشت تلك السجدة في الناس حتى بلغت أرض الحبشة فبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّ أهل مكة قد سجدوا وأسلموا حتى أنَّ الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة قد سجدا خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال القوم: فمن بقي بمكة إذا أسلم هؤلاء؟ وقالوا: عشائرنا أحب إلينا، فخرجوا راجعين، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبًا من كنانة، فسألوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشي فتركناهم على ذلك. فأتمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة. فدخلوا مكة بجوار، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرًا ثم رجع إلى أرض الحبشة. قال محمد بن عمر الواقدي: فكانوا خرجوا في رجب سنة خمس فأقاموا شعبان ورمضان، وكانت السجدة في رمضان، وقدموا في شوال سنة خمس.

والقصة التي يرويها ابن سعيد ومن أخذ بها عنه واضح من سردها أنها مختلفة من أساسها وليست بمعقولة. وقد منذ علماء المسلمين صنعي الرواية وخضموا كذبها الواضح، ما عدا عالم واحد هو الذي صدقها، وعلل تصديقه لها بعلل منها تعدد رواياتها، هذا العالم هو "ابن حجر العسقلاني" وهو من كبار علماء المسلمين ومؤرخيهم وقد عاش في القرن الثامن، الهجري. وقد ردَّ علماء أجلاء على رأي ابن حجر مستندين في ردهم على عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ عن رب العزة، باعتبارها أصلًا من

باقي النص غير موجود بالأصل

بل عاش حياته كاها في المدينة، ولم يرى تلك الحادثة المزعومة.

ومما يؤكد كذب وتلفيق قصة الغرانيق هذه، هو أنَّ الناظر في سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يتبين له من خلالها شخصيته العظيمة وإرادته القوية وثبات إيمانه وعدم استسلامه للقهر أو الهزيمة، وعدم خضوعه إلا لقوة خالقه مهما كانت قوة أو جبروت خصمه. رأيناه

وهو أشد ما يكون قوة وصبرًا واحتمالًا وهو يتحدى قريش بجبروتها وعدوانها بمفرده، ورأيناه يشتهزئ بها ويسخر منها وهي تعرض عليه المال والجاه والرئاسة والزعامة والمُلك. رأينا إيمانه لن يتزحزح قيد أنملة في حلك الظروف التي مرت به: وهو عند الكعبة يتعرض للأذى، وهو في الطائف حين يرده أهلها مكسور الخاطر، لم يشكو إلا لمولاه، ولم يكن خوفه إلا أن يكون ربه غير راض عنه. رأيناه في أحُد، بعد الهزيمة، جريحًا مهزومًا، ولكنه أصر على النزال، وقد طلب من أحد رجاله أن يرد على أبي سفيان حين صاح قائلًا: "أعلِ هبل" برده عليه بقوله: "الله أعلى وأجل".

وإن صاحب هذه الشخصية السوية الكاملة العظيمة الواثقة من نصر الله وإعلاء كلمة دينه. والرجل الذي اصطفاه الله تعالى من بين جميع خلقه والذى قرن اسمه جل وعلا باسمه، والذي جعله الله تعالى في عينه وأراه من آياته الكبرى، لا يُعقل أن يتزحزح ولو لشبر واحد عن دعواه ورسالته تحت أي ضغط من الضغوط أو أي إغراء، أو أن يتخلى عن مبدأ التوحيد الذي بُعث من أجله، وهو حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه رسالته. وإنَّ الشيطان لا يمكن له أن يغير من الوحي الذي يلقيه الله تعالى على لسانه بنيه، لأنه عليه السلام (ما ينطق عن الهدي إن هو إلا وحي يوحي). فالنبي معصوم من قبل الله تعالى في مراحل الوحي المختلفة: مرحلة الاستلام، ومرحلة الاحتفاظ بما تسلَم، ومرحلة التبليغ لما تسلَم. ورواية الغرانيق تخالف ما جاء به القرآن الكريم من توحيد لله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، فهي بذلك تهدم الإسلام من أساسه وتلغي سبب بعث الله أنبياءه ورسله به. ولا يعقل على الأخلاق أن يتحمل محمد صلى الله عليه وسلم ما تحمل من أذى وتحقير وتسفيه واستخفاف من قومه، ثم يقوم بعد ذلك، لكي يرضيهم، بعقد زواج بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك والوثنية، كما فعل اليهود والنصارى من قبل. وتفسير آية (وما أرسلنا مِن قبلك من رسول

"يوجد عدد من الفقرات غير موجودة من أصل المصدر "

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب الرومي. وأشباههم من المسلمين؛ هزأت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: "هؤلاء أصحابه كما ترون! أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا"، فأنزل الله عز وجل فيهم قوله: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فإنه غفور رحيم) [الأنعام: ٥٢ – ٥٤].

وذكر ابن إسحاق أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما كان يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبني الحضرمي، وكانوا يقولون: "والله ما يعلِم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر". فأنزل الله تعالى في قولهم هذا: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِمه بشرٌ لسان الذي يلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسانٌ عربي مبين) [النحل: ١٠٣].

وكان أكثر المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والحارث بن عيطل، والعاص بن وائل السهمي. وقد نزل فيهم قول الله تعالى: (إنا كفيناك المستهزئين) [الحجر: ٩٥]، فأتاه جبريل، فشكاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراه الوليد، فاشار جبريل إلى كاحله وقال: كُفيتَه ثم أراه الأسود بن المطلب، فأومأ إلى عينيه أو عنقه، وقال: كُفيته. ثم أراه الحارث بن عيطل، فأومأ إلى بطنه، وقال: كُفيتَه. ومر به العاص بن وائل، فأومأ إلى أخمصه (باطن قدمه)، وقال كُفيتَه.

فأما الوليد، فمر برجل من خزاعة وهو يجربِ نبلًا له فأصاب أكحله فقطعها. وأمَّا الأسود فخرج في رأسه قروح، فمات منها. وأما الأسود فاصابه العمى، وأما الحارث فقد أصاب المرض معدته فمات منها. وأمَّا العاص فقد دخلت في أخمصه شِبرِقة (شوكة) فمات منها.
ولقد نزل القرآن يذكر أحداث قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مكة، ويذكر من نصب نفسه لعداوته منهم، ومنهم من سمَّى لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار. فكان ممن سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر، فأنزل الله تعالى فيهما قوله: (تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد).

وقال ابن إسحاق أنَّ أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه الصديق أبو بكر، وفي يدها فِهر من حجارة (حجر مِلأ الكف)، فلمَّا وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت: مذمَّمًا عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا، ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؛ فقال: ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عني.

قال ابن إسحاق: وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مذممًا، ثم يسبونه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا تعجبون لِما صرف الله عني من أذى قريش، يسبون مذممًا، وأنا محمد".

وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذامة، إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزة ولمزَة، فأنزل الله تعالى فيه: (ويل لكل همزة لمزة. الذي جمع مالًا وعدّده. يحسب أنَّ ماله

أخلده. كلا لينذبن في الحطمة. وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممدة).

وكان قد نزل في العاص بن وائل قوله تعالى: (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتيَّن مالًا وولدًا إطلع الغيب) إلى قوله تعالى: (ونرثه ما يقول ويأتينا فردا).

وأنزل الله تعالى في أبي جهل، حين هدد بسبٍّ الله تعالى لو لم يتوقف محمد صلى الله عليه وسلم عن سب آلهة قريش، قوله تعالى؛ (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْوًا بغير علم).

وأنزل الله تعتالى في النضر بن الحارث عدة آيات ومنها قوله تعالى: (إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين) ونزل فيه: (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم).

وأنزل الله تعالى في ابن الزبعري السهمي قوله تعالى: (إنَّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون).

ونزل في الأخنس بن شريق بن عمرو الثقفي، حليف بن زهرة: (ولا تُطع كل حلَّاف مهين هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتدٍ أثيم).

ونزل في الوليد بن المغيرة حين استكثر أن ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينزل عليه وهو كبير قريش ولا على أبي مسعود بن عمير الثقفي سيد ثقيف، وذلك في قوله تعالى: (وقالوا لولا نُزِل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) إلى قوله تعالى: (مما يجمعون).

ونزل في أبُي بن خلف وعقبة بن أبي معيط قوله تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا) وقوله تعالى ردًا على سؤال أبيَّ بن خلف بإعادة الله تعالى للعظام بعد أن تكون رفاتًا: (وضرب لنا مثلًا ونسى خلقه قال مَنْ يُحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم).

ونزلت سورة الكافرون حين اعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة: الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي نعبد خيرًا مما تعبد كنا قد أخذنا بخطنا منه، وإن كان ما تعبد خيرًا مما نعبد كنت أخذت بخطك منه. فأنزل الله تعالى قوله: (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين).

* * *

٦- الحصار الاقتصادي والخروج إلى الطائف

لمَّا بلغ قريشاً ما فعله النجاشي مع المسلمين المهاجرين إلى بلده وإكرامه لهم، كبرُ ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأجمعوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك لمَّا رأت قريش تزايد عدد الداخلين في الإسلام بعد إسلام عمر بن الخطاب وانتشار الإسلام في القبائل ووقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، برغم عدم اعتناق الكثيرين منهم لدعوته وتقبل رسالته، ولكنهم آذروه بدافع العصبية القبلية حميةً وعصبية. اجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتابًا بينهم يتعاهدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب فلا يزاوجوهم ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعونهم أو يتباعدا منهم شيئًا ولا يخالوطهم ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة حتى يسلمون إليهم محمدًا (صلى الله عليه وسلم) يقتلونه. وكان ذلك الإجراء أشبه ما يُعرف اليوم بين الدول بالمقاطعة الاقتصادية والحرب الاقتصادية والحصار الاقتصادي، وكتبت قريش بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة العبدري، فشلَّت يده. وقال بعضهم أن الصحيفة حُفظت عند أم الجُلاس بنت مُخَرِبه الحنظلية، خالة أبي جهل. وقد جاء نص الصحيفة بالآتي:

"باسمك اللهم، على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يتباعدا منهم ولا يعاملوهم حتى يدفعوا إليهم محمدًا ليقتلوه". وقد دعت قريش حلفاءها الأحابيش من كنانة، ليشتركوا معهم في نفس العقد، فتعاقدوا معهم على ما جاء فيه.

ولمَّا فعلت قريش ذلك انقسم بنو عبد مناف، آل محمد، إلى قسمين: القسم الأول وقد ضم بني هاشم وبني المطلب، مسلمهم وكافرهم، إحازوا إلى أبي طالب، سيد قومه، ودخلوا معه في شِعبه واجتمعوا إليه، وخرج منهم إلى قريش عمه عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، فظاهرهم حقدًا على ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. والقسم الثاني من بني عبد مناف، وهم بنو نوفل وبنو عبد شمس، هلال المحرم سنة سبع من مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقُطعت عنهم االعيرة والمادة والطعام والماء حتى اشتد بهم الجوع والعطش، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد، وسَمع أصوات صبيانهم يبكون، بسبب الجوع، مَنْ كان وراء الشِعب، فمِن قريش من سرَّه ذلك، ومنهم من ساءه وقال: "انظروا ما أصاب منصور بن عكرمة كاتب هذه الصحيفة الجائرة". واستمرت المقاطعة مدة ثلاث سنين جهِد فيها بنو هاشم والمطلب وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وأكلوا أوراق الشجر، وكان لا يصلهم من الزاد إلا القليل في السر من بعض المتعاطفين معهم من أصارهم. وقد أحكمت قريش عيونها حولهم حتى تضمن نجاح سلاح التجويع الذي أشهرته في وجه أهل الرسول وعائلة؛ وقد صبر الرسول على هذا الابتلاء وصبر معه أهله وعشيرته.

وبعد مرور ثلاث سنوات شِداد على هذه المقاطعة ضد بني هاشم وبني المطلب مال بعض رجال قريش إلى نقض الصحيفة وفك هذا الحصار الجائر. وبدأت فكرة النقص من (هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث) وأخواله من بني المطلب، وكان ابن أخى (نضلة بن هاشم بن عبد مناف) لأمه، "فكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشِعب ليلًا، قد أوقره طعامًا حتى إذا أقبل به فم الشِعب خلع

خطامه من رأسه، ثم يضرب على جنبه، فيدخل البعير الشِعب عليهم وينالوا من الخير الذي يحمله، ثم يأتي به قد أوقره بزًا أو بُرًا فيفعل به مثل ذلك".

قال ابن إسحاق: "ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت المطلب، فقال له: "يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم؟ أما رأني أحلف بالله أنَّ لو كان أخوال أبو الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا".

قال زهير: "ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها". قال هاشم: "وقد وجدتُ لك رجلًا". قال زهير: "فمن هو؟". قال هاشم: "أنا". قال له زهير: "أبغنا رجلًا ثالثًا". فذهب هاشم إلى (المطعم بن عديٍّ)، فقال له: "يا مطعم أقد رضيت أنْ يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا". قال المطعم: "ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد". قال: "قد وجدتُ ثانيًا". قال: "من هو؟" قال: "أنا"، قال: "أبغنا ثالثًا"، قال: "قد فعلت"، قال: "من هو؟"، قال: "زهير بن أبى أمية"، قال: "ابغنا رابعًا". فذهب إلى (البُختريَ بن هشام)، فقال نحوًا مما قاله للمطعم بن عدي، فقال: "وهل من أحدٍ يعين على هذا؟"، قال: "نعم"، قال: "من هو؟"، قال: "زهير بن أبى أمية والمطعم بن عدي وأنا معك"، قال: "أبغنا خامسًا". فذهب إلى (زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد)، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: "وهل هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟"، قال: "نعم"، ثم سمَّى له القوم.

فذهب الخمسة نفر إلى (الحجون)، وهو موضع بأعلى مكة به مدافن أهلها، ليلًا، واجتمعوا هناك، فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وأخبرهم زهير بأنه سيكون أول من يتكلم في الأمر مع قريش، فلمَّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبى أمية، وهو يرتدى حلة ثمينة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: "يا أهل مكة، أنأكل

الطعام ونلبس الثياب وبنوها شم هلكي لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فنهض أبو جهل غاضبًا، وكان جالسًا في ناحية المسجد، وقال: "كذبت والله لا تُشق"، فتصدى له زمعة وقال: "أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتبت". فأيد أبو البختري قول زمعة وقال: "صدق زمعة لا نرضى بما كُتب فيها ولا نُقرة. وقال هشام ابن عمرو كلامًا نحوًا من ذلك. ففوجئ أبو جهل باتفاق القوم في الرأي، فقال: "هذا أمرٌ قُضي بليل تُشوور فيه بغير هذا المكان".

حدث ذلك الحوار وأبو طالب جالسٌ في ناحية من المجلس دون أن يتكلم، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، وفوجئ الجميع بأنَّ حشرة (الأرضة) فقد أكلتها كلها ولن نبُق منها إلا القطعة المكتوب عليها "باسمك اللهم"، فإنها لم تأكله. وكان ذلك ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب قبل الإقدام على تمزيق الصحيفة.

قال الواقدي: ذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب، فذكر أبو طالب ذلك لإخوته وخرجوا إلى المسجد، فقال أبو طالب لكفار قريش: "إنَّ ابن أخي قد أخبرني – ولم تُكذبني قط – أنَّ الله قد سلط على صحيفتكم الأرضة، فلحست ما كان فيها مِن جوْر أو ظلم أو قطيعة رحم، وبقي فيها كل ما ذُكر به الله، فإن كان ابن أخي صادقًا نزعتم عن سوءِ رأيكم، وإن كان كاذبًا دفعته إليكم فقتلموه أو استحييتموه"، قالوا: "قد أنصفتنا". فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسُقط في أيديهم، ونكسوا رؤوسهم. فقال أبو طالب: "علام نحُبس ونحُضر وقد بان الأمر؟" ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة والكعبة فقال: "اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه فيَّا". ثم انصرافوا إلى الشعب، وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا بين هاشم، فيهم المطعم بن عدي، وعدي بن قيش وزَمعة بن الأسود وأبو البخترى بن هاشم وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا. فلما

رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفوا أن لن يُسلموهم، وكان خروجهم من الشِّعب في السنة العاشرة واختلاطهم بالناس. وبذلك فُك الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضة قريش على بني هاشم وبني المطلب، وخرج رسول الله وعشيرته منتصرين على أئمة الشرك والكفر من قريش.

* * *

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته للناس بالدخول في الإسلام، مستندًا في دعواه على تأييد الله ورعايته له، وحماية قبيلته وعشيرته، وعطف ومساندة عمه أبي طالب. ولم يدخر أبو طالب وسعًا للوقوف إلى جانب ابن أخيه وتأييد دعوته باذلًا في ذلك نفسه وماله وعياله. ولكن رغم هذا العون للنبي صلى الله عليه وسلم من جانب أبى طالب ووقوفه من صدق دعوته إلا أنه لم يعتنق الإسلام، واعتذر عن ذلك بخوفه من مسبة آبائه لو هو ترك دين أجداده. وقد حاول رسول الله صلى الله عليه وسلم إغراءه بالدخول في الإسلام، حَبَألة، لكنه لم يهتد للإسلام ومات على الكفر.

أورد الواقدي عن سعيد بن المسيب عن أبيه، قال: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده عبد الله بن أبي أمية وأبا جهل بن هشام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله". فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: "يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟". قال: ولم يزِل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويقول: "يا عم، قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله"، ويقولان: "يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟" حتى قال آخر كلمة تكلم بها: "أنا على ملة عبد المطلب"، ثم مات. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ" فاستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حتى نزلت الآية ١١٣ من سورة التوبة: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قُربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم).

وأورد ابن سعد في طبقاته نقلًا عن المدائني: أنَّ أبا طالب قال، وهو على فراش الموت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ابن أخي والله لولا رهبة أن تقول قريش دَهرني الجزع فيكون سُبة عليك وعلى بني أبيك لفعلت الذي تقول وأمرَرتُ عينك بها لما أرى من شكرك ووجدك بي ونصحيك لي". ثم إنَّ أبا طالب دعا بني عبد المطلب فقال: "لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه واعينوه ترشدوا" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتأمرهم بها وتدعها لنفسك؟" فقال أبو طالب: "اما إنك لو سألتنى الكلمة وأنا صحيح لتابعتك على الذي تقول، ولكني أكره أن أُجزع عند الموت، فترى قريش أني أخذتها جزَعًا ورددتُها في صحتي" قال المدائني فنزلت فيه: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله تعالى: (وهم ينهون عنه وينأون عنه) نزلت في أبي طالب، ينهي عن أذى رسول الله أن يؤذي وينأى أن يدخل في الإسلام.

وأورد ابن سعد نقلًا عن العباس بن عبد المطلب، قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: نعم، وهو في ضحضاح من النار، ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار. وقد توفى أبو طالب للنصف من شوال في السنة العاشة من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذٍ ابن سبع وثمانين سنةٍ، وتوفيت السيدة خديجة رضي الله عنها بعده بشهر وخمسة أيام، وهي يومئذٍ بنت خمس وستين سنة، فاجتمعت على رسول الله مصيبتان في هذا العام، الذي عُرف بعام الحزن: موت عمه أبى طالب وموت زوجته وشريكة حياته السيدة خديجة بنت خويلد، التي أمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ربها.

وقد كانت خديجة الزوجة والأم والصاحبة والأخت والحب والحنان. لقد دام زواجهما خمسًا وعشرين عامًا، كانت خلالها مثال الزوجة المؤمنة الصالحة المخلصة المحبة المجاهدة الصابرة المتفانية في مجاهدتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها أشد الحزن كما حزن قبل وفاتها على وفاة عمه أبي طالب.

وكان موت أبي طالب ابتلاءًا كبيرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه، لأنَّ رئاسة بني هاشم صارت من بعده لعمه وعدوه أبي لهب بعد أن كانت لناصره ومؤيده عمن أبي طالب، فلزم بيته وأقلاً الخروج ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به؛ فبلغ ذلك عنه أبا لهب، فجاءه فقال: "يا محمد إمضِ لما أردت، وما كنت صانعًا إذا كان أبو طالب حيًا فاصنعه، لا واللات لا يوصَل إليك حتى أموت". وسبَّ ابن الغيطلة النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولّى وهو يصيح: "يا معشر قريش لقد صاب أبو عتبة" فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب، فقال: "ما فارقتُ دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أنْ يُضام حتى يمضي لما يريد" قالوا: "قد أحسنت وأجملت ووَصلت الرحم". فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك أيامًا يذهب ويأتي لا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب. لكن موقف أبي لهب هذا المؤيد لمحمد صلى الله عليه وسلم يستمر، فقد عاد لطغيانه ومجافاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك بعد أن جاءه عُقبة بن أبي معيط وأبو جهل فقالا له: "هل أخبرك ابنُ أخيك أين مدخل أبيك عبد المطلب؟"، فقال له أبو لهب: "يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟" قال: "مع قومه"، فخرج أبو لهب إليهما فقال: "قد سألته فقال مع قومه"، فقالا: "يزعم أنه معهم في النار" فعاد أبو لهب إليه وسأله مستنكرًا قائلًا: "يا محمد أيدخل جدك عبد المطلب النار؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم، ومَنْ مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار"، فقال أبو لهب غاضبًا معلناً معاودة عدائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "والله لا برحتُ لك عدوًا أبدًا، وأنت تزعم أنَّ عبد المطلب في النار"، فاشتد عليه هو وسائر قريش. وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فازداد أذى أعدائه له، وإجترأوا عليه وكاشفوه بالأذى وصمموا على قتله بعد إعلان عمه أبي لهب تخليه عن حمايته له وتبرئه منه.

ولقد تملكت قريش آنذاك عصبيتان: عصبية القبيلة وعصبية العادات والتقاليد. تعصب بنو هاشم والمطلب لمحمد صلى الله عليه وسلم بحكم انتمائه لقبيلتهم فقاموا بحماية بعض الوقت،

وتمثلت تلك الحماية في أبي طالب ثم أبي لهب لبعض الوقت، لكن عصبية التقاليد والعادات غلبت عليهم فحاربوا محمدًا ودعوته بحكم خروجه عن مألوف عبادات آبائهم وأجدادهم. كذلك فإن التنظيم السياسي في مكة وقف في وجه انتشار رسالة الإسلام وتقبل دعوة صاحبها، ابن مكة، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذلك لأنَّ مكة ارتضت نوعًا من التنظيم السياسي أُلغيت فيه الرئاسة العامة لمدينتهم، بمعنى ألا ينفرد بحكم مدينتهم شخص واحد يكون رئيسًا عليهم. بل تقسمت الرئاسة بينهم بين شيوخهم الذين عُرفوا برجال (الملأ)، وهم رؤساء العشائر والبطون الذين كانوا يجتمعون في دار الندوة للنظر في أمورهم العامة، وأيَ مشاكل أو مخاطر تتعرض لها مدينتهم. وقد كان شيوخ الملأ حريصين على ألا يترأسهم أحدهم أو يسودهم، ويرون ضرورة التكافئ بينهم، ويرون أنهم متساوون في المكانة والسيادة والشرف. فإذا ظهر من بينهم نبي، فقد تكون السيادة والزعامة لذلك النبي، بتميزه بالنبوة عليهم، ويرون أنفسهم مضطرين للتنازل بالسيادة العامة له والخضوع له ولأوامره والتبعية لسيادته المطلقة. وتبعًا لذلك تصبُح السيادة لعشيرة ذلك النبي على سائر عشائر قريش وبطونها. من أجل ذلك عارض رؤساء الملأ محمدًا صلى الله عليه وسلم، وعارضت بطونهم القرشية رسالته ونبوته حتى لا تكون له ولبني هاشم عشيرته، السيادة عليهم برغم إيمانهم بصدق رسالته وصحة ديانته، فهم لم يعرفوا محمداً صلى الله عليه وسلم سوى صادقًا وأميناً وصاحب الصفحة البيضاء النقية طوال حياته بينهم.

وكانت خُصومة قريش أشد لهذا النبي الذي جاءهم بمعتقد جديد يخالف به معتقداتهم ويلغي به آلهتهم ويحطم أوثانهم وأصنامهم، وهو بذلك يهدم المكانة التي كانت تكتسبها قريش بين القبائل العربية.

وكانت قريش قد اكتسبت زعامتها الروحية على العرب بسبب هذه الأوثان والأصنام التي وضعوها حول الكعبة، وكان الناس يأتون إليها للحج والتبرك بها. وبفقدان السيادة الروحية

رأت قريش أنها ستفقد، تبعاً لذلك، المركز التجاري المرموق الذي حققته استنادًا على مجيء القبائل إلى البيت الحرام للحج والتجارة من أقصى الأماكن وشتى البقاع.

وكان على قريش أن تسلك شتى الطرق لوقف دعوة محمد صلى الله عليه وسلم التي لم تكن في نظرهم مجرد رسالة دينية؛ بل وجدوا في انتشارها خطرًا تامًا على وجودهم فتصدوا لحرب محمد صلى الله عليه وسلم ولحرب أتباعه. وتدرجوا في هذه الحرب من الاستنكار والاستهزاء والتحقير والإهمال، إلى التهديد والوعيد، ثم العنف والشدة التي وصلت إلى حد التفكير في القتل، قتل محمد صلى الله عليه وسلم وقتل كل من يتبع دعوته. وقد استمرت قريش في صلفها وكبريائها ورفضها الدعوة المحمدية طوال العشر سنوات التي مضت من عمر البعثة، ولم يتابع محمد صلى الله عليه وسلم إلا القلة منهم. وازدادت هذه المعادة ضراوة بعد أن ظنت قريش، بموت أبي طالب، أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم صار بلا حاميًا، وقد نسى هؤلاء الجهلاء أنَّ الله تعالى الذي أرسله برسالته السماوية هو ناصره وحاميه وأنه في عنايته وحفظه، وقد أكد الله تعالى له ذلك بقوله في محكم كتابه يدعوه بالصبر على قومه: (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم).

ولقد تفننت قريش في إيقاع ألوان الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأتباعه، فكانوا يحرضون سفهائهم على حثو التراب في وجه رسول الله وعلى رأسه وهو قائم يصلى عند الكعبة، وإلقاء مخلفات الحيوانات المذبوحة عليه وهو ساجد في صلاته وطرحهم الشوك على عتبة بابه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك: "ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب". وقد نزل قوله تعالى في وعيد الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالعذاب الشديد حيث يقول: (إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابًا مهينًا. والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا).

وقد ازدادت عداوة قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأيام، لا لشيء إلا لأنه أراد لهم الهداية، وأراد أن يخرجهم من دائرة لضلالة العمى إلى دائرة النور والهدي. وشارك هؤلاء الأعداء من الإنس إخوانهم الأعداء من الجن والشياطين في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى فيهم: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ولو شاء ربك ما فعلوه فزرهم وما يفترق ولتصغى إليه أفئدة الدين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون). عجبًا لهؤلاء الحمقى الذين ينضمون لحزب الشيطان وزعيمه إبليس، عليه اللعنة، وهم يعلمون أنَّ الشياطين أعداء لهم يقودوهم في طريق الضلال الذي ينتهي بهم إلى جهنم وبئس القرار. عجبًا لهم وهم يعادون محمدًا صلى الله عليه وسلم ويتعرضون له بالإيذاء لا لشيء إلا لأنه دعاهم إلى الله، وجاء إليهم منقذًا وهاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

ولقد زادت قريش من سخريتها وتهكمها بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فطلبت منه أن يُظهر لهم معجزاته إن كان نبيًا حقًا مثلما فعل الأنبياء موسى وعيسى من قبله. كما طلبوا أن يحيل جبليْ الصفا والمروة ذهبًا لتغتنى بهما مدينتهم مكة. كذلك طلبوا منه أنْ يسيِّر الجبلين المحاصريْن لمدينتهم مكة لتتسع عليهم. وزيادةً في التعجيز طلبوا منه أن يُحيِّى الموتى وأن يعيد أجدادهم إلى الحياة ليسألوهم عن الحياة الآخرة التي ظنوا أنها من صنع خياله وأنه مدعٍ لها. وطلبوا منه أن يفجر لهم الأنهار والينابيع في صحراوات بلدهم، كما طلب التجار منهم أن يسأل ربه عن أثمان السلع فيوحي إليه بها حتى يضاربوا بها غيرهم من التجار. وقد تعرض القرآن الكريم لكل هذه العروض الساخرة ورد عليهم، وذلك في قوله تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا الأرض ينبوعًا أو تكون لك جنة "من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجير أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا. أو يكون لك بيت من زخرف أو تقى في السماء ولن نؤمن برقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه) فكان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولًا) وقوله: (قل لا

أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسني السوء إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) قال تعالى في سورة الفرقان [٤ -٩] (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام وعيش في الأسواق لولا أُنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيرًا. أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا).

لقد أراد الله تعالى لبنيه صلى الله عليه وسلم أن تنتصر رسالته ودعوته بالحجة والبرهان والإقناع واستخدام العقل وتحكيم المنطق، لأن رسالة الدين التي جاء بها هي رسالة دين الفطرة التي فطر الله عباده عليها. لم يأتهم محمد صلى الله عليه وسلم بفلسفة أو طلاسم ولا شعوذة ولكنه جاءهم يدعوهم إلى الحق واستخدام العقل في الهداية لهذا الحق. جاء يدعوهم إلى ما دعي إليه إخوته الأنبياء والرسل من قبله وهو عبادة الله الواحد الأحد خالق هذا الكون ومدبر أمره ومقدر الحياة والموت فيه. لم يطلب منهم سوى إزالة الشِرك والوثنية التي لحقت مع الأيام مع دعوى التوحيد التي جاءت منذ أن هبط آدم عليه السلام على الأرض حتى عهد أخيه وسابقه عيسى المسيح عليه السلام، وهذا أمر لا يحتاج إثباته وتقبله لمعجزات أو كرامات. جاء ليقول لهم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تتبعوا سبيل الشيطان الذي أبعد أجدادكم وقادهم إلى طريق النار. وما كان أيسر على الله تعالى الخالق لكل شيء، الذي إذا أراد شيئًا أن يكون قال له كن فيكون، أن يزود نبيه بالمعجزات وبخوارق الأفعال لكن الله تعالى أراد لنبي آخر الزمان أن يستخدم بشريته وإيمانه الراسخ من قلبه بوحدانيه الله تعالى دون أن تكون له معجزات مادية خارقة. لقد اكتفى الله تعالى مع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة واحدة كبرى، هي معجزة القرآن الكريم، كلامه المنزل على لسانه بالوحي إليه، وهو كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. القرآن الذي تحوى به الله تعالى قوم محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بمثله، أو أن يأتوا حتى بمثل سورة من سورة في بلاغة وفصاحة وقوة حجته وكمال بيانه وتمام إعجازه.

وإذا كان المشركون لا يؤمنون بهذا القرآن وأنه كلام الله المنزل على نبيه فلا حاجة لنا عنه المؤمنين به أن نجادلهم في أمره بعد أن أصابهم العمى وتحجرت قلوبهم وعقولهم. هؤلاء المنكرون للقرآن منكرون أصلًا لوجود الله وبالتالي فهم كالأنعام. بل هم أضل سبيلًا لأنَّ الأنعام تؤمن بالله ومنها ما يسبح له ولكنا لا نفقه تسبيحه.

ولقد أدعى مشركو قريش أنَّ القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم وتأليفه وأنه ليس من عند الله، وهم يعلمون تمامًا أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم عاش أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فمن أين جاءته هذه البلاغة المعجزة إذا كان القرآن من صنعه قال الله تعالى في ذلك: (وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلمًا وزورًا)؟ قالوا: أن الشيطان كان يُلقى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ببعض آيات القرآن، سبحان ربي كيف يُلقى كافر بالله مثل هذا القول الذي يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد الذي يكفر به الشيطان. إذا كان الشيطان هو الذي أوحى للنبي بهذا القول فلماذا إذن تلك الحرب الأبدية وذلك العداء المستحكم بين الشيطان وعباد الله المؤمنين الموحدين.

وقالوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أخذ هذا القول من رهبان الشام حين ارتحل إليها، ورسول الله لم يسافر إلى الشام إلا سفرتين مرة وهو صبي في الثانية عشرة من عمره والأخرى وهو شاب في العشرينات من عمره. ولو تساءلنا إنْ صح قول هؤلاء أنه أخذ عن هؤلاء الرهبان النصارى، ما الذي أخذه منهم؟ هل أخذ منهم رسالة التوحيد وهم يؤمنون بثلاثة آلهة؟ وأين هو ذلك العلم العظيم المدفون في صوامع الرهبان وبِيَعهم الذي اغترف محمد صلى الله عليه وسلم من بحره؟ وأي نوع من المعلومات تلك التي أعطاها الرهبان لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ إذا كانت هي رسالة التوحيد وكلام القرآن كما يزعمون فأين هذا الكلام في كتابْهِم المقدسيْن، العهد القديم والعهد الجديد؟ ومن المعلوم أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه فهل يعطى هؤلاء الكفرة بكلام بني الإسلام كلامًا لا يؤمنون به، وهل يرشدون إلى عبادة إله هم تخلوا عن عبادته واتخذوا لهم إلهًا غيره؟ إذن إذا كان هؤلاء الرهبان قد علمَّوا محمدًا صلى

الله عليه وسلم فإنهم كانوا سيعلمونه بما هو عندهم من عبادة المسيح ولقال مثلهم بالثالوث المقدس عندهم. لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بما يتناقض مع ما عند هؤلاء، فإذا كان قد استمع لهم فقد سمع منهم قولًا لم يتقبله ولن يتقبله لأنه يتنافى مع الإعداد الإلهي الذي أُعُد له، وإذا كان قد تعلم منهم التوحيد فلِمَّ حاد النصارى عن هذا العلم الذي يعلمه علماؤهم ورهبانهم ودانوا بعبادتهم القائمة؟

وقال المشركون أنَّ غلامًا نصرانيًا اسمه (جبر)، وهو عبد لبعض بني الحضرمي، كان يقيم في صومعة عند المروة كان يعلم محمدًا، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يتردد عليه وهو الذي لقنه القرآن. وقالوا أيضًا أنَّ الذي علمَّه رجل أعجمي يُدعي (بلعام) كان كثير التردد عليه. فرد الله عليهم وعلى افترائهم بقوله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر. لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فكيف يؤتي لهؤلاء الأعاجم غير العرب الذين لا يتكلمون العربية ولا يفقهونها، كيف لهم أن يصيغوا هذه الآيات البينات التي تحدى القرآن فطاحل اللغة وجهابذة البيان من العرب أن يصوغوا بمثلها؟ (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تمُلى عليه بكرةً وأصيلًا. قال أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه وكان غفورًا رحيمًا). ولقد رد الله تعالى عليهم بقوله: (وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين).

ولمَّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إصرار أشراف مكة على الكفر وتصديهم لدعوته، وصدهم وفود القبائل عنه، واضطهادهم للفقراء من أتباعه والمستضعفين منهم، خرج إلى مدينة الطائف، ثاني مدن الحجاز الكبرى وتوأمة مكة، وهي تبعد عنها حوالي تسعون كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي منها. خرج إليها يلتمس الصنرة من سادتها من بني ثقيف وهوازن والمنعة بهم من قومه برجاء أن يفتح الله قلوبهم للإسلام. فخرج ومعه مولاه زيد بن حارثة ومكثا في الطائف عشرة أيام بعد رحلة شاقة على الأقدام، عبر وديان وجبال حالكة السواد. وما أن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حتى عمد إلى اشراف ثقيف بها

وهم إخوة ثلاثة: (عبد ياليل بن عمرو بن عمير) و (مسعود بن عمرو بن عمير) و (حبيب بن عمرو بن عمير)، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه؛ فقال له أحدهم: "أقسم بأن أنزع عن الكعبة ثيابها إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرُد عليك الثلادم، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

ولقد كانت لقريش تعاملات مالية وتجارية مع أهل الطائف، ولذلك كانوا حريصين على استمرار هذه العلاقات الطيبة معها، وقد استغل أثرياء قريش أموالهم في الطائف فاشتروا الراضي فيها وزرعوها واستثمروها، وبنوا لهم منازل للاصطياف فيها، وحاولوا جهدًا مكانهم ربط الطائف بمكة في كل شيء. وتمكن أثرياء قريش من التغلغل في الطائف وبسط سلطانهم عليها بإقراض سادتها الأموال بالربا وبشراء الرض بمساحات كبيرة فبسطوا بذلك سلطانهم عليها وأقاموا لهم بها مشروعات اقتصادية خاصة ومشتركة. وهكذا استغل أذكياء مكة هذا البلد الهام وحولوه إلى مكان في حكم التابع لسادات قريش. وقد كان أهل الطائف على الوثنية مثل قريش يعبدون اللات، فما كان لهم ان يخالفوا قريشًا في مجافاة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم قبولها لدعوته حين جاءهم راجيًا منهم القبول بعد أن لفظت قريش دعوته.

ولمَّا يئس رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ثقيف قام من عندهم، وقد قال لهم: "إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني"، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلُغ قومه رفضهم لدعوته فيثيرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا وأعزوا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى صيدقة لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة. وهما فيه. وقد رماه سفهاء القوم بالحجارة حتى إنَّ رجْلَيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدميان وزيد بن حارثة يقيه

بنفسه حتى لقد شُج في رأسه شجاج. فعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ظل شجرة عنب فجلس تحته، وابنا ربيعة ينظران إليه ويران ما لقى من سفهاء أهل الطائف.

وهنا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء يشكو حاله لربه وهو أعلم به، وهو في عينه، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يدعو ربه دعاءً ارتجت له السماوات والأرض، دعاء المؤمن الصابر المحتسب لله، الخائف أن يكون ما قد حل به قد حل بسبب سخط ربه أو غضبه عليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات الخالدات التي سجلها التاريخ بأحرف من نور، وشهدت على عظمة وقوة أعيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. دعا محمد ربه بقوله: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدوٍ بعيدٍ يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكتَّه أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، غير انَّ عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بيَّ غضبك أو يحل عليَّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك".

حين رأى إبنا ربيعة ذلك المشهد المؤثر، رقت قلوبهما القاسية على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغم ظلكة الكفر فيهما، فأرسلا إليه غلامًا نصرانيًا لهما يُدعى (عداس) بقطف عنب. فذهب إليه عداس به وأعطاه له وجلس إلى جواره يرقبه، فلمَّا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكل بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم"، نظر عداس في وجهه متعجبًا ثم قال: "والله إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ومن أين البلاد أنت، وما دينك؟". قال: "نصراني، وأنا من أهل نينوي" فقال له: "أنت من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى". فقال له عداس: "وما يدريك ما يونس بن متى؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذاك أخي كان نبيًا وأنا نبي". وما أن أكمل رسول الله قوله حتى أكبَّ عداس عليه يقبِل رأسه ويديه وقدميه. فلمَّا رجع عداس إلى أسياده تعجبوا من أمره وسألوه تفسير ما حدث

منه، فأخبرهم عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعن حقيقة نبوءته. لكن قوله لم يغير موقفهما من رسول الله ورسالته فظلا على كفرهما وجحودهما.

وعند انصراف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعًا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة، فلمَّا وصل إلى وادي نخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذي ذكرهم الله تعالى، وهم سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوته القرآن وهو يصلي به، فلمَّا من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقصى الله تعالى خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: (وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى: (ويحركم من عذاب أليم). وقوله تعالى: (قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا).

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: "كيف تدخل على قريش وهم أخرجوك؟"، فقال: "يا زيد إنَّ الله جاعلٌ لِما ترى فرجًا ومخرجًا، وغنٍّ الله ناصر دينه ومُظهر نبيه". ثم انتهى إلى حراء، فأرسل رجلًا من خزاعة إلى المطعم بن عدي طالبًا منه الدخول في جواره. فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه فقال: تلبسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني أجرتُ محمدًا". فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم على راحلته فنادى: "يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يهجْه أحد منكم"، فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده مطيفون به ومحيطين به بسلاحهم، ومن المعلوم أنَّ المطعم يومئذٍ لم يكن على الإسلام.

وفي طريقه تلك أرسل الله تعالى ملك الجبال إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يأمره بطاعته وتنفيذ ما يريد، وأن يُطبق على قومه أخشبيْ مكة، وهما جبلاها إن أراد، فقال: طلا، بل استأتي بهم، لعل الله يُخرج بين أصلابهم من يعبده لا يُشرك به شيئًا".

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة حزينًا أسفًا لما لاقاه من جحود أهل الطائف وقسوة قلوب أعيانها وقلة بصرة أهلها لعدم اغتنامهم فرصة إتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك يكون لهم التفوق والسيادة على غريمتهم مكة. ولو كانوا انتصروا لمحمد صلى الله عليه وسلم من قريش لصار لهم ما سوف يصير ليثرب من بعد من تحقيق السيادة والرئاسة على الحجاز وعلى كل الجزيرة العربية وعلى كل العالم فيما بعد. لقد كان أهل يثرب أذكى من أهل الطائف، وبالطبع أذكى من أهل مكة لأنَّ الله تعالى أنار بصيرتهم إلى الحق وأدركوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق دعواه ورسالته فاتبعوه ونصروه فكانت لهم الرئاسة في الدنيا والسعادة في الآخرة. وما أراد الله أن يكون فقد كان وهو يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

عاد محمد صلى الله عليه وسلم ليجد الشماتة واضحة في عيون أهل مكة ويجدهم متحفزين لمواصلة حرب واستمرار مخاصمتهم له ولدعوته. لم يسخط صلى الله عليه وسلم عليهم ولم يدع الله أن يسلط عليهم بلاءه ونعمته وعذابه، ولكنه طلب لهم الهداية والرشاد فأيًا كان الأمر فهم أهله، وهو أوفى الناس لأهله واشدهم في الحفاظ على صلة الرحم، فدعا لهم ربه قائلًا: "اللهم أهدى قومي فإنهم لا يعلمون". لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم عظيمًا في كل مواقفه، وكان صادقًا مع نفسه ومع ربه، واثقًا من تأييده له ونصرة دينه، وأنَّ هذا الليل الدامس لابد له من نهار تسطع فيه شمس الحق والإيمان.

ووسط سحابة الحزن والأسى التي مرت في سماء حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من الطائف، أراد الله تعالى أن يروِّح عن حبيبه ورسوله وأن يزيد من تثبيت عزيمته والتأكيد على تأييده ونصره فأراه من آياته الكبرى الشيء الكثير حين أهداه هدية الإسراء والمعراج؛ تلك الرحلة التي أسُرى به فيها بالجسد والروح من مكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس بفلسطين، ومن قبة الصخرة هناك إلى السماء العلا، إلى أقصى مكان وصله بشر عند سدرة المنتهى حيث يوجد البيت المعمور. وقد وقعت هذه الرحلة السماوية في الليلة السابعة

والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة إلى المدينة بعام. ولقد أورد القرآن الكريم قصة الإسراء في أول سورة من سوره تسمت باسمه، وذلك بقوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَّه م نآياتنا إنه هو السميع البصير). وهنالك في المسجد الأقصى أوجد الله تعالى لنبيه جميع أنبيائه في تانتظار تشريفه، فصلى بهم جميعًا، ثم صعد به جبريل إلى السماء، وقد سبقه الأنبياء إلى السماوات السبع في كل سماء تواجد نبي في انتظاره يحتفي بمقدمه حتى وصل إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى حيث تواحد فيها نبي الله موسى عليه السلام، كليم الله. وهنالك، بعد مكالمات مع موسى فرُضت الصلاة اليومية على المسلمين، وكانت قد فُرضت خمسون صلاة في اليوم والليلة أخُتصرت إلى خمسة تخفيفًا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فهي خمسةٌ في الصل وخمسون في الأجرَّ تكريمًا من الله لأمة حبيبه ومصطفاه، وأعلمه جبريل بكيفية أدائها، كما عرَّفه بمواقيتها. ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة معراجه إلى السماء من آيات الله الكبرى صورًا من الجنة وصورًا من النار، فقد أدار الله له الزمن وأراه ما سوف يحدث بعد البعث، والله على كل شيء قدير. وقد تحدثت سورة (النجم) عن المعراج وعمَّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناءه في قوله تعالى: (ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى. وقد رآه نزلة أخر عند سدرة المنتهى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

ولمَّا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قوريشًا، في صباح ليلة الإسراء والمعراج، بما رأى لم يصدقوه وأنكروا فضل ربه عليه، وكانت المادة هي الغالبة على تفكيرهم وسلوكهم، إلا أبو بكر فكان من المصدقين لرواية رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحق آنذاك لقب (الصديق) الذي صار يُعرف به فيما بعد وقد نعته به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أرتد بعض أهل قريش عن إسلامهم حين لم يصدقوا هذه الرواية فنزل فيهم قوله تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما نريدهم إلا طغيانًا كبيرًا).

٧- فجر يومٍ جديد

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيًا، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، يُوافِي المواسم كل عام يتَّبعَ الحاج في منازلهم في المواسم في أسواق عكاظ ومجنَّه وضي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يُبلغ رسالات ربه واعدًا إياهم بالجنة، فلا يجد أحدًا ينصره ولا يجيبه، حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذِلَ لكم العجم، وإذا أنتم كنتم ملوكاً في الجنة". وأبو لهب وراءه يقول: "لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب"، فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقوله له: "إنَّ أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك". ويكلمونه ويحادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: "اللهم لو شئتَ لم يكونوا هكذا". فكان من القبائل الذين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خَصَفَة، وفزارة، وغسان، ومُرة، وحفيفة، وسُليم، وعبْس، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد. ولم ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمر في عرض نفسه على كل قادم إلى مكة من العرب له إسم وشرف، فسددوا آذانهم لدعوته فصموا وعموا. وقد حاولت بعض القبائل أن تساومه على أن تكون السيادة لها على العرب إنْ هو انتصر بهم، ولكنه لم يستجب لمساومتهم التي تبحث عن المصلحة المادية فقط ولم يكن لديها الباعث الإيماني والروحي لتصديق دعوته، فانصرفوا عنه وانصرف عنهم غير آسف عليهم.

قال ابن إسحاق: "حدثَني الزهري أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني عامر بن صعصعة، فمن أتى من القبائل يدعوها إلى الله، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يُقالَ له (بيحرة بن فراس): "والله لو أني أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب"، ثم قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمْرِ من بعدك؟" قال: "الأمر لله يضعه حيث يشاء"،

قال: "أفتهُدفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك"، فأبوا عليه.

وفي ذلك الوقت تطلعت عيني محمد صلى الله عليه وسلم إلى ملاذ آخر يبعيد شمال غربي مكة بنحو ثلثمائة ميل، وكان هذا الملاذ هو مدينة (يثرب)، وسأل الله تعالى أن يجعل له النصرة ولدينه على يد أهل هذه المدينة. ويثرب، مدينة قديمة ورد ذكرها في التوراة بهذا الاسم الذي عُرفت به في الجاهلية، وقيل أنه نسبةً إلى يثرب، أحد أحفاد سام بن نوح عليه السلام. ويذكر بعض أهل الأخبار أنَّ أقدم مَنْ سكن يثرب في التاريخ القديم قومٌ يُقال لهم (فالج)، ثم سكنها (العماليق)، ثم سكن اليهود يف مواضع العماليق بعد أن أجلوهم عنها، ونزل على اليهود بعض قبائل العرب اليمنية وسكنوا معهم، وكانوا من الأوس والخزرج، وهم أخر هذه القبائل قدومًا عليها على أثر حادث سيل العِرِم وانهيار سد مأرب. وكان اليهود قوةً في يثرب، يزرعون الأرض ويمتلكون النخيل ويجمعون الأموال ويتعاملون بالربا، فمكث الأوس والخزرج معهم أمدًا وعقدوا معهم حلفًا وجوارًا يأمن به بعضهم بعضًا ويمتنعون به عمن سواهم: فلم يزالوا على ذلك زمنًا طويلًا حتى نقض اليهود هذا الحلف والجوار وتسلطت وحدها على يثرب واضطهدت العرب. فاستعان الأوس والخزرج بقبائل عربية أخرى على اليهود فغلبوهم، فصارت الغلبة لعرب الأوس والخزرج على المدينة بعد ذلك.

وكان أهل يثرب، مثل غيرهم من سائر العرب في الجاهلية، مشركين متخذين لهم أصنامًا اتخذوا لها بيوتًا يتقربون إليها فيها، وكان معبودهم الأكبر (منات)، كانوا يحجون إليه كما كانت لهم محجات إلى أماكن كانت على مسافة من مدينتهم بها أصنام كانوا يعبدونها ويقدمون لها القرابين، وتنقسم يثرب إلى شعِاب، تسكن بطون الأوس في عدد منها، كذلك بطون الخزرج، واليهود. وفي تلك الشعاب دور مبنية بالآجر واللبن، وبعضها يتكون من طابقين. وفي المدينة بساتين صغير وبها آبار يسقون منها ويشربون. وقد احتفر اليهود بعض تلك الآبار وتملكوها وكانوا يبيعون ماءها بالدلاء لمن يريد. ومن آبارها المشهورة: بئر أدومة،

التي كانت ملكًا لأحد اليهود واشتراها عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وجعلها سبيلًا للمسلمين. وهنالك بئر ذروان، وغيرها. والطبيعة حول يثرب طبيعة قاسية، فالوديان والجبال الصماء تحيط بها من جهاتها الأربع، ففي شمالها يقع جبل أُحد الشهير، ثم جبل سلع ووادي بطحان ووادي رانوناء، وفي الجنوب الشرقي وادي مهزور ووادي مذينب، وفي الجنوب الغربي يقع جبل (عير) الذي يمتد إلى يساره وادي العقيق. ولم يكن ليثرب سور يحيط بها ولا حصون تحميها، وكان عماد أهلها التحصن في بيوتهم وسد منافذ الطرق وقت الخطر. وقد كانت لأغنياء العرب واليهود بالمدينة قصورهم وحصونهم يتحصنون بها من العدو، وقد عُرضت هذه الحصون باسم (آآطام)، وهي جمع: أطم، والأطم في اللغة هو الحصن المبني بالحجر أو القصر.

وينتسب عرب الأوس إلى أوس بن حارثة بن ثعلبة الأزدي، جدهم الأكبر، وهم ينقسمون إلى بطون، منهم بطون: عوف، والبنيت، وجُشم، ومُرة، وامرؤ القيس، ومنهم أحد أسيادهم الشاعر الجاهلي: (أحيحة بن الجلاح بن الحريش). وأمَّا الخزرج منهم في عُرف النسابين إخوة للأوس، وهم ينتسبون إلى جدهم الخزرج بن حارثة بن ثعلبة الأزدي، شقيق أوس بن حارثة الأزدي، ومن ساداتهم عند ظهور الإسلام: سعد بن معاذ، وأسيد بن حُضير، وينقسم الخزرج أيضًا إلى بطون منهم بطون: بني النجار، أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنو الحارث، وبنو كعب.

وبالرغم من صلة الرحم القريب التي كانت بين الأوس والخزرج، فقد وقعت بينهما حروب في الجاهلية هلك فيها من الطرفين خلق كثير. وقد كان اليهود يشعلون نار هذه الحروب حتى يضعف الطرفان لصالحهم وأول حرب وقعت بينهما، على رواية الأخباريين: حرب سمير، ثم حرب سميحة، ثم حرب يوم السرارة، على التوالي. وكان (يوم بُعاث) أشد هذه الحروب وآخرها، وقد وقعت على أرض بُعاث على مسيرة يومين من المدينة، في سنة ٦١٧ للميلادز وقد ساعدت بعض القبائل كلا الطرفين في هذه الحرب. فقد ساعدت أشَجع بن غطفان وجهينة

بن قضاعة الخزرج يوم بعثا، وساعدت مزينة وقريظة والنضر الأوس في هذه الحرب مما أدى إلى انتصارها على الخزرج الذين لم يستسلموا وبأتوا يعدون العدة للثأر.

واليهود الذين سكنوا يثرب، كانوا قد وفدوا إليها من فلسطين، خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، هربًا من بطش الرومان بهم، بعد أن أجلاهم الإمبراطور الروماني (تيتوس) سنة ٧٠ ميلادية عن فلسطين، بعد أم دمر مدينتهم أورشليم القدس وأحرق هيكلهم المقدس فيها، كذلك بعد قضاء الإمبراطور الروماني (هادريانوس) على من تبقى منهم في مدن فلسطين سنة ١٣٥ للميلاد.

وكان ضمن الهاربين إلى جزيرة العرب من اليهود سكنوا يثرب ثلاث قبائل، هي: بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة، وقد استقرت هذه القبائل في يثرب بعد إجلائهم العماليق عنها. وقد سكن اليهود من بني قينقاع وادي بطحان بداخل المدينة، وسكن يهود بني النضير منطقة العوالي على وادي مذينب جنوب شرقي المدينة، وسكن بنو قريظة وادي مهزور. وقد انتقى اليهود الأراضي الخصبة من يثرب وسكنوا فيها وعملوا على زراعتها وبخاصة زراعة النخيل. وقد قام اليهود ببناء حصون وقلاع لهم في مواطنهم بالمدينة وخارجها لحمايتهم، على عادتهم في بناء أي (جيتو) لهم في أي موقع ينزلون فيه، ومن ذهه الحصون: حصن أوطاس، وفي منطقة خيبر، خارج المدينة: حصن ناعم وحصن القموص.

وكان أهل يثرب يفدون إلى مكة مع منْ يغدو إليها من التجار والحجيج، وبخاصة في موسم الحج؛ فتحدث محمد معهم، كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة من القبائل يدعوهم إلى الإسلام، وقد التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذا الوفد الذي جاء للتجارة، عند العقبة. وفي هذه المرة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضالته في هذا الوفد، ووجد من يستمع لكلامه وآذانًا صاغية من أهل هذه المدينة التي قدر الله لها أن تلعب دورًا هامًا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة الدولة الإسلامية. هذه المدينة التي سوف يتغير اسمها من يثرب إلى طيبة إلى المدينة المنورة لماَ كان لها من دورٍ عظيم في الإسلام وقيام دولته.

وكانت لمحمد صلى الله عليه وسلم علاقة خاصة بيثرب، فأبيه قد مات ودُفن هناك بين أخواله من بني النجار من الخزرج، وأمه كانت قد أخذته إلى هناك وهو طفل صغير لزياره أخواله وماتت وهي في طريق عودتها منها إلى مكة في منطقة الأبواء.

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم من وفد يثرب مدى العداوة الواقعة في مدينتهم بين الأوس والخزرج وتربص اليهود بهما وسخريتهم منهما ووعيدهم لهما بمقدم رسول منهم، هو رسول آخر الزمان، تكون نهايتهما على يديه قبل نهاية عادٍ وإرم.

وكان (سويد بن الصامت)، أخو بني عمرو بن عوف من الأوس، أول من استجاب لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم من أهل يثرب، وكان قوم سويد يسمونه بالكامل، وذلك لكمال نسبه وشرفه وأدبه وشعره. وقد قدم يومًا مكة فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين سمع بمقدمه، ودعاه إلى الإسلام، ودارت بينهما محاورة انتهت بدخول سويد في الإسلام.

وروى ابن غسحاق عن إسلام سويد، قوله أنه جاء مكة في الموسم حاجًا أو معتمرًا فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك؟ قال: كجاة لقمان، يعني حكمة لقمان، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعرضها عليَّ، فعرضها عليه، فقال له: إنَّ هذا كلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليَّ، هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إنَّ هذا القول حسن، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإذا كان رجال من قومه ليوقلون: إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بُعاث.

ولمَّا أراد الله عز وجل أن يُظهر دينه وأن يعز نبيه وينجزه له وعده، خرج محمد صلى الله عليه وسلم، كعادته، يعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فألتقى هذه المرة، عند مكان يبعد ميلين عن مكة بينها وبين مِنى، يعُرف (بالعقبة) بستة نفر من أهل

يثرب من الخزرج ، أراد الله بهم خيرًا، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وهم: (أبو أمامة أسعد بن زرارة) و (عوف بن الحارث بن رفاعة) و (رافع بن مالك بن زريق) و (عقبة بن عامر بن حرام) و (قحطبة بن عامر، من بني سلمة) و (جابر بن عبدالله بن رئاب السلمي)، ومِن المحدثِين منْ يُسقط جابر ويضع مكانه (عبادة بن الصامت). وقد قال بعضهم لبعض: "يا قوم، إنكم والله لتعلمون أنه النبي الحق الذي توعدكم به يهود، فلا تضيعوا الفرصة من أيديكم ولا يسبقوكم إليه". فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وصدَّقوا دعوته وقبلوا الدخول في الإسلام على يديه. وبعد أن نطقوا أمامه بالشهادتين وأظهروا إسلامهم له، قالوا له: "يا رسول الله، إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ فعسى أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك". ثم اصنرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى مدينتهم يضيء قلوبهم نور الإسلام منشرحة صدورهم بعد أن واعدوا خير الأنام وقبل أن ينصرف هؤلاء النفر تواعدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يلتقوا به في مكة العام القادم.

ولمَّا عاد هؤلاء الرجال السابقون إلى الإسلام والمبايعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومهم وجدوهم على خلاف ما ذهبوا به؛ وجدوا السماحة على وجوههم والبشر على ميحاهم والأمان في عيونهم. فسألوهم عن خبرهم وسر التغير الذي طرأ عليهم، فذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان لهم معه ووعدهم إلى الدين الجديد الذي اعتنقوه، ففشى أمرهم في يثرب، ولم تبق دار من دورها إلا وفيها ذكر محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي العام التالي (٦٢١ ميلادية). وافى الموسم في مكة من أهل يثرب اثنا عشر رجلًا فالتقوا برسول الله عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وكان بين هؤلاء عشرة رجال من الخزرج واثنان من الأوس، وكان بينهم الستة رجال المبايعون الأوُل، عدا جابر السلمي. وقد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفُرض عليهم الحرب. وكان نص البيعة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم على: "ألا يشركوا بالله شيئًا، وألَّا

يسرقوا، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصون الله في معروف". وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذَّب وإن شاء غفر".

فلمَّا انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم (مصعب بن عيمر) وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين فكان يسمى (المقرئ) بالمدينة، وكان نزوله على أبى أمامة أسعد بن زرارة. وكان يصلى بهم، وذلك لأنَّ الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. وقد أسلم على يد مصعب خلق كثير من أهل المدينة الذين باتوا يعرفون (بالأنصار)، وهي تيمة جديدة صارت لهم بعد نصرهم للنبي ودخولهم في الإسلام. وقد أسلم كبار قوم المدينة وسيدان من سادتهما وهما: (سعد بن معاذ) و (أسيد بن حضير) وأسلم بإسلامهما جميع قومهم من بني الأشهل في يوم واحد رجالًا ونساءً.

قال ابن إسحاق: ثم إنَّ مصعب بن عمير رجع إلى مكة بعد ذلك بعام (سنة ٦٢٢ ميلادية)، وخرج عدد ممن أسلم من أهل المدينة في الموسم مع حجاج قومهم الذين لم يسلموا حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة أوسط أيام التشريف من شهر ذي الحجة، حين أراد الله من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله. وتم اللقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك، وكان عدد المجتمعين به ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان من نسائهم لمبايعته. وكانت إحدى الأمراتين هي (أم عمارة، نسيبة بنت كعب الأنصارية، من نساء بني مازن من بني النجار). وكانت الثانية (أم منيه، أسماء بنت عمرو بن عدي من بني سلمة من بني النجار)، وكان عدد الأوس من بينهم أحد عشر رجلًا وعدد الخزرج اثنان وستون رجلًا.

واجتمعوا في الشعب وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له. فلمَّا جلس كان العباس أول المتكلمين فقال: "يا معشر الخزرج لو وكانت العرب تسمى أهل يثرب

جميعاً الخزرج: خزرجها وأوسها، إنَّ محمدًا منَّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذوله بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده". فقالوا له: "قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت".

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلا عليهم القرآن، ودعا إلى الله ورغبَّ في الإسلام، ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق، فأخذ بيده وقال: "نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر".

ويقال إنَّ أبا الهيثم بن التيهِّان كان أول من تكلم فأجاب إلأى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدَّقه، وقال: "يا رسول الله إنَّ بيننا وبين الرجال جبالًا، وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرط الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟" فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم". فتكلم البراء بن معرور، ثم قال: "ابسط يدك يا رسول الله نبايعك"، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، فكان البراء أول من ضرب على يده صلى الله عليه وسلم، ويقال أول من ضرب على يده أبو الهيثم بن التيهان، ويُقال أسعد بن زرارة، ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ موسى أخذ من بني إسرائيل اثنْى عشَر نقيبًا، فلا يجدنَّ منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيُره فإنما يختار لي جبريل"، فلمَّا تخيرهم قال للنقباء: "أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي"، قالوا: "نعم".

وتعُرف هذه البيعة (ببيعة الحرب)، وقد كان من بين النقباء وتسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، هم من الخزرج: أسعد بن زرارة، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو. ومن الأوس: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد، وقيل أبو الهيثم بن التيهان مكانه.

فلما بايع القوم صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوتٍ سُمع: "يا أهل الأخاشب (المنازل)، هل لكم في مُذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا أندب العقبة (اسم شيطان)، هذا ابن أزُيب"، فقال لهم" "انفضوا إلى رحالكم"، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: "والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لتميلن على أهل مني غدًا بأسيافنا" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم"، فتفرقوا إلى رحالهم، ورجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى الصباح.

وفي الصباح جاء عدد كبير من أهل قريش إلى منازل الأنصار ليتبينوا حقيقة ما وصلهم بشأن إسلامهم وإتابعهم لدين محمد صلى الله عليه وسلم. ولمَّا تيقنوا من حقيقة الخبر حاووا أن يرجعوهم عما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم دون جدوى، وسارع الأنصار بالعودة إلى مدينتهم، هربًا بدينهم، وخرج القرشيون في طلبهم، فنجح معظمهم في الإفلات إلا اثنان من النقباء، هما: سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فقاتل المنذر القوم حتى غلبهم ونجا بنفسه، أما سعد فنجحوا في أسره، فقاموا بربط يديه إلى عنقه بحبل راحلته، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويشدونه من شعره، وكان غزير الشعر. وكان سعيد قد أجار (جبير بن المطعم بن عدي) و (الحارث بن حرب بن أمية) حين خرجا في تجارة إلى المدينة؛ فلمَّا وصل مكة هتف باسمهما وذكر ما بينه وبينهما، فخرجا له وكانا في المسجد عند الكعبة، فقاما بتخليصه من يد آسريه وأطلقوا سراحه؛ ففر هاربًا ناجيًا بنفسه وبدينه ليلحق بقومه المسلمين إلى المدينة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل بيعة العقبة، لم يُؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، وإنما يؤمر بالدعاء إلأى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هاربٍ في البلاد فرارًا منهم، منهم مَنْ بأَرض الحبشة ومنهم مَنْ بالمدينة وفي كل وجه. فلمَّا عتت قريش على الله عز وجل وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم، وعذبوا ونفوا مَنْ عَبَدَهُ وصدَّق نبيه واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغي عليهم. فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله الدماء والقتال لمن بِغى عليهم، قول الله تبارك وتعالى: (أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلِموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله منَ ينصره إنَّ الله لقوي عزيز) [الحج: ٣٩، ٤٠].

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) [الأنفال: ٣٩].

قال ابن إسحاق: فلمَّا أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب، وبايعه هذا الحر من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار. وقال: "إنَّ الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها". فخرجوا جماعة وراء جماعة، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

وكان عدد أول المهاجرين إلى المدينة حوالي سبعون، كان من بينهم من بني مخزوم: (أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال، واسمه عبد الله)، ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أول من هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بعام، وكان قد قدم من الحبشة، فلمَّا أذته

قريش قرر الهجرة إلى المدينة ولحقت به، بعد ذلك، زوجه أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد، ومعها طفلها سلَمة تحمله. وهاجر (عامر بن ربيعة)، حليف بني عدي بن كعب، ومعه امرأته (ليلى بنت أبي حثمة بن غانم)، ثم هاجر (عبد الله بن جحش بن رئاب)، حليف بني أمية ومعه زوجته وأخيه (عيد بن جحش)، وكان رجلًا ضرير البصر، ومن نسائهم (زينب بنت جحش) و (حمنة بنت جحش). ثم هاجر (عمر بن الخطاب) مجاهرًا بهجرته مع (عياش بن أبي ربيعة المخزومي)، ولحق بهما (زيد بن الخطاب)، أخو عمر. ثم هاجر (طلحة بن عبد الله) و (صهيب الرومي)، و (حمزة بن عبد المطلب)، و (زيد بن حارثة)، و (عبد الرحمن بن عوف)، و (الزبير بن العوام)، و (مصعب بن عمير)، و (عتبة بن غزوان)، و (عثمان بن عفان)، رضيي الله عنهم أجمعين. وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، أو مفتون محبوس أو مريض، أو ضعيف عن الخروج.

ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب وصهره خنيس بن خوافة السهمي زوج ابنته حفصة على رفاعة بن عبد المنذر في بني عمرو بن عوف بقباء، ونزل معهم عند عياش بن أبي ربيعة. ونزل طلحة بن عبد الله وصهيب بن سنان الرومي على خبيب بن أخي بلحارث بن الخزرج (بالسنح)، وهي عوالي المدينة. ويُقال بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة، أخي بني النجار.

ولقد ورد أن صهيبًا الرومي حين أراد الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوقًا حقيرًا، فكثُر مالك عندنا وبلغتَ الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إنْ جعلتُ لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ربُح صهيب، ربُح صهيب.

ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة على أبي مرثد كناز بن حصن. ونزل أبو مسروح وأبو لبشة موليًا رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن هدم، أخي بين عمرو

بن عوف بقباء. ونزل عُبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطفيل بن الحارث والحصين بن الحارث وخباب بن الأرت على عبد الله بن سلمة بقباء. ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع، في دار بلحارث بن الخزرج. ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبى رُهم، على منذر بن محمد بالعُصبة. ونزل مصعب بن عمير على علي بن سعد بن معاذ، أخى بني عبد الدار، في دار بني عبد الأشهل. ونزل عقبة بن غزوان على عياد بن بشر أخى بني عبد الأشهل في دار عبد الأشهل. ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخى حسان بن ثابت في دار بني النجار.

٨- الهجرة إلى المدينة المنورة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أن هاجر أصحابه ومعظم أتباعه ينتظر إذن الله له بالهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحدُ من المهاجرين، إلا منْ حبُس أوفُينَ وقد استبقى معه ابن عمه على بن أبي طالب ليرد للناس ما عنده من أمانات بعد أن يهاجر، وأبا بكر الصديق ليكون صاحبَه في الهجرة. وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، فكان يقول له: "لا تعجل يا أبا بكر لعل الله يجعل لك صاحبًا"، فطمع أبو بكر في أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبَه في هجرته، لذلك أعد أبو بكر للأمر عدته فاشترى راحلتين قويتين فتيتين بثمنمائة درهم واحتبسهما في داره يعلفهما إعدادًا لسفر الهجرة. ولمَّا رأى المشركون أنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حملوا الذراري والأطفال إلى الأوس والخزرج بيثرب، عرفوا أنها دار مَنعةٍ وقوم أهل حلقة وبأس، فخافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وعرفوا أنهم قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله، حين خافوه، وكان اليوم الذي اجتمعوا فيه يُعرف عندهم (بيوم الرحمة)، وحضرهم إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد عليه كساء غليظ، فوقف على باب الدار، فلمَّا رأوه واقفًا على بابها قالوا: "مَنْ الشيخ؟" قال: "شيخ من أهل نجد سمع بالذي

اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدنكم منه رأيًا ونصحًا"، قالوا: "أجل، فادخل" فدخل معهم. وقد قال إبليس أنه من أهل نجد، فيما ذكر لبعض أهل السيرة، لأنهم قالوا: لا يدخل معكم في المشاورة أحدٌ من أهل تهامة لأنَّ هواهم مع محمد، فلذلك تمثل لهم في صوت شيخ نجدي. وقد اجتمع في الدار أشراف قريش؛ من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب. ومن بني نوفل بن عبد مناف" طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بني سهم: بنيه ومنبه إبنا الحجاج. ومن بني جمُح: أمية بن خلف، ومَنْ كان معهم وغيرهم ممن لا يُعد من قريش. فقال بعضهم لبعض: إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنَّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد إتبعه من غيرنا، فأجمِعُوا فيه رأيًا، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: احبسوهه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله، زُهيرًا والنابغة، ومَنْ مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرُجَن أمُره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى اصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره، فتشاوروا. ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخُرج عنَّا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فاصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، وبِروا فيه رأيًا غير هذا. فقال أبو جهل: والله إنَّ لي فيه لرأيًا ما أراكم

وقعتم عليه بعد؛ قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتي منهم سيفًا صارمًا، ثم يعدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجُمعِن له.

أشار عليهم إبليس بقتل محمد صلى الله عليه وسلم متممًا لرأي أبي جهل، وهو يعلم أنَّ ذلك لن يحدث لأنه يعلم بأن الله حافظُه وحاميه، وافقهم إبليس اللعين على القتل حتى يورطهم أكثر في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزدادوا بذلك طغيانًا وكفرًا وليتبأوا مقعدهم من النار إلى جانب مقعده، هم ومن تبعهم من بقية رجال القبائل المتواطئة معهم.

ولقد اختار المشركون، لتنفيذ خطتهم الشيطانية، للخلاص من رسول الله الليلة التي اختارها الله تعالى لتكون ليلة الهجرة إلى المدينة، فجاءت قريش بشبابها وشباب القبائل وأعطتهم السيوف الحادة لينفذوا ما خططوا له. ووقف ذلك الشاب أمام باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووقف معهم أبو جهل، تأكيدًا لتنفيذ المهمة، وقال لهوهم على بابه: إنَّ محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم خبان كخبان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم مِ، بعد موتكم، ثم جُ ُلت لكم نارٌ تُحرقون بها.

وأتى جبريل، عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، وأن يُحل مكانه على فراشه عليًا بن أبي طالب وأن يتسجى ببرده الحضرمي الأخضر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في بُرده ذلك إذا نام. وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم وقوف أمام الباب، فأخذ حفنةً من تراب في يده ونثرها في وجوههم وهو يتلو من سورة ياسين قوله تعالى: (ياسين والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيلُ العزيز الرحيم. لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم منهم غافلون. لقد حقَّ القولُ على

أكثرهم منهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مُقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يُبصرون). حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، إلى منزل أبي بكر الصديق.

ولمَّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المشركين آتٍ لم يكن معهم فأيقظهم من نومهم وسألهم: "ما تنتظرون هاهنا؟"، قالوا: "محمدًا". قال: "خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟". فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم أخذوا ينظرون مِ، شق الباب فيروْن عليًا متسجيًا ببُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إنَّ هذا لمحمد نائمًا عليه بُرُده. وظلوا على هذا الحال حتى الصباح، وحين نهض عليٌ مِن على الفراش تأكدوا مِن صدِق محدثهم وفشل مسعاهم.

ونزل في هذا الحِفظ الذي حفظ الله به رسوله من تربص المشركين وكيدهم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقوله تعالى: (أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإني معكم من المتربصين). ولقد حفظ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأخرى القوم الكافرين، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وأذِن الله تعالى لنبيه بالهجرة رغم أنف المشركين.

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أبي بكر الصديق بالهاجرة سرًا، في ساعةٍ كانت لا يأتي فيها بيت أبي بكر أحد طرفيْ النهار إما بُكرة" وإما عشية. فلَّما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمرٍ حدث. فلَّما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبي بكر إلا إبنتيه عائشة وأسماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخَرج عني مَنْ عندِك"، فقال أبو بكر: "يا رسول الله

إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي". فقال: "إنَّ الله قد أذِن لي في الخروج والهجرة" فقال أبو بكر:

****

جزء في الصفحة الخلفية غير واضح أين مكان كتابته

****

فقال له أصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد. فسمع النبي قوله فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فسمَّت النبي عليهن وفرض جزاءَهن وافدون في حرم الله.

نص ابن سعد: "وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزل أبي بكر فكان فيه إلى الليل ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه، وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضُها على بعض، وطلبت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدَّ الطلب حتى انتهوا غلى باب الغار، فقال بعضهُم: إنْ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد فانصرفوا. أخبرنا مسلم بن إبراهيم حدثنا غون بن عمرو القيسي – حدثنا أبو مصعب المكي قال: "أدركتُ زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسترته وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجه فسترته وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار. وأقبل فتيان قريش بأسيافهم وعصيهم حتى إذا كانوا من النبي قدر أربعين ذراعًا نظر أوله فرأي الحمامتين فرجع

****

"الصُحبة يا رسول الله". قال: "الصحبة". فبكى أبو بكر من الفرح قالت السيدة عائشة رضي اله عنها: "فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أنَّ أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذٍ"، ثم قال: "يا بني الله إنَّ هاتين راملتان قد كنت أعددتهما لهذا"، فاستأجرا رجلًا من بني

بكر، خبير بالطريق بين مكة والمدينة، يدُعي (عبد الله بن أريقط الليثي)، وقد كان على الشِرك، ليدلهما على الطريق ويقود راحلتِهما.

ولم يعلم بأمر الهجرة سوى أبو بكر الصديق وأهله وعلي بن أبي طالب، وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من عليٍّ أن يلحق به بعد أن يؤدي للناس أماناتهم، ولم يكن عند أحد بمكة شيء يخشى عليه إلا وضعه أمانةً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لمِا عرفوه عنه مِنْ صدق وأمانة. ولجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحيلة وهو في طريق هجرته، فاختبأ هو والصديق في غار ثور الذي يقع في جنوب المدينة بينما هو يقصد شمالها، واستخدم وليلًا مشركًا بالأجر هو عبد الله بن أريقط.

فلمّا أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج، بعد أن بقي في منزل أبي بكر إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه، بعد أن بقي في منزل أبي بكر إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه، وهو غار بجبل ثور الذي يقع على مسيرة يوم بجنوبي مكة، وهو جبل أصم وعر، فدخلا فيه يترقبان، من داخله، رد فعل قريش، وضربت العنكبوت على بابه بعِشاش بعضها على بعض بأمر من الله، كما أمُرت حمامتان وحشيتان بالوقوع بفم الغار. وكان العنكبوت والحمامتان من جنود الله التي حفظت نبيه وحمته من كيد أعدائه الكافرين(*). وكان أبو بكر قد أرسل إبنه عبد الله أن يتسمع لهما الأخبار في نهاره، ثم يأتيهما في المساء بما عنده منها. وأمر (عامر بن فهيرة)، مولاه، أن يرعى غنمه في نهاره، ثم يأتيهما ثم يأتيهما إذا أمسي في الغار، مع أسماء بنت أبي بكر بالطعام والشراب. وطلب أبو بكر من ابن أريقط أن يرعي الناقتين ويأتي بهما إلى الغار بعد ثلاث ليال.

****

الهامش:

* لو يورد ابن هشام في سيرته قصة العنكبوت واليمامة، بينما ذكر ابن سعد في طبقاته أمر العنكبوت واليمامتين والحمامتين الوحشيتين)، ط، ص ١٥٤

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه، على هذا الحال، في الغار ثلاثة أيام مستخفين من قريش، التي حين علمت أمر خروجه وهجرته، قامت بمطاردته ورصدت مائة ناقة لمن يعثر عليه ويستدل على مكانه ويعيده إليهم.

وأقبل فتيان قريش، مِن كل بطنٍ رجل، بأسيافهم وعصيهم وهواواتهم حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم قدرَ أربعين ذراعًا. نظر أولُهم فرأى الحمامتين فرجع، فقال له اصحابه: مالك لم تنظر في الغار؟ قال: رأيتُ حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفتُ أنْ ليس فيه أحد. فسمع النبي صلى الله عليه وسلم قوله فعرف أنَّ الله قد درأ عنه بهما. وكان الخوف قد تملك قلب أبو بكر، إلا على نفسه، ولكن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: "لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئنًا: "لا تحزن. . إنَّ الله معنا". ولقد سجل الله تعالى هذا الحفظ العظيم من الله تعالى لنبيه وتلك العناية التي خصه بها، في كتابه الكريم حيث قال: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم).

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام وعبد الله تحرسهما وترعاهما وجنود الله تحيط بهما ساهرة عيونهم عليهم، وأبو بكر يتحسس النبي حريص على ألا يصيبه اذى حشرة أو أفعى من داخل شقوق الغار، وألا يتنبه المشركون إلى مكانه. ولقد تحول الغار المظلم المهجور إلى روضة من رياض الجنة يشع فيها نور رسول الله ونور ملائكة الرحمن وتردد في جنباته نغمات تسبيح الله وذكره وتلاوة القرآن.

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة جاء ابن أريقط بالراحلتين إليهما وراحلةٌ له، واتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتهما وبها الزاد الذي يتزودان به في الطريق في هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي يقطعونها المسافرون بين مكة والمدينة وهي قرابة الأربعمائة وخمسين كيلو متر في طريق غير ممهدِ ولا مألوف، وأرادت اسماء أن تربط سفرة الطعام وسفرة الماء ولم تجد ما تعلقهما

به فشقت نطاقها إلى اثنتين فعلقت السفرة بنطاق وانقطعت الآخر، وعُرضت لذلك: بذات النطاقين.

قال ابن إسحاق: فلمَّا قرَّب أبو بكر، رضي الله عنه، الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدَّم له أفضلهما، ثم قال: أركب، فداك أبي وأمي؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لا أركب بعيرًا ليس لي؛ قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال: لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، فقال: قد أخذتها به؛ قال: هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا، وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه، ليخدمهما في الطريق.

ويواصل ابن إسحاق رواية الهجرة بحديثه عن أسماء بنت أبو بكر أنها قالت: "لمَّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبو بكر؟ قالت، قلت: لا أدرى والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال وما ندري أين وُجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب؛ وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعل مكة وهو يقول:

جزّى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلا خيمتيْ أم معبد(*)

هما نزلا بالبر ثم تروَّحا

فأفلح مَنْ أمسى رفيق محمدِ

قالت أسماء: فلَّما سمعنا قوله، عرفنا حيث توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه توجه إلى المدينة، ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة، مولي أبي بكر، وعبد الله بن أريقط وليلهما".

وأورد ابن سعد عن أبي معبد الخزاعي: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا هاجر من مكة إلى المدينة هو وصحبه، مروا بخيمتيْ أم معبد بنت كعب الخُزاعية، وكانت امرأة جَلْدة (صَلبة وقوية) بَرْزَه (تركت الحجاب وجالست الناس) تحتبي وتقعد بفناء الخيمة، ثم تسقي وتُطعِم، فسألوها تمرًا أو لحمًا يشترون، فلم يعيبوا عندها شيئًا من ذلك، وإذا القوم مزيلون مُسنتون (ليس عندهم شيء) فقالت: والله لو كان عندنا شيءٌ ما أعوزكم القِرى (ما يقَدم إلى الضيف)، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كِسْر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: هذه شاةٌ خلَّفها الجَهْدُ عن الغنم، فقال: هل بها مِن لبنٍ؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين لي أن أحلُبها؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي، إنْ رأيتَ بها حَلَبًا! فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال: اللهم بارك لها في شاتها. فتفاجَتْ ودرَّت واجترت، فدعا بإناء لها، فحلسب فيه سيْلًا حتى غلَبه الثُمال (الرغوة)، فسقاها فشربت حتى رَويت وسقى اصحابه حتى رووا، وشرب صلى الله عليه وسلم آخِرهم، وقال: ساقوي القوم آخِرُهم. فشربوا جميعًا حتى شبعوا، ثم حلب فيه ثانيةً فغادره عندها، ثم ارتحلوا عنها. وجاء بعد قليل أبو معبد يسوق أعنزًا ضعافًا عِجافًا، فلَّما رأى اللبن تعجب، وقال: من أين لكم هذا والشاة عازبةٌ ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك كان من حديث كيْت وكيت. قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي يُطلَب،

الهامش

****

* لو يورد ابن هشام قصة أم معبد وأورد الشعر عن غير ابن إسحاق ولم يورد وضعها لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

****

صفية لي يا أم معبد، قالت: رأيتُ رجلًا طاهَر الوضاءة، متبلج الوجه (مضيء الوجه)، حسن الخلُق، لم تَعِبهُ ثُجلَة (زيارة)، ولم تُزرِ به صَعلة (مِلة)، وسيم قسيم، في عينيه رَعَج (سواد

وبياض مع اتساع)، وفي أشفاره وَطَف (في أهدابه طول)، وفي صوته صَحَلٌ (وضوح وقوة)، أحورُ أكحلُ أزجُ أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطعٌ (طول) وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، حُلْوُ، المنطق، فصلٌ لا نزرٌ ولا هذر (ليس بقليلٍ ولا يتكلم بما لا ينبغي)، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب. ربْعَةٌ (لبي بالطويل ولا بالقصير) لا تشنؤهُ من طول ولا تقتحمه عينٌ من قصرٍ، غصنٌ بين غصنين، فهو أنضرُ الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحنون به، إذا قال استمعوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود (أصيل كريم)، لا عابس ولا مُفندِ (لا خطأ في رأيه).

قال: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكر لنا من أمره ما ذُكر، ولو كنت وافقتُه يا أم معبد لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدتُ إلى ذلك سبيلًا. وقد قيل أنَّ أم معبد وزوجها قد هاجروا إلى النبي وأسلما.

وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يُرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، فتتبعهم سراقة بن مالك بن جعثم، فلمَّا اقترب من ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم غاصت أقدام فرسه في الأرض وسقط من على فرسه وكاد أن يهلك، فنادى القوم طالبًا الأمام ووعد بأن يضلل قريش عن اتجاه سيرهما، فوافقاه على ذلك، وعاد إلى مكة وأوفى بوعده لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن تأكد من حفظِ الله ورعايته له.

وكان خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة لهلال ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة للبعثة، ووصوله إلى المدينة المنورة يوم الثاني عشرة منه، أي أن رحلة الهجرة استغرقت اثنى عشر يومًا بما فيهم أيام الاختباء بغار ثور الثلاثة. وقد قاد ابن أريقط الراحلتين، وسار خلفهما عامر بن فهيرة، ليخدمهما في الطريق، وسلك ابن أريقط طريقًا غير الطريق المعتاد سلوكه من مكة إلى المدينة حتى لا تكتشف قريش خبرهم وتقتفى أثرهم. فسلك ابن أريقط بهم جنوبًا أسفل مكة، ثم مضى بهما في طريق ملتو حتى وصل ساحل البحر

الأحمر حتى عارض الطريق أسفل من (عسفان)، ثم سلك على اسفل (أمج)، ثم اجتاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن اجتاز (قديدًا)، ثم سلك بهما (الخَرار)، ثم جاز (ثنية المرَة)، ثم سلك (لقفا)، ثم أجاز (مدلجة لقف)، ثم استبطن (مدلجة مجاج)، ثم تبطن بهما (مرجح)، ثم (بطن ذات كشْد)، ثم على (الحدائد)، ثم على (الأذاخر)، ثم (بطن ريْغ)، فصلى به المغرب، ثم (ذا سَلَم)، ثم (العثانية)، ثم هبط (العَرَج)، ثم سلك في (الجدوات)، ثم هبط بطن العقيق، حتى انتهى إلى الجثجاثة. ثم سلك على طريق (الظبي) حتى خرج على (العُصبة) إلى أن وصلوا قِباء. وكان المهاجرون ثد استبطأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظهر (حرة العصبة)، فيتحينون قدومه في أول النهار، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف، قبيل الظهر، ظهر يوم الاثنين الثاني عشرة من ربيع الأول (٢٤ سبتمبر ٦٢٢ ميلادية)، وكانت الشمس قد كادت تعتدل.

وقد بلغ المسلمين في المدينة خبر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجوا في استقباله، وجعلوا يغدون كل يوم إلى منطقة (الحرة) ينتظرون مقدمه حتى علموا نزوله في قباء على بني عمرو بن عوف فتوافدوا على جماعات جماعات واستقبلوه بالحب والترحاب والإنشاء والغناء قائلين:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المعبوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحبًا يا خير داع

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أيام بقباء وأسس مسجده بها هناك، وهو أول مسجد أُسس في افسلام. ثم خرج تاركًا بن عمرو بن عوف متوجهًا إلى المدينة في اليوم

السادس وهو يوم الجمعة، فأدركه صلاة الظهر في بني سالم بن عوف في بطن وادي رانوناء، فصلى بهم ظهر الجمعة في بطن الوادي، وكانت هذه أول صلاة جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام على مشارف المدينة المنورة.

ووصلت راحلتا الرسول صلى الله عليه وسلم وأأبي بكر رضي الله عنه مشارف المدينة فإذا رجل من يهود يصيح على أُطم بأعلى صوته: يا بني قيْله هذا صاحبكم قد جاء، فخرجوا، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الثلاثة، وتزاحمت القبائل تمسك بخطام الراحلتين، كل منها تريد نيْل شرف نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها، وحاول كل منها إجبار الناقتين على الإناخة كل عند داره، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم: "خلوا سبيلها فإنها مأمورة". فانطلقت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ورائها ناقة أبي بكر، حتى أتت عند دار بني مالك من بني النجار، أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبركت مكان باب مسجده الرئيسي الموجود اليوم. وكان هذا المكان مِربدًا، مكان يجفف فيه التمر، وكان مِلكًا لغلاميْن يتيمْن من بني النجار وهما: سهل وسهيل إبنيْ عمرو، فاشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم المكان منهما، وأمر أن يبني مسجده هناك ومسكنه، وورد أنَّ رسول الله دفع عشرة دنانير ثمنًا للمربد.

وحتى يُبنى المسكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عليه السلام ضيفًا على قريب له من بني النجار، هو أبو أيوب خالد بن زيد الخزرجي الأنصاري، وكان لأبي أيوب في داره طابقان، سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطابق الأسفل منهما. وقد قام المسلمون يبنون المسجد في همة وحماس وشاركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في البناء ليزيد من همتهم وحماسهم وليضرب لهم مثلًا من أمثلة بساطته وتواضعه. وقد بُني المسجد بالطوب اللبن، وسُقف سقفه بالجريد، وبُني مسكنه ومسكن أزواجه التسعة إلى جنب المسجد، وأقربها إليه مسكن السيدة عائشة رضي الله عنها. ثم تحوّل بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها.

وكانت بيوته عليه السلام بعضها من جريد مطيَّن بالطين وسقفها جريد وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد أيضًا (*).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في منزل أبي أيوب الأنصاري، زيدًا بن حارثة وأبا رافع، خادمه، وأعطاهما بعيريْن وخمسمائة درهم وطلب منهما أني ذهبا إلى مكة ليحُضرا له ابنتيه فاطمة وأم كلثوم وزوجته سودة بنت زمعة، وأسامة بن زيد، وأمه وحاضنته أم أيمن. ولمَّا انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسكنه، شرقي المسجد، تزوج فيه من أم المؤمنين عائشة ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وكان قد خطبها لنفسه قبل الهجرة وهما في مكة. وسكنت عائشة في مسكنها، الذي هو مكان حجرة مدفنه الشريف اليوم. وجعل لسودة مسكنًا آخر مجاورًا لمسكنه هذا، وجعل في مؤخرة المسجد موضعًا مظللًا مستوفًا بالجريد،

الهامش

****

(*) لمَّا توفي أزواجه عليه السلام خلُطت البيوت والحُجر بالسمجد وذلك في زمن عبد الملك بن مروان. وكان سرير رسول الله خشبات مشدودة بالليف بيعت زمن بني أمية فاشتراها رجل بأربعة آلاف درهم.

****

يأوى إليه المساكين من المهاجرين عُرف باسم (الصفُة) وعُرفوا هم بأهل الصفة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أهل الصفة بالليل فيفرقهم على أصحابه ليتناولول طعام العشاء معهم مما يطعمون، وكان عليه السلام يتعشى مع طائفة منهم.

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس. وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أقام بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها، لحق

برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل على كلثوم بن هدم، وقد أقام بقباء ليلة أو ليلتين، ثم تحوّل إلى المدينة ليلحق هناك برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا، بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، صارت يثرب عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند استقراره بها. ويحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم يثرب إلى اسم المدينة المنورة، المدينة التي أنارت بنور الإسلام ونور الهدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي المدينة التي خرجت من جنباتها مشاعل النور لتبدد به ظلمات الشرك ولتحطم أصنام وأوثان الكفر، ولتنشر راية لا إله إلا الله محمداً رسول الله عالية خفاقة في الآفاق إلى يوم الحساب. وذكر ابن إسحق أن رسول الله أقام بالميدنة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة حتى بُنى مسجدُه ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهل إلا ما كان من حي من الأوس أقاموا على شركهم.

روى ابن إسحاق عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا قدِم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى (حمى الملاريا)، فاصاب أصحابه منها بلاء وسُقم، فصرف ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لكن أصابت الحمي: أبا بكر وعامر بن فهيرة وبلال، مولىيْا أبي بكر، وقد كانا معه في بيت واحد. فدخلتُ عليهم أودهم، وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب. فدنوت من أبى فقلت له: "كيف نجدك يا أبت". فقال:

كل امرئ مُصبحٌ في أهله

والموتُ أدنى مِن شِراك نعله

قالت عائشة رضي الله عنها: فذاكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعتُ منه ومن عامر وبلال، فقلت: إنهم ليهزون وما يعقلون من شِ<ة الحمى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم حَبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد. وبارك لنا في مدِها وصاعها وانقل

وباءها إلى مهيعة"، ومهيعة هي الجحفة. فاستجاب الله تعالى لدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وانتقل عن المدينة الوباء.

٩- قيام دولة الإسلام في المدينة

ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هاجر إلى المدينة، إلا وسعى في إقامة دولة الإسلام بها، بعد أن اعتنق معظم أهلها الإسلام، وبعد أن رحبوا بسكنى إخوانهم المهاجرين المسلمين معهم. وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤسس البنية الاجتماعية الجديدة في تلك المدينة التي صارت، منذ وصوله إليها، قاعدة لحكم دولة الإسلام الوليدة التي أراد الله تعالى لها أن تقوم هناك ولا تقوم في مدينة مهبط الوحي مكة. وقد تألف مجتمع الدولة الوليدة في المدينة من ثلاثة عناصر، عنصران مسلمان منها وهما: المهاجرون والأنصار وعنصر غير مسلم وهم يهود المدينة. وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع هذه العناصر الثلاثة تحت راية بنيان اجتماعي موحد هو بنيان دولة الإسلام. وكانت تلك مهمة شاقة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، نجح في إنجازها بمهارة وإتقان وحكمة وحُسن إتيان.

فبعد أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بناء مسجده، الذي اعتبره مركز نشر الدعوة ومركز حكم الدولة ومقر قيادتها وتصريف أمورها، قام بالمؤاخاة بين المهاجرون والأنصار، ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم بالأنصار، إخوتهم في افسلام، من مفارقة الأهل والعشيرة، وليشد أزر بعضهم ببعض، تطبيقًا لقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة). وتمت المؤاخاة في دار "أنس بن مالك" بين تسعين رجل نصفهم من المهاجرين والنصف الآخر من الأنصار.

آخى بينهم على المساواة وعلى أن يتوارثوا فيما بينهم بعد الموت دون ذوي الأرحام. وظل ذلك التشريع قائمًا إلى زمن غزوة بدر حيث أنزل الله تعالى قوله: (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) فرُد التوارث إلى الأرحام. ومن أبرز مَنْ شملتهم المؤاخاة أبا بكر

وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وعبد الرحم بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان. فقد آخى بين أبي بكر وخارجة بن زهير الخزرجي، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين ثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وغيرهم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد قال لمجموع المهاجرين والأنصار يحثهم على المؤاخاة: "تآخوا في الله أخويْن أخويْن"، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، فقال: "هذا أخي". فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له مثيل ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخويْن. وكان حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخويْن، وجعفر بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، أخو بني سبمة، أخويْن، ومصعب بن عمير، وأبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار أخوين، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، حليف بني عبد الأشهل، أخويْن.

كذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموادعة يهود المدينة، وكتب معهم كتابًا عُرف (بالصحيفة) عاهد فيه اليهود وأقرهم وأمَّنهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم وتويد لهم بالنصرة والأسوة ما داموا تابعين مخلصين غير معاونين لمشركي قريش. واتفق الرسول في هذا العهد مع اليهود على أن يدافعوا عن المدينة مع المؤمنين في حالة الحرب وعند تهديد العدو لها، كلٌ في منطقته. وساوي هذا العهد بين جميع اليهود على اختلاف طوائفهم. ونص كذلك على ألا يخرج أحدٌ من اليهود من المدينة إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما نص العهد أيضًا على أنَّ يثرب صار جرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه

إذا حدث حدث أو وقع شجار يُخاف فسادُه فإنَّ مرده إلى الله وإلى الرسول، وأنه لا تجُار قريش ولا من نصرها.

وقد أورد ابن إسحاق نص الصحيفة كالآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عاينهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوْف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم (دياتهم) الأولى، كل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبني الحارث على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عاينها بالمعروف والقسط بني المؤمنين؛ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو البنيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. (المُفرح: المنقَل بالديْن والكثير العيال). وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأنَّ المؤمنين المتقين على مَنْ بغى منهم أو ابتغى وسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا يُنصر كافرًا على مؤمن. وإنَّ ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وإنَّ المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وإنه مَنْ تبعنا من يهود فإنَّ له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وإنَّ سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

وإنَّ كل غازية غذت معنا يعقب بعضها بعضًا. وإنَّ المؤمنين يبئ بعضهم على بعض بمال نال دماءهم في سبيل الله. وإنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه. وأنه لا يجير مُشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن. وأنَّه من إعتبط (قتل بلا جناية) مؤمنًا قتْلا عن بنيه فإنه قوْدٌ به إلا أن يرضي ولي المقتول، وإنَّ المؤمين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثًا ولا يؤويه، وأنه مَنْ نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدل.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يُهلِك) إلا نفسه وأهل بيته.

وإنَّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَنْ ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. وإنَّ جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. وإنَّ لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف. وإنَّ البر دون الإثم. وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم، وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم. وإنه لا ينحجز على ثأر جُرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم. وإنَّ الله على الرضا بهذا. وإنَّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصر على مَنْ حارث أهل هذه الصحيفة، وإنَّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإنَّ النصر للمظلوم.

وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإنَّ يثرب حرُم جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وغنَّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

وإنه لا تُجار حرية إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنَّ الله على ما أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها.

وإنَّ بينهم النصر على مَنْ دهم يثرب.

وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه وتلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبلهم. وإنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مِثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن من أهل هذه الصحيفة.

وغنَّ البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أُثم، وإنَّ الله جارٌ لمن بر وأتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبمؤاخاة المهاجرين والأنصار والعقد مع اليهود في المدينة نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنظيم الجبهة الداخلية في المدينة ويكون بذلك على استعداد لمجابهة أي عدوان تشنه قريش عليه من مكة، وهو يعلم أنَّ قريشاَ لن تتركه يأمن بدينه في يثرب بعد أن نجح في الإفلات من قبضة يدها بهجرته من مكة. وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة قيام قريش بمهاجمته وهدم بنياية دولته في المدينة وهي في المهد، كما انتظر الإذن له من ربه في رد الهجوم والقتال. وانصرم العام الأول من الهجرة دون قتال.

وفي العام الثاني للهجرة في شهر شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا فُرض صوم رمضان على المسلمين كركن أساسي من أركان الإسلام، وقام جبريل عليه السلام بإعلام أركان ومناسك الصوم بعد أن نزلت آياته ضمن آيات سورة البقرة في كتاب الله العزيز.

كذلك فُرضت الزكاة على المسلمين في هذا العام، وحدد القرآن الكريم مستحقيها في قوله تعالى في الآية ٦٠ من سورة التوبة: (إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبُهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابنِ السبيل فريضةً من الله والله عليم حكيم).

وفي هذا العام دعَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم علاقته بابن عمه علي بن أبي طالب بتزويجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما.

وفي هذا العام أيضًا في منتصف شهر شعبان صرف الله عز وجل قِبلة المسلمين في صلاتهم عن بيت المقدس إلى الكعبة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا هاجر إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، وكان يحب أنْ يُصرفَ إلى الكعبة، فقال لجبريل "يا جبريلُ وددتُ أنَّ الله صَرَف وجهي عن قِبلة يهود"، فقال جبريل: "إنما أنا عبدٌ مبلِغٌ فادعُ ربك وسلْه". وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء، فنزلت عليه آية: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فول وجهك سطر المسجد الحرام). وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين تجاه بيت المقدس، ثم أُمِر أن يوجِّه إلى المسجد الحرام، فاستدار إليه ودار معه المسلمون.

ويُقال: بل زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعامًا، وحانت الظهر فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين ثم أمُر أن يُوجِّه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب، فسمُي المسجد مسجد القبلتين، وذلك يوم الاثنين للنصف من شعبان على رأس سبعة عشر شهرًا.

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي قِبَل بيتِ المقدس فلمَّا ولىَّ وجهه قِبل البيت الحرام أنكروا ذلك، وجاءه وفد من يهود المدينة وفيهم: رفاعة بن قيس، وقروم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، فقالوا: "يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ إرجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك". كانوا يريدون بذلك فتنة عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم قوله: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيدًا. وما جعلنا القبلةَ التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)، أي ابتلاءً واختبارًا (وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله)، أي من الفتن، أي الذين ثبَّت الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم)، أي إيمانكم بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم، وإتباعكم إياه إلى القبلة الآخرة وطاعتكم نبيكم فيها.

وكذلك قوله تعالى في أمر تحويل القبلة: (وإنَّ الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم. وما بعضهم بتابع قبلةِ بعض. ولئن اتبعت أهواءهم مِن بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين).

عداوة اليهود لرسول الله وللمسلمين

قال ابن إسحق: نصبت أحبار اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغيًا وحسدًا وضغينًا، لِما خص الله تعالى به العرب منْ أخذِه رسول الله منهم، ولإنضاف إليهم رجالٌ من الأوس والخزرج ممن كان بقي على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم مِنْ الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أنَّ الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه فتظاهروا بالإسلام

واتخذوه جُنة من القتل ونافقوا في السن وكان هواهم مع اليهود. لتكذيبهم النبي وجحودهم الإسلام.

وكان أحبار اليهود هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعنتونه ويأتونه باللبَّس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه، إلا قليلًا من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها.

ولقد نزل في أحبار اليهود والمنافقين من الأوس والخزرج صدر سورة البقرة إلى المئة منها: يقول سبحانه: "ألم ذلك الكتابُ لا ريب فيه هدىً للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناكم ينفقون. والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل مِ، قبْلِك وبالآخرة هم يوقنون. إنَّ الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذابٌ عظيم".

. . . . إلى قوله تعالى مخاطبًا أحبار بني إسرائيل:

"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم (نجاتهم من فرعون وقومه) وأوْفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلتَ مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أولَ كافرٍ به وإياي فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. أتأمرون الناسَ بالبر وتنسون أنفسَكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون".

ثم عدَدَّ عليهم أحداثهم فذكر لهم العجل وما صنعوا فيه وتوبة عليهم وإقالة إياهم. ثم قولهم "أرنا الله جهرةً". ثم أخذ الصاعقة لهم ثم إحياءهم بعد موتهم وتظليله عليهم الغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى.

ثم قال تعالى: "ولقد آتينا موسى الكتابَ وقفَّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات. أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسُكم استكبرتم ففريقًا كذبتهم وفريقاً تقتلون". ثم قال تعالى: "وقالوا قلوبُنا نُحلفٌ (أي في أكنه) يقول تعالى: "بل لعنهم اللهُ بكفرهم قليلًا يؤمنون. ولمَّا جاءهم

كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكانوا مِن قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلسفةُ الله على الكافرين".

سؤال اليهود للرسول وإجابة:

قال ابن إسحاق، أنَّ نفرًا من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن؛ فإنَّ فعلت اتبعناك وصدقناك. وآمنا بك. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بذلك عهُد الله وميثاقُه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقنني، قالوا نعم، قال: فأسالوا عما بدا لكم قالوا:

فأخبرنا كيف يُشبه الولدُ أُمَه وإنما النطفةُ من الرجل؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشُركم الله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنَّ نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفةُ المرأة صفراء رقيقة، فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه! قالوا: اللهم نعم؛ قالوا فأخبرنا كيف نومُك؟ فقال: أنشدكم الله وبأيامه عند بني إسرائيل؛ هل تعلمون أنَّ نومَ الذي تزعمون أني لست به تنام عينهُ وقلبُه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم قال: فكذبوه نومي، تنام عيني وقلبي يقظان. قالوا: فأخبرنا عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: أنشدكم الله وبأيامه عند بني إسرائيل؛ هل تعلمون أنه كان أحبَ الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها وأنه اشتكى شكوة وفافاه الله منها، فحرَّم على نفسه أحبَ الطعام والشراب إليه شكرًا لله، فحرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؛ قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون جبريل، وهو الذي يأيتني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو وهو تلَك إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ولولا ذلك لأتبعناك.

فأنزل الله تعالى فيهم: "قل من كان عدوًا لجبريل فإن نزَّله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين" إلى قوله تعالى: "أوَ كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريقٌ منهم بل أكثُرهم لا يؤمنون. ولمَّاَ جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا

الكتاب كتابَ الله وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمون. وأتبعوا ما تتلو الشَياطين على مُلك سليمان (أي السحر) وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلِمون الناس السحَر".

قال ابن إسحاق، لما ذكر رسول الله أن سليمان بن داود في المسلمين قال بعض أحبارهم: ألا تعجبون من محمد يزعُم أنَّ سليمان بن داود كان نبيًا والله ما كان إلا ساحرًا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: "وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا (أي بإتباعهم السحر وعملهم به) وما أُنزل على الملكيْن ببابل هاروتَ ومَاروت وما يُعلمِان مِنْ أحد".

وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه فلمَّا بعثه من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فنزل قول الله فيهم: "ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكان من قبل مشقة من على الذين كفروا فلما جاءه ما عرفوا كذبوا بن خلفه الله على الكافرين".

هذا وكما أنكر اليهود نبوة محمد أنكروا نبوة عيسى عليه السلام وقد أتى رسولُ الله نفر منهم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل: فقال صلى الله عليه وسلم: نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلمَّا ذكر عيسى بن مريم جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى بن مريم ولا بمن آمن به، فأنزل الله تعالى فيهم: "قل يا أهل الكتاب هل تنقمون مِنا لإلا أنْ آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل من قبل وأنَّ أكثركم فاسقون".

ولقد أشرك اليهود بالله فنزل فيهم قوله تعالى: "قل أيُ شيء أكبرُ شهادة، قل الله شهيد بين وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومنْ بلغَ، إنكم لتشهدون أنَّ مع الله ءلهةً أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون، الذين آتيناهم الكتابَ يعرفون كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون".

ولقد أدعي اليهود بأنَّ عزيرًا ابنُ الله ونزل في ذلك قوله تعالى:

"وقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيُح ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواههم يضاهون قولَ الذين كفروا مِن قبل قاتلهم اللهُ أنى يؤفكون".

تهجمهم على ذات الله:

أتى رهط من اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هذا اللهُ خلَق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله حتى انتقع لونه ثم جاءه جبريل بجواب ما سألوه عنه "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد".

وسألوا رسول الله عن قيام الساعة وعن ذي القرنين؟

جاء بعض اليهود إلى الرسول وسألوه أن يخبرهم متى تقوم الساعة إنْ كان نبيًا حقًا؟ فأنزل الله تعالى قوله: "يسألونك عن الساعة أيانَ مُرساها قل إنما علُمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلُت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حَفيٌ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

وسألوه عن ذي القرنين فقص عليهم ما قصه من قبل على النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وما ورد عنه في سورة الكهف. "يسألونك عن ذي القرنين قل شأتلوا عليكم منه ذكرًا. إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببًا فاتبع سببًا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئةٍ ووجد عندها قومًا يا ذا القرنين إما أن تُعذِب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا" (من الآية ٨٣ حتى الآية ٩٨).

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أنَّ بناء دولة الإسلام واستمرارها في قيادة العالم وهدايته إلى الإسلام جزء لا يتجزأ من مهمته كنبي ورسول ومبشر ونذير وداعٍ إله الله بإذنه. وكان يؤمن أيضًا بأنَّ بناء الدول على أرض المعمورة من مهام الأنبياء والرسل. وأنَّ من الأنبياء والرسل السابقين له من نجح في إقامة دولة ومنهم من لم ينجح لعدم إتاحة الوقت اللازم له لإقامة تلك الدولة وتحدي الأعداء له وتسليط الله تعالى عليهم جنوده لإبادتهم والقضاء عليهم وجعلهم عظة وعبرة لمن جاء بعدهم.

والإسلام، باعتباره آخر رسالات السماء إلى الأرض وخلاصة شرائع الله تعالى وصفوتها لا يمكن له أن يقوم أو يحقق ذاته دون قيام دولة له وإرساء قواعد تلك الدولة التي تحقق أهداف هذا الدين الخاتم وترسم للناس في ضوء شريعته طريق حياتهم ومسار معاملاتهم في الدنيا وطريق نجاتهم في الآخرة. لذلك لم يغفل الإسلام حاجة المسلمين إلى تكوين دولة تنظم سلوكهم ومعاملاتهم؛ لأنَّ المجتمع البشري، بطبيعة تكوينه، في حاجة إلى دولة أو مجموع دول تنظم سلوكه وحياة أفراده.

ولقد ورد في القرآن الكريم أم رحكم دولة الإسلام ستًا وسبعين مرة، وأشارت الآيات الكريمة التي نزلت بصددها بوضوح إلى أنَّ للإسلام دولة التي تحكم وفق دستور الله تعالى وكتابه القويم وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد بنت تلك الآيات البينات أنَّ للإسلام دورًا، مع دوره في هداية الناس إلى الدني الحق والعبادة الصادقة، دور الحكم وقيام حاكم عليهم يسوسهم ويقودهم إلى ما يصلحهم في دنياهم وأخراهم يكون على راس دولة يجب أن تقوم وتبقى ما بقي على الأرض إسلام. ودستور هذه الدولة هو دستور إلهي رباني ليس من صنع البشر، ولكنه تنزيل العزيز الحكيم في كتابه الكريم، وما تقرر من سُنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أجمع عليه أهل الرأي والعلم فيما لم يرد في الكتاب أو السُنة.

ولقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسس للدولة الجديدة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والمعاملات بما نزل عليه من قرآن، وما اجتهد فيه برأيه فيما لم ينزل به قرآن، وما استشار فيه أصحابه رضوان الله عليهم. وقد واجه النبي عليه السلام، وهو القائد الأعلى، مع جماعته في الدولة الجديدة كل المشاكل التي تقابل بناة الدول وقام بحلها على أساس من العدالة والمحبة والعدل والحرية.

هذا ولم يقتصر بناء الدولة الإسلامية على الحجاز وجزيرة العرب، بل شمل إطارها السياسي كل العام، لأنَّ الإسلام لم يأت قاصرًا على العرب وحدهم؛ بل جاء لكل العالم مشرقة ومغربه.

وفي المدينة، وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه في وضع قوي يسمح له بإقامة دولة الإسلام بعد أن ارتضت عناصرها، التي كانت تتصارع على السيادة فيها، بسيادته عليهم جميعًا. وفيها أصبح محمد صلى الله عليه وسلم قائد جماعة المسلمين ورئيسهم. وقد نمت هذه الجماعة بالتدريج دينيًا وسياسيًا وصار لها جيش مستقل وإدارة واعية وموارد مالية. وبعد الهجرة بخمس سنوات فقط، صارت هذه الدولة، دولة معترف بها من كل جيرانها، بعد أن أيد الله نبيه بالنصر من عنده. وصار محمد صلى الله عليه وسلم رائد هذه الأمة وإمامها وهاديها وراعيها وصاحب الكلمة العليا فيها، وتحول راعي الغنم إلى راعي للبشر.

ولم ينفرد محمد صلى الله عليه وسلم بالرأي في إدارة أمر هذه الدولة؛ بل اتخذ له بمستشارين من صحابة في إدارتها، استأنس برأيهم في الأمور التي لم يُنزل فيها وحي، وكان يأخذ بمشورتهم ولا يقض في أمر يخص مجتمع الإسلام دون أن يطلعهم عليه. وكان كل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلى أقرب هؤلاء المستشارين إليه.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، بحكم رئاسته للدولة الإسلامية، هو الذي يقرر الحرب والسلم، وهو الذي يختار القواد للمعارك أو يكون هو القائد للحملات بنفسه. وقد عُرف الرسول صلى الله عليه وسلم محاربًا شجاعًا وقائدًا حربيًا ماهرًا، كما عُرف سياسيًا قديرًا محنكًا، فضلًا عن كونه هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا. وكان الرسول يولي على المدينة من ينوب عنه في حالة غيابه، وخاصةً عند خروجه للقتال. وكان يختار هؤلاء الولاة من خيرة ممن شُهد لهم بالحزم والعزم والفهم في الدين والسداد في الرأي والقيادة.

ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت مال عام للمسلمين، بسبب بساطة موارد الدولة آنذاك، ولأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوزع ما يحصل عليه من فيء وغنيمة في الحروب، وبين زكاة وخراج على مستحقيها في حينه، ولم يكن هنالك فائض يوجد بيت مالٍ مِن أجل أن يوضع فيه.

وكان على كل فروض هذه الدولة أن يؤدي ما عليه من واجبات كما كان له أن ينال ما له من حقوق، والناس في مجتمعها سواسية لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين عربي وأعجمي. وكان من حق كل فرد في هذه الدولة أن يتكسب عيشه ويحصل على رزقه الذي قدَّره الله له كيف يشاء متحريًا في ذلك الحلال ومتجنبًا ما نهى الله عنه من حرام. وقد أباح الله لعناصر هذه الدولة التمتع بما أفاء الله به عليهم من خير ونِعم. فلم يمنع الأفراد من جمع الثروات ولم يحرِّم الثراء شريطة أنَّ يكون من حلال. وفي نفس الوقت حرض دستور هذه الدولة على التكافل بين الأفراد فيما بينهم، وأن يساعد غنيهم فقيرهم، وأن يعطي ذوو السعة للمحتاجين. ولذلك فرض الإسلام الزكاة على المسلمين وحبَّبهم في الصدقة، ووعدهم بخير الجزاء لمن ينفق من ماله في أوجه الخير بالصدقة ومسح دموع اليتامى والمساكين والمحتاجين وفي سبيل الله.

وكما فرُضت الزكاة على المسلمين فرُضت الجزية على أهل الكتاب والمعاهدين، جزاءً لبقائهم على ملتهم، وجزاءً لِما تقدمه لهم دولة الإسلام من خدمات، فهم يتساوون في ذلك مع المسلمين في تقديم جزء من دخلهم للدولة التي ترعاهم وحفظت لهم ملتهم ودور عبادتهم وحقهم في الحياة والكسب والعمل.

وكما فُرضت الجزية كضريبة على الرؤوس، فرُض الخراج كضريبة على الأرض التي فُتحت عنوةً بالحرب وقاتل أهلُها المسلمين، وهم على كفرهم.

ومن موارد الدولة التي كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي نزل بصددها وهيْ: الفئ والغنيمة. والفيء هو ما أفاء به الله تعالى وأنعم به على المسلمين بدون قتال، وهو يخُمس أخماس ويقسَّم خمسة أسهم متساوية على مستحقيه، كما ورد في وسرة الحشر في قوله تعالى: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).

أما الغنيمة والتي كانت من موارد دخل دولة الإسلام، فيدخل فيها كل ما يغتنمه المسلمون من أعدائهم المشركين بالقتال ويأخذونه منهم عنوةً بعد أن يقاتلوا المسلمين وهم على الشِرك

والكفر. وهو على أربعة أقسام: أسرى من الرجال، وسبايا من النساء والأطفال، وأراضٍ، وأموال ومتاع. وكان حكم السرى متروكاً للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن يحكم المسلمين مِ، بعده؛ إما أن يتخلص منهم بالقتل، أو يقبل الفدية عنهم، أو تتم مبادلتهم بأسرى المسلمين، أو أن يمن عليهم بالحرية والإطلاق. وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى في غزوة بدر، كما سوف نرى عند الحديث عن غزواته صلى الله عليه وسلم. وأمَّا الأرض فيُفرض عليها الخراج ولا يسقط عنها، حتى ولو أسلم أهلها وصارت في يد مسلمين. وأمَّا الأموال فكانت توزع في حينها؛ أربعة أخماسها للمقاتلين والخُمس الباقي يُوزع على مستحقي الفيءْ، وقد جاء هذا التوزيع حسبما ورد في قوله تعالى في سورة الأنفال: (واعلموا أنَّ ما غنمتم من شيء فإنَّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).

أمَّا السبيْ من النساء والأطفال، الذين يقعون أسرى في يد المسلمين، فبِسبب شركهم وشِرك من يتبعونهم من مقاتلى الكفار فلا يجوز قتلهم وإنما كانوا يقسَّمون في جملة الغنائم، ويجوز قبول الفدية عنهم، كما يجوز تبادلهم بسبايا المسلمين الذين يقعون أسارى في يد الكفار. ولا يجوز أن يُفرَّق في السبي بين والدةً وولدها عند التوزيع. وللرجل المسلم أن يتزوج من السبايا بأي عددٍ منهم دون التقيد في زواجه من الحرائر بأربعة نسوة. وجاء حكم الشرع الإسلامي عظيمًا وحكيمًا بصدد هؤلاء السبايا، فبإباحة زواج الرجل المسلم بأي عددٍ منهن، مما هن من الانحراف وجعل لهن من يعولهن ويصرف عليهن ويعشن كزوجات صالحات. كذلك أ'طى الشرع الإسلامي الحق للمرأة السبيْ أن تتحرر وتصبح (أو ولد) إذا ما حملت من زوجها، وأن تأخذ حريتها كاملة إذا ما أعتقها زوجها، أو إذا أنجبت منه ومات بعد إنجابها. كذلك كفل الشرع الإسلامي للمولود من السبيْ أن يولد حرًا، ذكرًا كان أم أنثى.

ولقد خص الله تعالى نبيه بشيء يصطفيه ويختاره لنفسه من كل غنيمة يغتنمها المسلمون، فنجده يوم بدر، يغتنم سيف عاصم بن منبه، ويوم خيبر يصطفى جارية من سبايا اليهود هي

السيدة صفية بنت حُيَّي بن أخطب، ويتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلمت وصلحُ إسلامها، لتصير بذلك أمًا من أمهات المؤمنين.

وبعد الحرب التي وقعت بين الرسول وبين يهود بني النضير، أُخذتُ أرضهم غنيمة لأنها أُستخلصت منهم عنوةً بعد قتال، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد طرد اليهود منها وإخراجهم خارج المدينة، بتوزيعها على المهاجرين دون الأنصار، حتى يستقل المهاجرون بأنفسهم دون أن يعيشوا عالةً على إخوانهم الأنصار. كذلك اتفق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر وفدك على أن يبقوا على أرضهم يزرعونها، على أن يدفعوا نصف ما تُغله هذه الأرض للمسلمين ويحتفظوا بالنصف الآخر لأنفسهم؛ حتى لا تحُرم تلك الأرض من خبرة أصحابها اليهود في زراعتها.

ولقد وُضع التشريع الإسلامي لحماية أفراد مجتمع الإسلام، ولإقرار العدالة بين الناس والحفاظ على حقوقهم، وبيان ما عليهم من واجبات، ولرفع الظلم عن العباد. فوضع العقوبات التي تقابل الجرائم، من قتل وسرقة وإفساد وعدوان، كذلك نظمَ الحياة الأسرية فيما يتصل بالزواج والطلاق وحقوق الزوجية والميراث، وحفظ للمرأة حقوقها ودعي لحسن معاملة الرقيق والرفق بهم. كذلك نظم المعاملات المالية وحَرم الربا، وحَرم الغش في الكيل والميزان، وحَرم احتكار السلع والسمسرة والمضاربة، وغير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى الاحتيال والاستغلال. كما وضع القوانين التي تحرم الخمر والميسر وارتكاب الموبقات أيًا كان نوعها وبيَّن الحدود التي تقع على مرتكبيها، وجعل الجزاء من جنس العمل دون ظلم ا، عدوان. وقد جاءت تلك التشريعات لتنظم للإنسان المسلم حياته في الدنيا ولتضمن له السلاسة والنجاة في الآخرة من النار.

وعلى هذا الأساس القويم قامت دولة الإسلام، وارتفع بنيانها بعد أن ارتكزت على أساس قوي سليم، وازداد ارتكاز تلك الدولة بعد أن كفلت لأفراد المجتمع حريتهم ودعت حماية الجماعة المسلمة ووفرت لهم الأمن والأمان. ولم تكن هذه التشريعات التي وضع بذورها محمد صلى

الله عليه وسلم على أساس من كتاب الله تعالى وسنته المطهرة إلا النواة للتشريعات الكبرى التي أفرزتها جماعة الإسلام بعد أن كبرت دولتها واتسعت وأصبحت دولة مترامية الأطراف، تمتد حدودها إلى الصين شرقًا وإلى المحيط الأطلسي غربًا في القرن الثاني للهجرة. وبعد أن اتسع باب الاجتهاد في الدولة على يد أبرز علمائها وفقهائها، وصارت بذلك مركز إشعاع لحضارة زاهرة أشرق نورها وغمر العالم كله شرقًا وغربًا.

وفي المجتمع الجديد الذي قامت فيه دولة الإسلام في المدينة، ظن بعض المسلمين أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت والموادعة التي حصلت مع اليهود، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أنه سيخوض معركة قاسية مع المجتمع الذي ترأسه، ومع المحيط بدولة، ثم مع العالم الخارجي القائم آنذاك، علِم أنه سيحارب على عدة جبهات، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع الدول الكبرى القائمة يومئذٍ في الخارج.

على الجبهة الداخلية أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب اليهود، الذين ساءهم أن يكون نبي آخر الزمن من العرب وليس من بني إسرائيل، كذلك أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب على الجبهة الداخلية المنافقين من العرب، المتطلعين للقيادة والسيادة وهم ليسوا أهلًا لها، وعلى رأسهم رأس النفاق، عبد الله بن أبي سلول، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيحارب على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها، الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم.

الشرك والدول الكبرى التي لم تتقبل بأي وضع من الأوضاع أن يتسيد العرب عليهم، وأن تتغير عقيدتهم المسيحية والوثنية وتتحول إلى الإسلام، دين العرب.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئنًا إلى أن أول صدام سيكون مع قريش، عدو المسلمين الأول، والتي لن يهدأ لها بال إلا بالقضاء على الإسلام والتخلص من محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد استطاع المسلمون بفضل الله ورعاية رسوله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم وحسن تطبيقهم وتصرفهم وانقيادهم لأوامر قائدهم العظيم أن يُبقوا على تماسكهم، وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا الترابط والتماسك والاعتصام بحبل الله جميعًا أن يقفوا في وجه هذه العداوات كلها وأن يخرجوا من معاركهم ظافرين.

إنَّ المعارك التي خاضها المسلمون في أول عهدهم في المدينة هي نفسها التي يخوضونها اليوم في كل مكان، والأعداء هم الأعداء أنفسهم، والأسلوب هو نفسه، والجبهة هي نفسها، وإن اختلف الزمن وتبدلت الأسماء وتغيرت الصور وتحولت المفاهيم وتباينت المخططات والدسائس والمؤامرات. وكل هدف أصحابها بالأمس واليوم هو حرب المسلمين والقضاء على الإسلام. وإذا كان المسلمون قد نجحوا بالأمس بفضل وحدتهم وتماسكهم واتباعهم لأوامر الله ورسوله وتجنب ما نهيا عنه كتبُ لهم النصر، فإن المسلمين اليوم مطالبون بإتباع أوامر نبيهم وتعاليم دينهم لتحقيق النصر للإسلام وللحفاظ على راية الإسلام عالية خفاقة. في الآفاق إلى يوم الدين. وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر إذا هم نصروه بقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) [محمد: ٧] وصدق الله العظيم.

* * *

١٠- الرسول في لَأْمة الحرب

في السنة الثانية للهجرة، فرُض القتال والجهاد على المسلمين، وقد كان مُحرمًا عليهم قبل الهجرة لظروف ضعفهم آنذاك وهم في مكة وغلبتهم على أمرهم لقلة عددهم ولكثرة عدد عدوهم. ولكنه أجيز لهم بعد الهجرة لمَّا قامت دولتهم وصلُب عودهم وأذُن لهم في الدفاع عن عقيدتهم ورفع الظلم الذي وقع عليهم مِنْ قِبل مشركي قريش. وتُبين أولى الآيات التي أذنت لهم بالحرب والقتال طبيعة الحرب في الإسلام ووظيفتها فهي حرب دفاع لا حرب عدوان وقهر وتسلط، دفاع عن العقيدة والدين والحق والعِرض. تقول الآية الكريمة: (أُذن للذين يُقاتلَون بأنهم ظلُموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن

يقولوا رُبنا الله ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدَ يُذكر فيها اسمُ الله كثيرًا ولينصرَن اللهُ من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز) [الحج: ٤٠]. وتقول الآية الكريمة التي تمنع العدوان في القتال: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين) [البقرة: ١٩٠]. والإسلام في بداءة عهده كان هو المعتَدي عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد، وظل كذلك حتى بعد تلبيته الدِعوة المحمدية واجتماع القول حول النبي عليه السلام، فإنهم كانوا يقاتلون مَنْ قاتلهم ولا يزيدون على ذلك.

وتقول الآية الكريمة التي تدفع عدوان الكافرين: (فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) [البقرة: ١٩١]. وتقول الآية التي تليها منعًا للفتنة (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ لله فإن انتهوْا فلا عدوان إلا على الظالمين). وفي حالة اجتماع المشركين كافة لقتال المسلمين يقول القرآن الكريم: (وقاتلوا المشركين كافةً كما يقاتلونكم كافة) [التوبة: ٣٦].

ولقد شرع افسلام الجهاد، وقد جاء بصدده في القرآن الكريم: (فقاتل في سبيل الله لا تكلَف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكُفَ بأسَ الذين كفروا واللهُ أشدُ باسًا وأشد تنكيلًا) [النساء: ٨٤]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الجهاد: "أمُرتُ أنْ أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله".

لم يكن الإسلام إذن دين قتال، ولم يكن النبي رجلًا مقاتلًا يطلب الحرب لذاتها أو يطلبها ولا مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد النصير إذا وجبت الحرب ودعته إلعًا المصلحة اللازمة. يعلم من فتونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمران، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمًا في الحرب مقدامًا كما كان عظيمًا في السلم، ولقد عرف عنه أصحابه ومن قاتل معه من المسلمين وقاتله من المشركين الشجاعة والإقدام وحب الجهاد وحسن القيادة ودقة التنظيم للجيوش. فكان عليه السلام يبعث البعوث والعيون

يأتونه بخبر العدد حتى يعرف كل شيء من أمره. ولم يكن عليه السلام مستبدًا برأيه في الحرب، بل كان كثير المشاورة لأصحابه ف يوضع خطط القتال ومسار المعارك، وكان دائم التفقد لقواته، وكان أقربهم للعدو. وكان عليه السلام يحب الخيلاء في الحرب، وهذا ما امتدحه في أبي دجانة، سماك بن خرشة يوم أحُد، وكان عليه السلام ينهي عن المثلى بقتلى العدو وينهى عن قتل الأطفال والنساء وينهي عن قطع الشجر وإتلاف الثمار.

وقد وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بين ثمانية وثلاثين غزوة وسرية، ولم يكن عليه السلام يشارك في السرايا، بل كان ينيب عنه من يتولى قيادتها، وكانت السرايا أشبه بالحملات العسكرية الاستطلاعية. أمَّا الغزوات فقد قادها عليه السلام جميعها بنفسه. وقد بلغ عدد السرايا التي أرسلها صلى الله عليه وسلم، قبل غزوة بدر، ثمانِ سرايا اتجهت إلى أنحاء متفرقة من أرض شبه الجزيرة العربية.

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إدارة المعارك الكبيرة، وفي هذه المعركة أخذ بمشورة الحباب بن المنذر، كما سنرى، حين اقترح عليه الانتقال من المكان الذي نزل فيه، ثم استوعب من تلك التجربة الوحيدة ما قل أن يستوعبه القادة المنقطعون للحرب من تجارب عديدة. ولو تتبع حروبه عيله السلام ناقد عسكري من أساطين في الحرب في العصر الحديث لما وجد خطأً واحدًا في جميع معاركه التي خاضتها طيلة حياته.

مضى على الهجرة ما يقرب من ستة أشهر، وطد القائد الأعلى صلوات الله وسلامه عليه خلالها الجبهة الداخلية، ونظمَّ أمورها، وأخذ يستعد بعد ذلك للجبهة الخارجية والقتال المنتظر مع المتربصين للإسلام والمسلمين. فأخذ يُسيِّر السرايا وينطلق بالغزوات، وإن كانت تلك السرايا والغزوات الأولى كانت أعمالًا حربية استطلاعية في المقام الأول، غايتها التعرف على الطرق حول المدينة والمسالك المؤدية إلى مكة، وطريق التجارة الذي تسلكه قريش إلى الشام وتعود منه، ثم التعرف على القبائل الكائنة على طول تلك الطرق وإمكانية كسبها للإسلام إذا

أراد الله لها النجاة، أو لضمان حيادها على الأقل إذا ما دخل في الحرب مع قريش في مواطن تلك القبائل ومنازلها. وكذلك كان هدف هذه السرايا التعرض لقوافل قريش وتجارتها وتهديد تلك التجارة التي هي دعامة اقتصاد قريش، الأمر الذي يثبت الكيان الإسلامي الجديد ويخيف قريش منه فتجبر قريش حينئذٍ على الاعتراف بهذا الكيان وعدم التصدي له بالعدوان. ثم إشاعة تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها في شتى أنحاء شبه الجزيرة كلها لمعرفة قوة المسلمين وضعف قريش؛ الأمر الذي يجعل هذه القبائل تحالف الدولة الجديدة وتعتنق دينها ورسالتها التي هي تنزيل من خالق البشر.

وبلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزوات وثلاث سرايا، ابتدأت في شهر رمضان من السنة الأولى وانتهت في جمادي الآخرة من السنة الثانية للهجرة.

وكانت أول السرايا التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل على لوائها عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلًا كلهم من المهاجرين، ليعترض طريق قافلة تجارية لقريش عائدةً من الشام بإمرة أبي جهل من هشام مع ثلاثمائة رجل. فوصل حمزة رضي الله عنه إلى ساحل البحر الأحمر من جهة (العيص). وهنالك اصطف الفريقان للقتال، إلا أنه حجز بينهما أحد أفراد قبيلة جهينة وهو (مجدي بن عمرو الجهني)، وكان موادعًا للفريقين. فلم يقتتلا ورضخ الطرفان للتسوية وانصرف كل فريق منهما إلى مقره. وقد شكر رسول الله صلى الله عليه وسلملمجدي الجهني صنيعه هذا لقلة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة لقوة قريش التي يقودها أبو جهل. وقد أدركت قريش، بعد وقائع هذه السرية، أنه صارت لمحمد صلى الله عليه وسلم قوة ورجال يقاتلون ويزودون دونه، وأنَّ هذه القوة أصبحت خطرًا يهدد طريق تجارتها إلى الشام، وهو الطريق الذي يعتمدون عليه كل الاعتماد في تجارتهم، عماد اقتصادهم وبعد هذه السرية في شهر شوال من العام نفسه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرية أخرى، بقيادة إبن عم أبيه "عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب" إلى (بطن رابغ) في ستين رجل من المهاجرين. وقد لقى ابن الحارث هنالك جمعًا عظيمًا من قريش يقودهم (عكرمة بن أبي جهل)

فوقع الرميْ بين الفريقين بالسهام، ولكنهم لم يسلموا السيوف مِن خِلالها. وكان (سعد بن أبي وقاص) أول من رمي من المسلمين يومئذٍ بسهم، فكان بذلك أول من رمى بسهم في سبيل الله، ولم يقع قتال بين الفريقين، وانصرفوا. وفرر رجلان من المشركين كانا مع المشركين، وهما المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، والتحدوا بالمسلمين.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تلك السرية (سعد بن أبي وقاص) إلى منطقة (الخرار) من أرض الحجاز، على رأس سرية من عشرين رجل ليعترض عيرًا لقريش، وعهد الرسول عليه السلام إلى سعد ألَّا يجاوز الخرار. ولما وصل سعد بقولته وجد أنَّ العير قد جاوزت الخرار قبل وصولهم بيوم، فعادوا دون أن يظفروا بها.

وفي مطلع السنة الثانية من الهجرة، وقعت أول غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وتُعرف بغزوة (ودَّان) أو غزوة (الأبواء شمال شرقي رابغ. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قريشًا وبني ضمرة بن بكر عند الأبواء، واستعمل على المدينة (سعد بن عبادة). وبالأبواء يوجد قبر السيدة آمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولمَّا وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم بقواته إلى بني ضمرة عرضوا عليه الموادعة وعدم القتال على ألا يغزوهم ولا يغزونه ولا يعينوا أحدًا عليه، فعقد تلك المعاهدة مع سيدهم "مخشى بن عمرو الضمري)، وعاد دون قتال، وقد كان ذلك أول اعتراف من قبيلة عربية بدولة الرسول الجديدة.

وفي نفس العام خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عيرًا لقريش تضم ألفًا وخمسمائة بعير، كانت بقيادة (أمين بن خلف) ومعه مائة من المشركين. واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم (السائب بن عثمان بن مظعون) على المدينة، وسار بقواته مع مائتين من المهاجرين حتى بلغ منطقة (بواط) من ناحية جبل رضوى، وهو جبل من جبال جهينة، وانتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك شهريْ ربيع الآخر وجمادي الأولى دون أن يلقي كيدًا فعاد إلى المدينة دون قتال.

وفي الشهر التالي (جمادي الآخرة) لعودته للمدينة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مائة وخمسين من المهاجرين ليعترضوا عيرًا لقريش متوجهة إلى الشام، وقد جاءه الخبر بخروجها من مكة وبها أموال قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب. واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمته (أبا سلمة بن عبد الأسد) على المدينة، وحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب وسار حتى وصل (ذا العشيرة) ببطن ينبع، على البحر الأحمر، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهي العير التي خرج لها المسلمون يوم بدر، لمَّا جاءت عائدة من الشام، ولم يكن مع أبي سفيان إلا عدد قليل من الرجال رغم عِزم القافلة وخطورة ما تحمله. وبعد أن قدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة العشيرة بعشر ليالٍ؛ أغار (كرز بن جابر الفهري) على مرعى للمسلمين بالمدينة وساقه أمامه. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه، واستعمل على المدينة مولاه (زيد بن حارثة). وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم وادٍ يُقال له (سفوان) من ناحية بدر، ووجد أنَّ كرزًا قد فلت منه عائدًا إلى مكة. فرجع رسول الله دون أن يحارب، وقد عُرفت هذه الغزوة بغزوة (بدر الأولى)، تمييزًا لها عن غزوة بدر الكبرى. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد عودته من بدر الأولى، في شهر رجب من العام الثاني للهجرة، (عبد الله بن جحش الأسدي)، في إثني عشر رجلًا من المهاجرين، كل اثنين منهم على بعير، وليس فيهم أحدٌ من الأنصار. وكتب الرسول لابن جحش كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير مسافة يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به في الكتاب. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا فيه ما نصُه: "إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف فترصَّد بها قريشًا وتعلم لنا مِن أخبارهم". فلَّما نظر عبد الله في الكتاب قال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه فحوى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمضوا جميعهم لتنفيذ ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلَّما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما فتخلفا في طلبه، ونفذَّ عبد الله بن جحش ومْن معه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلوا بنخلة؛

فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبًا وبقلًا وتجارة من تجارات قريش، وكان في العير (عمرو بن الحضرمي)، وعثمان بن نوفل ابنا عبد الله بن المغيرة)، و (الحكم بن كيْسان)، مولى المغيرة. فتشاور المسلمون في أمرهم، وقالوا: "نحن في آخر يوم من شهر رجب، الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا حرمة الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم". ثم أجمعوا على قتالهم، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل بن عبد الله بن المغيرة، ثم قدموا المدينة بالعير والأسيرين.

فلَّما قدموا بما غنموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"؛ فأوقف العير والأسيرين وأبي أن يأخذهما. فلَّما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أُسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا، وقام إخوانهم المسلمين بتعنيفهم فيما صنعوا. وقالت قريش: "لقد استحل محمد واصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم فيه وأخذوا الأموال وأسروا الرجال". فلَّما أكثر الناس في ذلك نزل حكم الله في هذا الأمر بقوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتالٌ فيه قلْ قتالٌ فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به. والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله والفتنةُ أكبرُ من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) [البقرة: ٢١٧]. فلَّما فصّل القرآن في الأمر قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، ثم أطلق سراح الأسيرين بعد أن دفعت عوائلهم ديتهما ألف وستمائة درهم، وأسلم الحسن بن كيسان وحُسن إسلامه، أمَّا عثمان بن عبد الله بن المغيرة فلحق بمكة ومات بها كافرًا.

وينبغي ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفي كل ما فيها من جوانب السُنة النبوية والتشريع الإسلامي في الشئون العسكرية. فهي سرية استطلاع، كما رأينا، لم تؤمر بقتال ولم يؤذَن لها فيه، والذي حدث بعد السرية هو حكم القانون الدولي المتفق عليه: أسيران بأسيرين، وأموال العير بالأوال التي حجزتها قريش للمسلمين. ولا مجال لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي صلى الله عليه

وسلم فيه. فالمعاملات الدولية في كل زمان لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم ونزل به القرآن.

غزوة بدر الكبرى:

كانت حادثة ابن الحضرمي ونزول حكم الله فيه مفتاحًا من مفاتيح الخير وسببًا من أسباب النصر والتأييد للمسلمين، فقد أرادت قريش أن تستغل وقوعها في الشهر الحرام لإثارة العرب جميعًا ضد الإسلام وإشعال نار الحرب على المسلمين وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن الله تعالى بما نزّل من آيات بينات أبطل حجة قريش وبيَّن للناس أنَّ ما فعلته قريش بالمسلمين كان أشنع وأفظع من هتك حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه. وأنَّ الذي فعله المسلمون من القتل في الشهر الحرام أهون بكثير مما فعلته قريش بالمسلمين من اضطهاد وتعذيب وإيذاء وصدٍ عن سبيل الله. لذلك ضاعت عليهم هذه الفرصة التي ظنوها تخدمهم في حربهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانكشف عن المسلمين ما اصابهم من غم نتيجة ما فعلهُ أقرانهم مع قريش، وفرح عبد الله وأصحابه بدفاع الله عنهم وتأييده لهم. وكان انتصار الله تعالى لفعل عبد الله وأصحابه وإطماعه إياهم في غفرانه ورحمته مشجعًا للمسلمين على التمادي في مناوأة قريش ومَنْ سار على دربها في عداوة الإسلام والمسلمين؛ فأخذت البعوث الخارجة بعد ذلك يشارك فيها الأنصار والمهاجرون بعد أن كانت مقتصرة على المهاجرين وحدهم. وأيقن المسلمون بأنهم على عتبة مرحلة جديدة من الكفاح عليهم أن يحشدوا لها كل قواهم، وأنه لم يعد عليهم مِ، جناح أن يقاتلوا أعداء الله في الشهور الحرُم، وذلك تطبيقًا لقوله تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرُمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ******************).

وحينذاك أدركت قريش أنه لم يعد لها أن تعربد ضد المسلمين في مكة أو خارجها، كما كانت تفعل من قبل، وأحست بأنَّ المسلمين لم يعوادوا ضعفاء مستكينين كما كانوا في مكة قبل الهجرة، وانَّ هذا الطفل الرضيع قد كبرُ وصارت له أسنان وأنياب بقضم بها وأضافر ينهش

بها من يتعرض له بالأذى أو يقف في سبيل حريته. فأخذت تعيد النظر في أمرهم وتفكر في كيفية حماية طريق تجارتهم من غاراتهم بعد أن صاروا عقبة تقف في طريق تلك التجارة مع الشام، خاصةً حين أدركت أن المسلمين لن يتخلوا عن أمر مهاجمة قوافل تجارتهم العابرة إلى الشام والقادمة منه تعويضًا لهم لما تركوه في مكة من مال ومتاع استولت عليه قريش ظلمًا وعدوانًا. فالجزاء من جنس العمل، ولا عيب ولا حرج على المسلمين لو فعلوا ذلك إذ كان عليهم أن يسردوا مالهم بعد أن رفعوا رؤوسهم، دفاعًا عن كرامتهم ونصرًا للمجتمع الجديد الذي أصبحوا حُماةً له.

وكانت قافلة غزوة العشيرة، التي خرج من أجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر قوافل قريش وأجمعها لأموالهم، وقد قُوِّم ما كانت تحمله بخمسين ألف دينار، وقد فاتت هذه القافلة رسول الله عند خروجها إلى الشام، وصار يترقب عودتها، ولمَّا جاءه خبر عودتها، ندب لها أصحابه وقال لهم: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله أن يُغنمكموها". فاستنهض لها مَنْ خَف من أصحابه وأمر مَنْ كانت وسيلة ركوبه حاضرة أن ينهض ولم ينتظر الغير متجهز، فأسرع البعض وأبطأ البعض. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم السبت لإثنى عشر من شهر رمضان (يناير ٦٢٤م)، ومعه ثلثمائة وسبع عشرة من المهاجرين والأنصار، وكان قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير، ولكنه تعجل الخروج قبل عودتهما إليه بالخبر، حرصًا منه على إدراك القافلة وحذرًا مما عسى أن يصادف رسوليْه من عقبات الطريق فيخره عن غايته.

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ آبار عذبة الماء على نحو ميل من المدينة تُعرف (ببيوت السُقيا)، فنزل بها يوم الأحد، وعسكر هناك واستعرض رجاله فرد منهم صغارهم الذين لا يقودون على الحرب، وكان منهم: عبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن حضير، وزيد بن الأرقم، وزيد بن ثابت. وقد أراد رسول الله أن

يستبعد عمير بن أبي وقاص، أخا سعد بن أبي وقاص، وكان يبلغ من العمر ست عشرة عامًا، لكنه بكى، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونال الشهادة يوم بدر.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السُقيا متجهًا ناحية بدر. وكان عدد الخارجين مدة ثلثمائة مقاتل وخمسة مقاتلين، فيهم نحو سبعين من المهاجرين ونحو مائتين وأربعين من الأنصار، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسيْن اثنين ومن البعير سبعين بعيرًا كانوا يتبادلون الركوب عليها، كل اثنين و ثلاثة يتناوبون ركوب بعيرًا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كواحد منهم، يتناوب الركوب على بعير واحد مع علي بن أبي طالب ومَرثدِ بن أبي مرثدِ الغنوي. وكان عليه الصلاة والسلام يأبى إلا أن يكون كواحد من أصحابه وأن يشاركهم في تعبهم وراحتهم. فكان إذا ما نتهت نوبته في الركوب نزل فيقول له رفيقاه: "اركب يا رسول الله حتى نمشي عنك". فيقول لهما: "ما أنتما بأقوى مني على المسي، وما أنا بأغني عن الأجر منكما".

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنظيم رجاله في تشكيل حربي، وجعل على الساقة (قيس بن أبي صعصعة)، أخا بني مازن بن النجار، وعلى المقدمة (الزبير بن العوام)، وعقد ألوية ثلاثة: لواء أبيض يحمله (مصعب بن عمير) ورايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع بعض الأنصار.

ولقد سلك رسول الله طريقه من المدينة إلى مكة على: نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذي الحليفة، ثم على ذات الجيش، ثم مرَّ على تربان، ثم على ملل، ثم غميس الحمام، ثم على صخيرات اليمام، ثم على السيالة، ثم على فج الروحاء، ثم على شنوكة، وهي الطريق المعتدلة؛ حتى إذا كان بعرِق الظبية، لقوا رجلًا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرًا. ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم سجج، وهي بئر الروحاء، ثم ارتحل منها، حتى إذا كان بالمنصرف، ترك طريق مكة بيسار، وسلك ذات اليمين على النازية، يريد بدرًا. فسلك في ناحيةٍ منها حتى قطع عرضًا واويًا يُقال له رحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم

على المضيق، ثم انصب منه حتى إذا كان قريبًا من الصفراء، بعث (بسبس بن الجهني) حليف بن ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني، حليف بني النجار إلى إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وعِيَره.

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قدمها، فلمَّا استقبل الصفراء، وهي قربة بين جبلين، سلك ذات اليمين على وادٍ يُقال له: ذفران، ثم نزل. وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم. فاستشار الناس، فقام أبو بكر الصديق خطيبًا فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمو فقال: "يا رسول الله إمضِ لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)، ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (موضع بعيد مُهلِك بناحية اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه". فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا ودعا له به.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشيروا عليَّ أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار، ذلك لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: "يا رسول الله إنا براء مِن ذمتك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا". فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرَه إلا ممن دهمه بالمدينة مِن عدوه، وأنَّ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم. فلمَّا قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له (سعد بن معاذ): "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟" قال: "أجل"، قال "فقد آمنا بك وصدقناك وشهِ<نا أنَّ ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لِما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا؛ إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء. لعل اللهَ يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله". فسُر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد؛ ثم قال: "سِيروا وابشروا، فإنَّ اللهَ تعالى وعدني إحدى الطائفين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم".

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من (ذفران)، فسلك على ثنايا، يُقال لها (الأصافر)، ثم انحط منها إلى بلد يقال له (الدَّبه)، وترك ناحية اليمين كثيبًا عظيمًا كالجبل يُقال له (الحنان)، ثم نزل قريبًا من بدر، فركب هو وأبو بكر الصديق، حتى وقفا على شيخ من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: "لا أُخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أخبرتنا أخبرناك"، قال: "أذاك بذاك؟" قال: "نعم". قال الشيخ: "فإنه بلغني أنَّ محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإذا كان صَدَق الذي أخبرني، فهم اليوم عبكان كذا وكذا"؛ للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، "وبلغني أنَّ قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صَدَقني فهم اليوم عبكان كذا وكذا"، للمكان الذي فيه قريش؛ فلما فرغ من خبره، قال" فمِمَ، أنتما؟"، فقال رسول الله: "نحن مِ، ماء"، ثم انصرفا عنه.

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اصحابه، فلمَّا أَمْسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر، يلتمسوه الخبر له عليه. فأصابوا إبلًا يُسعى الماء عليها (راوية) لقريش فيها: أسلم، غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي. فقالا: "نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء" فضربوهما، فلمَّا أوجعهما الضرب قالا: "نحن لأبي سفيان"، فتركوهما. وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجديته، ثم سلَّم، وقال لهم: "إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صَدَقًا والله إنهما لقريش". وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبراني عن قريش؟"؛ قالا: "هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القصوى"؛ فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم القوم؟" قالا: "كثير"، قال: "ما عدتهم؟" قالا: "لا ندري"؛ قال: "كم ينحرون كل يوم؟" قالا: "يومًا تسعًا ويومًا عشرًا". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القوم فيما بين التسع مئة والألف"، ثم قال لهما: "فمن فيهم من أشراف قريش؟" قالا: "عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة

وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وبنيه ومبنه إبنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود". فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس، فقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ (قِطع) كبدها". وكان بسَبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء، قد مضيا حتى نزلا بدرًا فأناخا إلى تل قريب من الماء، فوجدا هناك جاريتين تسقيان من الماء، وعلِما من حوار دار بينهما أنهما تترقبان عير قريش، وأنها توشك أن تصل إلأى بدر بعد يومٍ أو يومين، فرجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالخبر.

أما أبو سفيان فأقبل بالعير حذرًا حتى ورد الماء فقال لمجدي بن عمرو: "هل أحسست أحدًا؟" فقال: "ما رأيتُ أحدًا أُنكره، إلا أني رأيتُ راكبيْن قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن (زق بالٍ) لهما، ثم انطلقا فأتى أبو سفيان حيث برك بعيريهما، فأخذ من أبعارهما، ففته، فإذا فيه النوى؛ فقال: "هذه والله علائف يثرب"؛ فرجع إلى أصحابه سريعًا، فضرب وجه عيره عن الطريق وسار بها بطريق ساحل البحر، فترك بدرًا على يساره وانطلق مسرعًا إلى مكة.

وأرسل أبو سفيان، على عجل، رسولًا إلى قريش، ينبئها بما عزم عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ويستفرها لحماية قافلتها؛ ووصى رسوله أن يبالغ في إظهار الخوف حتى يستنهض هم الناس للغوث والنجدة. فاتخذ الرسول لذلك ما أوصاه أبو يفبان به، فجدع بعيره وحوّل رحله وشق قميصه ووقف يصرخ ببطن الوادي: "يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أُرَى أن تدركوها! الغوث الغوث". ولمَّا رأى أبو سفيان أنه قد نجا بالعير، أرسل إلى قريش يقول: "إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فأرجعوا". فقال أبو جهل بن هشام: "والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا، فننحي الجزُر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا".

وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوقٌ كل عام، وماءً مشهورًا بين مكة والمدينة. ومحطًا للقوافل الذاهبة إلى الشام، بينه وبين المدينة نحو مائة وستون كيلو متر، وهو سهل رملي يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ومن الغرب كثبان رملية ومن الجنوب منحدر صخري فنمنعن يدناب في واديه جدول ماء يعبره من الشرق والغرب، ويتقطع هذا الجدول إلى آبار كثيرة ويحيطها المسافرون بأحواض.

قال ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي مما يلي مكة خلف الكثيب الرملي وبطن الوادي. ونزل المسلمون منزلًا بعيدًا عن الماء بالعدوة الدنيا مما يلي وكان المدينة بينهم وبين الماء رملة لينه سهلة تسيخ فيها الأقدام، فظمئ المسلمون حتى جُهدوا. لكن الله تعالى ساق إليهم السحاب فأمطر في وقت ليس بوقت مطر، فشرُب المسلمون وتطهروا وسقوا الركائب وملأوا الأسقية، وتلبد الرمل تحت أقدامهم فسُهل عليهم السير عليه، وأصابتهم غشية من النعاس، ولمَّا أفاقوا من نومهم نهضوا وهم في غاية النشاط والتثبيت. وفي ذلك نزل قوله تعالى: (إذ يغَشيكم النعاسَ أمنةً منه. وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان. وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقام).

لمَّا نام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بات هو قائمًا يصلي ويدعو ربه أن يُنجز له ما وعده، وظل على هذا الحال حتى طلوع الفجر، فدعا أصحابه إلى الصلاة وصلى بهم وحرضهم على القتال، ثم خرج يبادر قريشًا إلى الماء يريد أن يسبقهم إليه، حتى إذا وصل أول ماء من مياه بدر نزل به. وكان (الحباب بن المنذر) عالمًا بمياه بدر، فقال: "يا رسول الله، أهذا منزلٌ أنزلكه اللهُ ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة". فقال الحباب: "يا رسولَ الله ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم، فإني أعرف غزارة مائه وكثرته، فنزله، فنغور ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً فنشرب ولا يشربون" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أشرت بالرأي". ونهض بأصحابه حتى

نزلوا حيث أشار عليه الحباب، فصاروا بأقرب منزل من القوم، ولم يكن بينهما إلا كثيب وملى، ثم بنوا الحوض على البئر، وطموا كل ما وراءهم من الآبار.

وأشار سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبني له عريش يُشرف منه على المعركة ويوجه مسارها، ويأمن غارة العدو، فبُني العريش على تل مشرف وأعُدت عنده أنجب الركائب، ليكون فيه رُسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: وقد ارتحل قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب نحو الكثيب الرملي الذي جاءوا منه إلى الوادي قال: "اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها ومخزِها تحادَّك وتُكذِب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحِنهم (أهلكهم) الغداة".

ولمَّا اطمأن المشركون حيث أقاموا، بعثوا عمير بن وهب الجمُحي، فقالوا له: فقال: "إحذر لنا أصحاب محمد"، فاستِءال بفرسه حول عسكر المسلمين، ثم رجع إليهم فقال: "ثلاثة مئة رجل يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن إمهلوني حتى أنظر للقوم كمين أو مدد؟" فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَّ شيئًا"، فرجع إليهم فقال: "ما وجدُت شيئًا، ولكني قد رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، فواضح (الإبل التي يستقي الماء عليها) يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعُدادهم فما خير العيش يعد ذلك، فَرُوا رأيكم".

فلَّما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: "يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيُدها والمطاعُ فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر يفها بخير إلى آخر الدهر؟" قال: "وما ذاك يا حكيم؟" قال: "ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمي" قال: "قد فعلت أنت عليَّ بذلك، إنما عليك بحليفي ابن الحنظلية"، يقصد أبا جهل، وأمه كانت تُعرف بالحنظلية، فإني أخشى أن يأخذ الناس برأيه". ثم قال عتبة بن ربيعة خطيبًا في الناس فقال: "يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا

يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إلأيه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته؛ فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ويكن محمد ملِكًا أكلتم في مُلْك أخيكم وإن يكن نبيًا كنتم أسعد الناس به. يا قوم لا تردوا نصيحتي ولا تسفهوا رأيي".

قال حكيم: "فانطلقت حتى جئت أبا جهل؛ فوصية قد أخرج درعًا له من جرابها، وأخذ يطليها بالزيت، فقلت له: يا أبا الحكم إنَّ عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال؛ فقال: انتفخ والله سِحْرُه حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة وما قال، ولكنه قد رأى أنَّ محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم إبنه فقد تخوفكم عليه". ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي الذي قتل أخوه في نخلة، فقال: "هذا يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينيك، فقم فأنشد خفرتك وتقتل أخيك". فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، ثم صرخ: "واعمراه. . واعمراه"، فحميت الحرب واشتد الناس واستوثقوا على ما هم عليه من البشر. وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عُتبة. فلمَّا بلغ عتبة قول أبي جهل: "انتفخ والله سحره"، قال: "سيعلم مصَّفرَ استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟". ثم التمس عُتبة بيضة (خوذة) ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش واحدة تسعة لعظم هامته، فلمَّا رأى ذلك تعمم على رأسه ببُرد له.

* * *

وعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أحسن تعبئة، بعد أنْ أوصاهم بالثبات والصبر، وقال لهم: "لا تحملِوا حتى آمركم، وإن هاجمكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوْكم"، ثم رجع إلى العريش فدخله وصاحبه أبو بكر في الدخول، ووقف سعد بن معاذ على باب العريش شاهرًا سيفه ومعه كوكبة من رجال الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفًا عليه من هجوم مباغث مِن قِبل العدو، وهيئت النواجب لركوبه إن إحتاج إليها.

وبدأت قريش الزحف، بخروج الأسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوفها، وكان رجلًا شرسًا سيء الخلُق، قاصدًا حوض الماء الذي أقامه المسلمون وهو يقول: "أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه". فلمَّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمَّا التقيا ضربه حمزة بسيفه فأطار بها قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره إلى الأرض تشخب رجله دمًا، ثم استمر يزحف حتى وصل إلى الحوض يريد أن يبر بيمينه، فأتبعه حمزة بضربة أخرى حتى قتله في الحوض.

ثم خرج بعد ذلك عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة يدعون إلى المبارزة، ونادوا: "يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا". فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار، وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة؛ فقالوا: "من أنتم؟" فقالوا: "رهطٌ من الأنصار"، قالوا: "ما لنا بكم مِن حاجة". ثم نادى مناديهم: "يا محمد، إخرج إلينا أكفاءنا مِ، قومنا"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي"؛ فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: "من أنتم؟" فسمى كل واحد منهم اسمه، فقالوا: "نعم، أكفاء كرام". فبارز عبيدة، وكان أكبر الثلاثة سِنًّا، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة. فأمَا حمزة فلم يمهل شيبة فقتله على الفور، كذلك لم يُمهل علي الوليد وقتله على الفور، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما جرحت صاحبه جراحة بالغة، فكر حمزة وعلي على عتبة وأسرعا في قتله، واحتملا صاحبهما عبيدة فحازاه إلى اصحابه، وقد قُطعت ساقه.

وهنا أهاج فنظر القتلى وماؤهم على أرض المعركة المشركين، وجن جنونهم لقتل ثلاثة من أشرافهم وكبرائهم وقادتهم، فهجموا على صفوف المسلمين هجومًا عاصفًا، فقام المسلمون برميهم بالنبال وهم ثابتون في أماكنهم، فما أن التحمت صفوف المقاتلين ببعضها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يحملوا عليهم ونادى قائلًا لهم: "والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابرًا محتسبًا، مُقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة". فكانت

وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (١٣ مارس ٦٢٤م) وانتهت عصر ذلك اليوم. وهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان بالحق والرغبة في الاستهشاد والطمع في دخول الجنة، كما وعدهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهبت عليهم رياح الجنة فهانت عليهم الحياة ولذت لهم الشهادة وتمنوا الموت في سبيلها. حتى أنَّ (عُمير بن الحمام) حين سمع وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يُقتل في هذه المعركة بالجنة رمي بتمران كان يأكل منها وهو يقول: "بَخٍ بَخٍ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة". وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتِل ونال الشهادة.

وأمد الله المؤمنين بروح من عنده فازداد حماسهم وتضاعفت قواهم، وأحس الواحد منهم بنفسه كُفئًا لعشرة من المشركين، وأنَّ يد الله فوق أيديهم، وأن الله تعالى يرمي العدو معهم. وأن الملائكة تساندهم وتشد من أزرهم وقد حضرت المعركة بإذن من ربهم. وقد ورد في صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزُرقي، وكان ممن شهر بدرًا قال: "جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدُون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة". وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر. هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه عليه أداة الحرب". ولقد أنزل الله تعالى ملائكة يوم بدر لا ليقاتلوا مع المسلمين ولكنَ ليثبتوا أقدامهم ولتطمئن، موجودهم، قلوبهم وثيقوا في نصر الله للمؤمنين، وهو النصر الذي وعده لنبيه وللمسلمين. وفي حال النبي هذه وأصحابه يوم بدر نزلت هاتان الآيتان الكريمتان: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين. وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف اللهُ عنكم وعلِم أنَّ فيكم ضعفًا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في عريشه، يتابع المعركة وقلبه متعلق بالله عز وجل ويدعوه تعالى بقوله: "اللهم أنشُدك عهدك ووعدك. . . اللهم إن تهلَك هذه العصابة لا تُعبَد بعدها في الأرض! اللهم نصرك الذي وعدتني. اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم"، فما زال يدعو ويتضرع حتى سقط رداؤه عن منكبيه فالتزمه أبو بكر فجعل يسوِّي عليه رداءه، وهو يقول له مشفقًا عليه مما به: "يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجزُ لك ما وعدك". واستغرق رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه ومناجاته لربه حتى غفا غفوة خفيفة ثم أفاق ضاحكاً مستبشراً يقول لأبي بكر: "أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع" (غبار المعركة). وأخذ رسول الله حفنة من تراب وقذفها على وجه رجال قريش وهو يقول: "شاهت الوجوه" ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه يشد من عزائمهم ويقوي مِن هممهم ويبشرهم بنصر الله لهم ويقول لهم: "شدُوا. . سيُهزم الجمعُ ويُولون المسلمون عليهم حملة صادقة، تصدعت لها جموعهم وأنهارت أمامها قواهم. وألأقى الله الرعب في قلوبهم، وهم يرون المسلمون يحصدون في رقاب إخوانهم، فقُتِل من قُتِل وأسرُ من أسُر وفي من المعركة منْ في ناجيًا بنفسه، فانقض المَسلمون عليهم يقتلون ويأسرون ويغنمون.

وقد نزل في ذلك الموقف قوله تعالى: "(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم. إني مُهِدكم بألف من الملائكة مُردفين. وما جعله اللهُ إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إنَّ الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاسَ أمنةً ويُنزِل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلَ بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومَنْ يشاقِق اللهَ ورسوله فإنَّ الله شديد العقاب).

وكان النصر الذي وعد اللهُ به نبيه والمؤمنين، وكانت الهزيمة لأعداء الدين؛ فما كاد النهار ينتصف حتى انجلت المعركة عن هزيمة قريش ومقتل سبعين رجل من مقاتليها وأسر سبعين

آخرين منهم، واستشهاد أربعة عشر رجل من المسلمين، وقد قُتل في هذه المعركة أشراف قريش من بينهم: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة والوليد بن عُتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وبنيه بن الحجاج وأخوه منبه بن الحجاج.

وبعد المعركة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدُفن شهداء المسلمين حيث استشهدوا بملابسهم، ودون صلاةٍ عليهم، وهذا مكان الشهداء الذي بشَّر الله تعالى به عنه بأنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون وذلك في قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين تتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون).

كذلك تعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى قريش وأمر رجاله أن يحضروا "قليبًا"، والقليب هو البئر الذي لا ماء فيها، في مكان المعركة مهجورًا، فلمَّا دفنوا في القليب، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس القليب يناديهم بأسمائهم فردًا فردًا، ثم سألهم قائلًا: "يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكه ر بكم حقًا؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقًا". فقال عمر رضي الله عنه: "يا رسول الله أتكلِم أجسادًا لا أرواح فيها؟" فقال له عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم أعلم لِما أقول منهم".

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي رواحة وزيدًا حارثة ليزفا بشرى السفر للمسلمين بالمدينة، فوصلاها وقت الظرف المسلمين من دفن السيدة (رُقية) إبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليجمع بين الفرج والحزن، الفرح لا حراز النصر على المشركين في بدر، والحزن لفقدانه ابنته وفلذة كبده (رقية)، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لنفسه العالية وإيمانه الزائد، كابد حزنه وأخفاه في قلبه حتى لا يفسد على المسلمين نشوة انتصارهم على أعداء الله. وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه أسارى المشركين وساق أمامه ما غنمه منهم.

وحين وصل إلى منطقة (الصفراء) أمر بقتل اثنين من الأسرى وهما: النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط، وكانا من أشد المشركين إيذاءً لرسول الله وللمسلمين. وعندما علم المسلمون بالمدينة بمقدم القوات المنتصرة خرجوا في استقبالها عند الروحاء على بعد ٣٥ ميلًا منها ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فدخلها من ثنية الوداع، في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من رمضان فتلقاه أهل المدينة بالودفوف وهم ينشدون:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا

جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة

مرحبًا يا يخر داع

ولمَّا وصل خبر الهزيمة إلى مكة جنَّ جنون مَنْ بها، وسادهم الحزن وركبهم الهم والغم وأدركوا سوء العاقبة والمصير. وقامت نساءُ القوم يندبن وينتحبن ويشققن جيوبهم ويحثين التراب على رؤوسهم على مَنْ قُتل من رجالهن. وكانت أشد النساء حزناً وانتحابًا (هند بنت عتبة بن ربيعة)، زوج أبي سفيان وأم معاوية، لقتل والدها وعمها وأخيها في بدر. وقد نذرت بألا تستحم ولا يقرب جسدها الماء ولا تتطيب ولا يقرب أبو سفيان مِن فراشها حتى تأخذ بثأر مَنْ قُتِل من أهلها وأعز الناس على قلبها. ونذرت على الأخص أن تأخذ ثأرها من حمزة قاتل أبيها وعمِها.

ووقع خبر الهزيمة كالصاعقة على رأس أبي لهب بن عبد المطلب، عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وانقلب كمده وحزنه إلى حمى شديدة انتابته وأتت عليه وكانت سبب موته بعد

هزيمة المشركين في بدر بسبع ليالٍ، فانقلب إلى النار التي وعده الله بها هو وزوجه حين أنذر الله تعالى بذلك في قوله: (تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارًا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد). وكان أبو لهب تعلل بالمرض ولم يخرج مع الخارجين إلى القتال يوم بدر وأرسل من ينوب عنه فيه، فأصابته سهام المعركة وهو في عُقَر داره.

وبعد معركة بدر، أعلن (عبد الله بن أُبَيّ بن أبي سلول)، رأس النفاق في المدينة، الدخول في الإسلام، ليس عن إيمان واقتناع، بل نفاقًا ومراوغةً منه لتحقيق أطماعه في السيادة والرئاسة على المدينة في ظل حكم الدولة الجديدة.

ولقد بيَّن الله تعالى فضله على المسلمين في نصر بدر وتأييده لهم، وقد كانت أول تجربة عسكرية لهم يخوضونها دون أن تكون لهم التجربة والخبرة القتالية ودون أن يكون لهم مِنْ عُدد ولا سلاح إلا سلاح الإيمان بالله والثقة في نصره تعالى، مصداقًا لقوله تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقداكم).

وقد نزل في حق هذه المعركة قوله تعالى: (وقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقول الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم رُبكم بثلاث آلاف من الملائكة منزلين. بلى أن تصبروا وتتقوا يأتوكم من نورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين).

ويتضح من هذه الآيات أنَّ موقف المسلمين، يوم بدر، كان أضعف من موقف أعدائهم من ناحية الاستعداد المادي في العدد والعُدد والسلاح والخبرة القتالية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم طمأنهم بأنَّ الله معهم وأنه سبحانه يدافع عن الذين آمنوا وأنه قد أعد ثلاثة آلاف من ملائكة يكونوا في وضع الاستعداد لمعاونتهم والوقوف إلى جانبهم إذا ما مالت كفة الحرب في غير صالحهم، وفي حالة زيادة صبرهم وشدة تقواهم وعظيم ثقتهم في نصر الله لهم سوف

يزيد هذا العدد إلى خمسة آلاف ملَ: من الملائكة. وبهذا يعلم الله تعالى عباده المؤمنين أنه كلما زادت درجة المحارب المؤمن من الصبر والتقوى والإيمان بالله والاستمساك بحبله زادت القوة الإلهية المساندة له. ولقد وقفت الملائكة في وضع الاستعداد للقتال، يوم بدر، تثبيتًا للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتأكيدًا في رغبتهم في القتال حتى الموت والاستشهاد في سبيل الله. ولذلك كان النصر في بدر، أولًا وأخيرًا، لمجهود المقاتلين المسلمين، وكان التثبيت والنصر من عند الله العزيز الحكيم. فالملائكة لم تقاتل يوم بدر مع المسلمين، ولو قاتل ملَك واحد منهم لأبادوا كل جيش المشركين، ولمَا قُتل واحدٌ من جند المسلمين. ولكن الله تعالى ترك المسلمين يقاتلون بأنفسهم ليأخذ الثواب في الدنيا من كُتب له الحياة والنجاة وليدخل الجنة من استُهِد منهم. وبذلك يُثبت الله للمسلمين أنه بقوة أنه بقوة الإيمان وبروح التضحية والاستبسال في سبيل نصرة الدين ودعوة الإسلام تستطيع هذه القلة المؤمنة، دون حاجة لعون الملائكة، أن تنتصر على الكثرة الكبيرة الباغية من الأعداء ما داموا مع الله وما دام الله معهم. وقد أبلغهم الله تعالى أنَّ النصر ليس بكثرة العدد ولا بقلته، إنما النصر من عند الله (وكم مِن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله).

لم يفعل المسلمون، يوم بدر، مثلما فعل بنو إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام، حين تخاذلوا عن الحرب معه وظنوا بأنَّ الله سوف يحارب لهم وهم جالسون، حين قالوا لنبيهم: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون). ولكنهم قاتلوا وجاهدوا وأقبلوا على الموت في استبسال وشجاعة؛ فكان لهم التأييد والنصر مِن قِبل الله تعالى، وقد قال في ذلك وقوله الحق: (وكان حقًا علينا نصر المؤمنين).

وفي المدينة اجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته للنظر في أمر أسارى قريش، وهي المرة الأولى التي تقع أسرى في يده ولم يكن لذلك سابقة، وكانت تلك عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يريد أن يحسم في أمر من الأمور لم ينزل فيه وحي. وقد كان عدم نزول الوحي في تلك المسائل تفويضًا من الله تعالى لرسوله أن يبت في الأمر وفق رأيه،

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يستبد برأيه وإنما يأخذ رأي كبار صحابته في تلك الأمور. وفي أمر الأسرى انتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم نزول وحي عليه بصددهم، فلمَّا لم ينزل استشار صحابته في كيفية التصرف معهم. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن مسعود قال: "لمَّا كان يوم بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر. وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك، اضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارًا. فدخل رسول الله ولم يرد عليهم شيئًا، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: "إنَّ الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإنَّ الله ليشُد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. أنتم عالة، فلا يُبقيَّن أحدٌ إلا بفداء أو ضربة عنق".

ولقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر بقول الفداء عن الأسرى، ولقد عاتب الله رسوله على أن قبِل الفداء وآثره على الإثخان في قتل العدو، فنزل قوله تعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عَرض الدنيا واللهُ يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتابٌ مِ، الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم). على أن الله قد تجاوز لرسوله عن هذه الهفوة وأحلَّ له وللمسلمين ما أخذوا من الغنيمة فقال سبحانه: (فكلوا مما غنمتم حلالًا طيبًا واتقوا الله إن الله غفور رحيم).

وقد مَّن النبي (ص) على فقراء الأسرى فأطلقهم بغير فداء، وجعل فداء بعضهم ممن يعرفون القراءة والكتابة أن يعلِم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، أما أغنياؤهم فأبقاهم حتى يفتديهم أهلوهم، وكان فداء الواحد منهم يتراوح ما بين ألف درهم وأربعة آلاف درهم، بحسب درجة ثرائه. وكان ممن منَّ عليهم رسول الله بالإطلاق دون فداء: عمر بن عبد الله الجُمحي، وكان محتاجًا ذا نبات، وأخذ عليه عهدًا ألا يظاهر المشركين عليه. وكان في السارى أبو العاص بن الربيع ختَن رسول الله صلى الله عليه وسلم (صهره)، وزوج إبنته الكبرى زينب،

وكان من رجال مكة المعدودين، مالًا وأمانةً وتجارة، وكانت خديجة خالته، فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه، وكان رسول الله لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، فزوجها له، وكانت خديجة تعده بمنزلة ولدها. وكان الإسلام قد فرق بين زينب حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع، إلا انَّ رسول الله لم يفرق بينهما فأقامت معه على إسلامها وهو على شِركه حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا صارت قريش إلى بدر سار معهم أبو العاص بن الربيع فوقع في الأسر، وأحُضر مع السارى إلى الرسول بالمدينة. فلمَّا بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص عند زواجه منها. فلمَّا رأى رسول الله القلادة رق لها رقة شديدة، وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها اسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا"، قالوا: "نعم يا رسول الله" فأطلقوه وردوا عليها الذي لها. وكان رسول الله قد أخذ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب ووعد بذلك.

وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة حين فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل فتح مكة، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام، بمال لقريش، فلمَّا فرغ من تجارته لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه، فهرب منهم وأقبل تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله. وطلب رسول الله من رجال السرية إرجاع مال أبي العاص إليه، فأرجعوها، فاحتمل المال إلى مكة وأعطاه لأصحابه ثم قال لهم: "يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه" قالوا: "لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا" قال: "فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفي أن تظنوا أني أردتُ أن أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت". ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرد عليه الرسول زينب على النكاح الأول بعد ست سنين.

وكان في الأسارى كذلك العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطمع أن يمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطلقه بلا فداء، فأبى عليه إلا يدفع فديته وفديته نفر من أهله ومن حلفائه كانوا معه.

وكانت نتائج انتصار غزوة بدر هامة بالنسبة للمسلمين؛ فإضافة للمكاسب المادية التي اكتسبها المسلمون من المشركين ليتقووا بها، فإن المغنم المعنوي كان أكبر، فهذا هو النصر الأول لهم، الذي ثبَّت أركان دولتهم في المدينة بالذات وفي كل الحجاز، وأرهب أعداءهم ممن كانوا يتربصون بهم الدوائر من اليهود والمنافقين ومن الذين كانوا لا يزالون على مِلأة الكفر. وكانت معركة بدر، شأنها شأن المعارك الأولى الحاسمة والمصيرية في تاريخ أي دعوة أو حركة؛ إذ لابد من إحراز النصر فيها لتثبيت الأقدام وترسيخ قواعد البنيان. وها هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود إلى المدينة وهو يحمل إكليل الغار، فرحًا بنصر الله له واثقًا من أمر دينه وصِدق دعوته. ومن هذا المنطلق انطلق عليه السلام ليقضي على كل معارفين لدعوته وليقيم دولة الإسلام في كل جزيرة العرب، وغمًا عن قريش، ولو كره المشركون.

وبعد هذه الغزوة، غزوة بدر، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتزويج ابنته الصغرى فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب، وكانت فاطمة آنذاك إبنة خمس عشرة سنة، وكان علي في الحادية والعشرين من العمر. كذلك تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكان قد خطبها لنفسه بمكة قبل الهجرة.

كانت غزوة بدر عميقة الأثر في نفوس المسلمين، وفي نفوس أعدائهم من المشركين والمنافقين واليهود. فأما المسلمون في المدينة فقد أدى نصر المسلمين إلى اشتداد سواعدهم وتقوية شوكتهم وازدياد يقينهم بأنَّ الله معهم، فاصبحوا لا يخشون قوة عدهم ولا يخشون إلا الله. كذلك اطمأنت قلوب المسلمين المستضعفين في مكة فازدادوا إيمانًا على إيمانهم وثباتًا على عقيدتهم، وأدركوا أنَّ يوم الخلاص بات قريبًا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد

اغتباطًا بهذا النصر وأكثر تفاؤلًا وأملًا في المستقبل، رغم إدراكه لتربص المشركين والمنافقين له وللإسلام. فقريش لابد ولها أن تفكر في الثأر والانتقام ولن تسكت لما حدث لها يوم بدر. والمنافقون كانوا ألد أعداء الإسلام وأشد خطرًا عليه، فهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويتمنون في داخلهم القضاء على الإسلام ويتحينون كل فرصة للإيقاع به والنيل منه. أمَّا اليهود فقد تملكهم الحقد والحسد على المسلمين لنجاحهم يستعلى بعد غزوة بدر، فلم يطيقوا بعدها إسرار العداوة فأعلنوها صريحة وجاهروا بها. ومنذ ذلك الحين أخذ سمة العلاقة بين المسلمين واليهود في المدينة تنقلب إلى عداء ظاهر تطور واستحكم، حتى أن اليهود أخذوا في الكيد للإسلام والتي مر عليه ودخل الصراع بينه وبينهم إلى مرحلة الحرب والقتال.

وغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد بدر، غزوات صغيرة، لم يلق فيها عدو ولم يقاتل، وهذه الغزوات هي، غزوة بني سليم (بالكدر)، وهو اسم المنطقة التي كانت تسكنها القبيلة. وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ديارهم، وقد بلغه تجمعهم لحربه مع بني غطفان. بعد عودته إلى المدينة من بدر في أوائل شهر شوال. وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مياه بني سليم بقوامة ثلاث ليال دون أن يخرج أحد من بني سليم لقتاله، فرجع رسول الله إلى المدينة دون أن يلق كيْدًا.

كذلك غزى رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة (السويق)، وهي تُنسب إلى السويق، الذي أخذه المسلمون من قريش في أعقاب فرارهم. وكان أبو سفيان، لمَّا رجع من مكة من بدر، أقسم على ألا يمس رأسه ماء من خبابة حتى يغزو المدينة، فخرج في مائتي رجل من قريش ليبر بيمينه؛ فوصل برجاله إلى منطقة قرب المدينة يُقال لها (العريض) فأحرق بعض نخلها، وقتل رجاله اثنين من الأنصار وجدهما في حرثٍ لهما ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. ولحق بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين علم خبرهم؛ ولكنهم هربوا تاركين سوْيقًا كثيرًا لهم وراءهم؛ فاغتنم المسلمون هذا السويق، وعادوا للمدينة؛ فعُرفت هذه الغزوة بغزوة السوْيق (والسويْق طعامُ يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ممزوجًا بعسل وسمن).

ولمَّا رجع رسول الله، غزى منطقة نجد يريد قبيلة (غطفان)، التي كانت قد تحالفت مع بني سليم لحربه، فوصل إلى منطقة (أنمار)، وهي ناحية من نواحي نجد، ومكث هنالك شهراً دون أن يخرج إليه بنو غطفان لقتاله؛ فعاد إلى المدينة دون أن يحارب.

ثم غزى بعد ذلك، عليه السلام منطقة (نجران)، وأقام بها شهرًا، دون أن يلق أحدًا من القبائل التي سمع عن تجمعها هناك واستعدادها لقتاله.

كذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة لقطع الطريق أمام تجارة لقريش ولأبي سفيان، فيها صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وقد سلكت هذه القافلة التجارية طريقاً غير طريقها المعتاد إلى الشام بعد وقعة بدر. فسلكوا طريق العراق، وكانت القافلة تحمل فضة كثيرة. وقد التقى زيد بهذه القافلة على ماء يقال له (القردة)، وهو من مياه نجد، فأصاب عيرهم وما فيها وهرب رجال القافلة. وقدم زيد بالعير وما تحمل إلى المدينة. وقد قرُر ثمن البضائع التي استولوا عليها بمائة ألف درهم. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوزيع ذلك الفيء على المسلمين. وبعد تلك السرية بشهرين تزوج الرسول من حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت أرملة في الثامنة عشرة من عمرها لزداد صداقته بعمر بعد أن تقوت بمصاهرته صديقه أبي بكر بزواجه من عائشة، وفي ذلك الوقت أنجبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنها الحسن بن علي.

وتجددت أحزان بدر عند القرشيين بسبب ما حصل المسلمون عليه من غنائمهم، كذلك تملك الحقد والحسد قلوب يهود المدينة على انتصارات المسلمين، وكانوا يتمنون لهم الهزيمة؛ رغم موادعتهم لهم وإعطائهم الأمان.

وبدأ تحرش اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم بنقض تعاهدهم معه عقب غزوة بدر مباشرةً لما بدر من يهود (بني قينقاع)، حلفاء عبد الله بن أبيَّ بن أبي سلول. وكان بنو قينقاع الذين سكنوا وادي بطحان، بداخل المدينة، أضعف يهود المدينة، ولم يكن ضعفهم بسبب قلة أعداهم، ولكن بسبب عملهم كحرفيين وبخاصة في حرفة الحدادة. وقد كان في إمكانهم أن

يجمعوا حوالي سبعمائة مقاتل منهم في أي مواجهة مع المسلمين، منهم حوالي أربعمائة رجل مسلَّحين تسليحًا جيدًا.

وكانت بداية حرب الرسول لبني قينقاع حين نقضوا عهد الصحيفة بينهم وبينه، وذلك حين اعتدى أحد رجالهم في سوق المدينة على امرأة مسلمة وتحرش بها وأصابها الأذى منه. وكانت امرأة مسلمة قد جاءت إلى سوق بني قينقاع ببضاعة لها فباعتها وجلست إلى صائغ يهودي من صاغة السوق ليصنع لها حلية تلبسها، وكانت المرأة منقبة، فطلب منها اليهودي أن تكشف عن وجهها فأبت. فعمد الصائغ، كيدًا لها، أن يكشف عن عورتها، وذلك بعقد طرف ثوبها إلى ظهرها؛ فلما قامت انكشف سوأتها فضحك بها وضحك الباقون من تواجدوا عند الصائغ، فصاحت المرأة مستغيثة بالمسلمين. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله جزاء فعلته، فشدت جماعة من اليهود إلى جوار حانوت الصائغ اليهودي فقتلوا الرجل المسلم؛ فاستصرخ أهل الرجل المسلم القتيل المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون وهاجموا اليهود ووقع الشر بين الطرفين. وسرعان ما انسحب يهود بني قينقاع إلى حيهم يمتنعون داخله وراء حصونهم. وظن اليهود أنَّ حليفهم ابن أبيَّ سوف يتدخل لإنهاء الخلاف بينهم وبين المسلمين وسوف يهب بقية إخوتهم من يهود بني النضير وبني قريظة لنصرتهم إذا ما تعرضوا لهجوم من جانب المسلمين. فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبهم وخاطبوه من وراء حصونهم، وقال لهم: "يا معشر يهود، احذروا من الله أن ينزل بكم ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم".

فرد اليهود على الرسول في صلف قائلين: "يا محمد؛ إنك ترى أنا قومك؛ لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة. إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنَّا نحن الناس". فحاصرهم رسول الله في حصونهم مدة خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة حتى انهارت مقاومتهم، فاستسلموا، فقام عبد الله بن أُبيَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمكنه الله منهم، وطلب لهم منه العفو. فوافق رسول الله على خروجهم من المدينة خلال ثلاثة أيام

تاركين أراضيهم للمسلمين. فخرجوا وارتحلوا إلى شمال المدينة حيث يقيم أقرانهم من اليهود في منطقة (أذرعات) ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال والسلاح. وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، وكانت شيئًا كثيرًا. فاحتجز رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمس من هذه الغنيمة لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ووُزع الأربعة أخماس على المقاتلين. وهكذا أجُلي بنو قينقاع من وسط المدينة بسبب بغيهم ونقضهم العهد ومبادأتهم بالعدوان.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (محمد بن مسلمة الأنصاري) ليغتال (كعب بن الأشرف)، أحد زعماء اليهود في المدينة من بني النضير، وكان قد عاد من مكة بعد غزوة بدر أشدَّ ما يكون عداوة للنبي وأفحش ما يكون لسانًا في نساء المسلمين، حتى ضاق به صدر رسول الله ورغب في الخلاص من شهر. فقال عليه الصلاة والسلام: "مَن لي بابن الأشرف؟"، فقال ابن مسلمة: "أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله". قال: "فافعل إن قدرت على ذلك". فذهب إليه ابن مسلمة وقتله وهو نائم في فراشه في داره وحصنه، وكان حديث عهدٍ بعُرس.

غزوة أُحد:

كان وقع غزوة بدر قاسيًا على أهل مكة، قابلوه بالحزن والألم، الذي سرعان ما تحول إلى حقد وثورة وغل في القلوب والنفوس ورغبة عارمة في الانتقام والأخذ بالثأر لِما اصيب به يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ومن نجا من القتل منهم وفر هاربًا عائدًا إلى مكة. فمشى عبد بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في عير قريش التي رجع بها سالمةً تجارة. فقالوا: "يا معشر قريش إنَّ محمدًا قد وَتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا لمن أُصاب منا". ففعلوا، وفيهم أنزل الله تعالى قوله: (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكونُ عليهم حسرة ثم يُغلبَون والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون).

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب وأصحاب العير مع من انضموا إليهم من القبائل وليسوا منهم (الأحابيش) ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة. وأعلن أبو سفيان رصد أرباح القافلة التي نجت لقريش للإعداد للحرب، وقدُرت قيمتها بخمسين ألف دينار، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. ونجحت قريش في جمع جيش تكوَّن من حوالي ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وغيرها من سائر القبائل، بينهم مائتي فارس بخيولهم وعدتهم والباقون من المشاة، وتزود الجيش بثلاثة آلاف بعير تحمل المؤنة والزاد. وخرج مع الجيش عدد من النسوة في الهوادج التماسًا للحفيظة وضمانًا بعدم فرار الرجال. فخرج مع أبي سفيان زوجته هند بنت عقبة بن ربيعة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمر الثقفية، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو، وخرج طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية، وخرجت خناس بنت مالك، أم مصعب بن عمير مع إبنها أبي عزيز بن عمير، وخرجت عُمرة بنت علقمة إحدى نساء بني عبد مناة بن كنانة.

وكان دور النساء في هذا الجيش الغناء وتشجيع المقاتلين على القتال بقيادة هند بنت عتبة، التي خرجت لتثأر لمقتل أبيها وأخيها وعمها يوم بدر، وقد استأجرت غلامًا حبشيًا لجبير بن مطعم، يدُعي (وحشي)، وهو ماهر في الرمي بالرمح والحراب، ووعدته بالعتق إذا هو قتل حمزة قاتل أبيها وعمها. وكانت هند كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت: "ويْها أبا دسمة أشفِ واستشف"، وكان وحشي يُكني بأبي دسمة. فأقبلت قوات المشركين بنسائها حتى نزلوا (بعينيْن) بجبل، ببطن السنجة من قناة على شفير الوادي، مقابل المدينة.

فلمَّا سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قد نزلوا، قال عليه السلام للمسلمين: "إني قد رأيتُ والله خيرًا، رأيتُ بقرًا ورأيتُ في ذباب سيفي (حد سيفي) ثلمًا (كسرًا في حده)، ورأيتُ أني أدخلت يدي في درعٍ حصينة فأولتُها المدينة".

قال ابن هشام: "وحدثني بعض أهل العلم أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "رأيتُ بقرًا ليُ تذبح. فأمَّأ البقر فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيتُ في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يُقتل".

قال ابن إسحاق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإن رأيتم أن تُقيمُوا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرِ مُقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها". وكان رأي عبد الله بن أبُي بن أبي سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأيه في ذلك، وألا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج.

فقام رجال من المسلمين ممن أكرم اللهُ بالشهادة يوم أُحد وغيره ممن كان فاته يوم بدر: "يا رسول الله، أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جُبنا عنهم وضعفنا". فقال ابن سلول: "يا رسول الله أقِم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا اصاب منِا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا".

فلم يزل الناسُ برسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا مِن أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل بيته فليس لَأْمته (عُدة الحر) وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم، وقد قدم الناس لاستكراه رسول الله على الخروج، وقالوا "استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك" فلمَّأ خرج عليهم قالوا: "يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك" فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد دعوتكم ٔلى هذا

الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل وحتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم".

وفي أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٥ ميلادية)، خرج جيش المشركين من مكة لمهاجمة المدينة، يقوده أبو سفيان بن حرب، ويحمل لواءه طلحة بن أبي طلحة، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وعلى رجَّالته صفوات بن أمية، ثلاثة آلاف مقاتل في أكمل استعداد وأتم تعبئة، من بينهم مائتان من الفرسان المدربين على القتال على ظهور الخيل، وسبعمائة من الدارعين المحصنين بالزَّرد والدروع الواقية، يحملهم عدد كبير من الركائب ويتبعخم حشد كبير من العبيد والغلمان لقضاء حوائجهم وحراسة متاعهم.

وخرج مع العبيد "وحشي"، غلام جُبير بن مطعم، وقد أغراه سيده بقتل حمزة بن عبد المطلب قاتل طعيمة بن عدي، عم جبير، كما أغرته هند بنت عتبة ووعدته إن قتله باليخر الكثير.

وكانت قريش، قد خرجت على خطة موضوعة هي أن تفاجئ المسلمين في عقر دارهم قبل أن يستعدوا لملاقاتهم، من أجل ذلك كتمت قريش أمرها على المسلمين وخرجت تواصل السير في سرية تامة حتى نزلت بوادي أُحد، على نحو خمسة أميال من المدينة. ولولا أن العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب إليه بخروج قريش لأطبقت قريش على المدينة في غفلة من أهلها. فقد ذكر الرواة أنَّ العباس كتب كتابًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بخبر قريش وبما أُعدت له من الرجال والعتاد، وبعث بهذا الكتاب مع رجل من بني غِلإر، فبلغ لمدينة بعد مسيرة ثلاث ليال والتقى بالرسول عند قباء وسلمه الخطاب فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيَّ بن كعب فقرأه عليه فاستكمة الخبر، لكن الخبر شاع بين الناس، وذلك ما كانت لا تريده قريش، فقد أرادت مباغتة المسلمين وهم دون استعداد للقتال.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيونه يستطلعون له خبر القوم، فجاءوا إليه وأخبروه بنزولهم وادي أحُد وقدَّروا له أعدادهم وعتادهم، وفي الصباح جمع النبي صلى الله عليه وسلم أهل الرأي من اصحابه وجعلوا يتشاورون كيف يلقون العدو، وانتهت المشاورة بضرورة الخروج للقائهم خارج المدينة.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود جيشه، خارج المدينة، للقاء جيش قريش، وقد عقد ألويةً ثلاثة، فدفع لواء الأوس إلى أُسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر، ودفع لواء المهاجرين إلى مُصعب بن عُمير. وكان عدد الجيش ألف مقاتل فيهم مائة من لابسي الدروع، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة السادس من شوال، وقد أمرَّ على المدينة ابن أم مكتوم يُصلي بالناس. وقد ظل يهدد المدينة في مواطنهم ولم يتحركوا بسبب دخول ليل يوم السبت عليهم الذي يحرُم فيه القتال عندهم.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى مكانًا يُقال له (الشيخين) فعسكر به، وبات به ليلة، ثم تحرك في السَّحَر بجيشه حتى بلغ بستانًا بين مكة والمدينة يُعرف (بالشوْط) في منتصف الطريق وهناك انخذل عن الجيش عبد الله بن أبي بن أبي سلول بثلث الجيش، ممن تبعه مِن قومه من أهل النفاق والريَّب، بحجة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ برأي الصبيان في الخروج ولم يأخذ برأيه في البقاء في المدينة والتحصن فيها. وقد أحدثت هذه الفِعلة الشنيعة خلخلة عظيمة في بناء جيش المسلمين وزلزلة شديدة في نفوسهم، حتى لقد همت بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس أن تخروا حزو أصحاب ابن أبُي في الانسحاب، لكن الله عصمهم بإيمانهم مفادوا إلى صفوف الجماعة وساروا الجيش إلى حيث يسير. وكانت تلك مناورة من رأس النفاق يحقق من وراهئا أطماعه في الرئاسة في المدينة في حالة هزيمة جيش المسلمين.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه حت وصل إلى جبل أُحد، وهو جبلٌ مرتفع به مسالك وشِعاب وتقطعه عدة وديان، وهو يلتف على السهل العتيق الذي وقفت عنده قريش.

وفي داخل الجبل حُفر تصلح للاختفاء في داخلها ورميْ النبال منها وقد سُمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أُخر هناك. فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه على تل مشرف يُقال له (جبل عينين)، وهناك صفّ أصحابه وأعدهم للقتال جاعلًا ظهورهم إلى الجبل يحميهم، ووجههم إلى المدينة يستقبلون الوادي ويُشرفون عليه من أعلاه وجعل خمسين من رماة النبِل على جبل عينين، عليهم أمير هو (عبد الله بن جُبير)، وأمرهم أن يحموا ظهور المسلمين عند القتال، وألا يمكنوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وألا يبرحوا مكانهم هذا سواء أكان النصر للمسلمين أم عليهم. وطلب منهم أن يرُموا الخيل كلما أقبلت عليهم بالنبِل، وأكد الوصية عليهم ألا يغادروا مواضعهم وإن رأوا اصحابهم أشلاء تخطفهم الطير حتى يرسل رسول الله إليهم.

ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى مصعب بن عيمر، أخى بني عبد الدار.

واستل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه (ذو الفقار)، وقال: "من يأخذ هذا السيف بحقه؟"، فقام إليه رجال فأمسكن عنهم، حتى قام إليه (أبو دجانة سِماك بن خرشة)، أخو بني ساعدة، فقال: "وما حقه يا رسول الله؟" قال: "أن تضرب به العدو حتى ينحني"، قال: "أنا آخذه يا رسول الله بحقه" فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال في الحرب، إذا كانت، وكان إذا دخلها اعتم بعصابة له خمراء تُعرف "بعصابة الموت" فاعتصب بها علِم الناسُ أنه سيقاتل. فلَّما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر: "إنها لمشيةٌ يبغضها الله إلا في مثِل هذا الموطن".

وعلى الجانب الآخر، وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهشًا في صف جنوده، ظهر القرشيون في السهل المنبسط تحت التل، وصار الجيشان وجهًأ لوجه. وظهرت نساء قريش يمشين بين الصفوف ويضربن الدفوف وينشدن الأناشيد تحريضًا على القتال وإثارة للحمية والحماسة بين الرجال. وقالت هند بنت عتبة فيما تقول:

إنُ تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق

فراقُ غيرُ وامق

وكان شعار رسول الله صلى الله عليه وسلم أُحد: أَمِت. . أمِت.

وبدأت المعركة واقتتل الناس، وقام أبو سفيان يشجع رجاله ومن ورائه هند وبقية النسوة ينشدن ويغنين ويشجعوهم على القتال، وحمرَّ وطيس المعركة وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس، فجعل لا يلقي أحدًا من العدو إلا قتله. وكان من ضمن مَنْ قابلهم هند بنت عتبة، وهي في زي الرجال، فحمل عليها بالسيف ولمَّا ولولت علم أنها امرأة لم يقتلها كرامةً لسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب به امرأة. وأبلى في القتال كلٌ من علي بن أبي طالب والضنر بن أنس ومصعب ابن عمير، وسعيد بن الربيع. وأخذ حمزة بن عبد المطلب يقتل في الكفار ويحصد بسيفه رؤوسهم، وبدى في المدان كالجمل الأورق (المغبر اللون). وفي غمرة حصد حمزة لرقاب العدو تربص به وحشي ورماه غيلةً بحربته فأصابت أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجليه فقتلته.

قال وحشي، غلام جبير بن مطعم، "والله إني لأنظر إلى حمزة يُهد الناس بسيفه لا يُبقي به شيئًا، مثل الجمل الأورق، إذا تقدمني إليه سباع بن عبد العُزى، وكان أحد النفر الذين يحملون لواء قريش، وكانت أمه تُختِن البنات بمكة، فقال له حمزة: هلمَّ إليَّ يا ابن مقطعة البظور، فضربه بسيفه فقتله وما أخطأ رأسه، وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلُب فوقع، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي، ثم تنحيتُ إلى المعسكر، ولم تكن لي بشيء حاجةٍ غيره".

وأنزل الله نصره على المسلمين، أول الأمر، وصدقهم وعده ووقعت الهزيمة بالمشركين فولوا مدبرين حتى انتهوا إلى مواضع نسائهم في مؤخرة الجيش.

ولمَّا رأى الرماة النصر يتحقق، وأيقنوا من انتهاء المعركة لصالحهم، تطلعوا إلى جمع الغنائم، ونسوا تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، وتجاهلوا نصح قائدهم عبد الله بن جبير ولم يستمعوا له، وتركوا مواقعهم ونزلوا من أعلى الجبل يشاركوا أقرانهم الرجَّالة في جمع الغنائم. وهنا، وبنرظة من القائد المحنك خالد بن الوليد، لمح هذا التصرف الخاطئ القاتل من رماة المسلمين، فاغتنم الفرصة وسارع باعتلاء جبل أُحد بقواته محتلًا مكان الرماة بعد أن تخلص من القلة القليلة التي ثبتت في مكانها والتزمت بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى الجبل مع قائدهم عبد الله بن جبير. ومن أعلى الجبل أخذ خالد ورجاله يرمون المسلمين بنبالهم. وفوجئ المسلمون بذلك الرميْ، فتغير سير المعركة، وانقلب النصر الوشيك إلى هزيمة بعد أن ارتبكت الصفوف وهرب منْ هرب من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وقف يقاتل بسيفه في شجاعة نادرة غير عابئ بالموت. وقد أُلقي على رسول الله حجر أصاب شفته وكسر إحدي ثنيته، وأصيب وجهه الكريم بجرح غائر على أثر ضربة في وجهه وجهها إليه ابن قميئة. وفقد رسول الله توزنه فوقع على صخرة، وصاح صائحٌ من المشركين أنَّ محمدًا قد قُتِل. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع الوصول إلى أحد منحورات الجبل بسلام بفضل التفاق أصحابه حوله ودفاعهم عنه بأجسادهم. وقام أبو عبيدة بن الجراح بإخراج حلقتيْ المغفر من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتص أبو سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ازدرده. وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الدم عن وجهه الشريف وهو يقول: "كيف يُفلحُ قومٌ خضبوا وجه نبيهم وهو يدعو إلى ربهم؟"، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون).

وقد قاتل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون رسول الله حين وقع على الصخرة، وكانوا خمسة من الأنصار من بينهم عمارة بن يزيد بن السكن الذي قُتِل، وأبو دجانة، الذي ترَّس نفسه دون رسول الله وهو منحن عليه يقع بنْل العدو في ظهره حتى كثُر فيه دون أن

يتحرك عن موقفه. وقاتلت (أم عمارة)، نُسيبة بنت كعب المازنية دفاعًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي جريحة تنزف دماً على أثر ضربة ضربها لها ابن قميئة. ورمى سعد بن أبي وقاص بالنبل مدافعاً عن رسول الله، وقاتل طلحة بن عبيد الله قتالًا شديدًا دفاعًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال ابن إسحاق: "ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها وقد كان رسوله الله قد ضعُف، فلمَّا ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ: أوجب طلحة (أي وجبت له الجنة) حين صنع برسول الله ما صنع". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق طلحة: "مَنْ أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى الخلق بن عبيد الله".

ووقع الخوفي في قلوب المسلمين حين سمعوا ابن قميئة ينادي بقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابن قميئة الليثي قد قتل مصعب بن عمير وظنه رسول الله لشدة الشبه بينهما وفرح بذلك.

قال ابن إسحاق: "انتهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بيده؟ قوموا فيموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتِل. ووُجدت به يومئذٍ سبعين ضربة، فما عرفه أحد إلا أخته، عرفته ببنانه.

وقد أصيب عبد الرحمن بن عوف في فمه حتى كسرن ثنيته، وجُرح عشرين جراحة أو أكثر، اصابه به بعضها في رجله فعرج.

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قُتِل، وكان الذي قتله ابن قميئة، فلما قتل أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى علي بن أبي طالب، وقاتل علي دون رسول الله مع من قاتل دونه من أصحابه.

وقاتل حنظلة بن أبي عامر، والتقى بسيفه مع أبي سفيان فغلبه، ولمّا استعلاه ليقتله رآه شداد بن الأسود، فضربه شداد فقتله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ صاحبكم، يعني حنظلة، لتغسله الملائكة، فسألوا أهله ما شأنه، فسئلت صاحبته عنه، فقالت: خرج ليلة عرسه وهو جُنب حين سمع المنادي ينادي للقتال ولم يتمكن من الاغتسال، فغسلته الملائكة.

وقاتل قتادة بن النعمان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصيبَ يومئذٍ عينه حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكانها بيده فكانت أحسن عينيه وأحدُهما. قال ابن إسحاق: وكان كعب بن مالك، أول مَنْ عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة وتأكد من أنه لم يقتل كما زعم ابن قميئة. قال كعب: عرفتُ عيناه تضيئان تحت المغفر، فناديتُ بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليَّ رسول الله أن أنصت. فلمَّا عرف المسلمون ذلك نهضوا به ونهض معهم عليه السلام نحو الشِعب، ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وطلحة بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين. ولمَّا أُسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِعب أدركه أبيَّ بن خلف وهو يقول: "أي محمد، لا نجوت إن نجوت"، فقال القوم: "يا رسول الله أيعطف عليه بسيفه رجل منا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعوه"، فلمَّا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول عليه السلام الحربة من الحارث بن الصمة، انتفض بها انتفاضة تطايرنا بها تطاير الشَّعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها، (والشعراء ذباب له لدغ) ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها، أي تقلب عن فرسه فجعل قيد جرح، فلمَّا رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، ومات عدو الله بسرف، وهو مكان على ستة أميال من مكة، وهم قابلون به إلى مكة.

وبينما رسول الله في الشعب معه أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عالتِه من قريش الجبل، وكان على الخيل خالد بن الوليد، فقال رسول الله: "اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا"، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظُهر يوم أحد قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودًا.

ولمَّا انقضت الحرب، وأراد أبو سفيان الانصراف أشرف على جبل أُحد ونادى بأعلى صوته، قاصدًا أن يسمع المسلمون نداءه، فقال: "أفيكم محمد؟"، فلم يجيبوه، فقال: "أفيكم ابن أبي قحافة؟" فلم يجيبوه، وقال: "أفيكم ابن الخطاب؟" فلم يجيبوه. فقال: أمَّا هؤلاء فقد كفيتموهم". فلم يكلك عمر نفسه أن قال: "يا عدو الله إنَّ الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك منهم ما يسؤوك" ثم قال أبو سفيان: "أنعمت فِعال (بالغنا في فعالنا) وإنَّ الحرب سجال يومٌ بيوم، أعلِ هُبل، أي أظهِر دينك)" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قم يا عمر فأجبه، فقل الله أعلى وأجَل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار". فلَّما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: "هلَّم إليَّ يا عمر" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: "إئته فانظر ما شأنه" فجاءه فقال أبو سفيان: "أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟" قال عمر: "اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن" قال: "أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرَّ"، لقول عبد الله بن قمئة لهم: إني قتلتُ محمدًا.

ولمَّا انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى: "إنَّ موعدكم بدر للعام القابل" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: "قل، نعم، هو بيننا وبينكم موعد".

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فقال: "أخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل، أي قادوها إلى جنوبهم ليستعملوها وقت الحاجة، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أراودها لأسيرن إليهم فيها ثم لأنا بفرنهم". فخرج علي في آثارهم، فرآهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة.

وكان على القرشيين أن يتمموا انتصارهم بغزو المدينة، ولو أرادوا إسقاط دولة الرسول بها، لكنهم لم يفعلوا ذلك ودعادوا إلى مكة بعد أن احتفلوا بنصرهم في أحُد. ولعل أهل مكة قد خافوا من أن ينقلب نصرهم الذي حققوه إلى هزيمة لو هم هاجموا المدينة لما فيها من مسلمين ويهود. فاكتفوا بقولهم أنهم ما جاءوا إلى أحُد إلا للثأر من هزيمتهم في بدر، وأنهم سيتدبرون أمر غزو المدينة في المستقبل. وقد ظن المكيون أنهم ليسوا بحاجة لمهاجمة دولة الرسول في المدينة، وانَّ هذه الدولة ستسقط من تلقاء نفسها وأنَّ اليهود وأحلافهم من أتباع ابن أبَّي سوف يتكلفون بذلك وسوف يغنوهم عنه، وهم يعلمون أنَّ ابن أبَّي يحتفظ في المدينة بثلث الجيش الذي انسحب به. كذلك فإنَّ من السباب التي جعلت القرشيين يعودون إلى مكة دون الهجوم على المدينة هو تأكدهم من نجاه محمد صلى الله عليه وسلم من القتل وعودة الروح القتالية للمسلمين بعد أن أخذوا الدرس من الهزيمة التي وقعت بهم بعد النصر. فضلًا عن أنَّ قوات قريش كانت قد أنّهكت في المعركة وقُتل منهم مِنْ قُتل وجُرح الكثيرون فقد قتل اثنان وعشرون من رجالهم وفقدوا معظم خيولهم في المعركة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قضي مع أتباعه ليلة المعركة على جبل أحُد، في الوقت الذي انتشر فيه خبر وقوع الهزيمة في المدينة، وبات الناس هناك في قلق على رسول الله وصحبه. وفي الصباح تفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار مَنْ أُستشهد من رجاله، فكانوا سبعين رجلًا، ستون منهم من الأنصار وعشرة من المهاجرين.

ولمَّا بلغ رسول الله أعداء القتلى من المسلمين، سأل عن الصحابي الجليل سعد بن الربيع، فقال عليه السلام: "مَنْ رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؛ في الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال محمد بن مسلمة الأنصاري: "أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد"، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق. قال ابن مسلمة: "فقلت له إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزي نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك

عني السلام، وقل لهم: إنَّ يعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر بكم عند الله إن خلُص إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم ومنكم عينٌ تطرف. قال ابن مسلمة: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره". قال ابن هشام أنَّ رجلًا دخل على أبي بكر الصديق، وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها، فقال له الرجل: من هذه؟ فقال أبو بكر: هذه بنت رجل خيرٌ مني، سعد بن الربيع، وكان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرًا، واستشهد يوم أُحُد".

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب فوجد ببطن الوادي وقد بُقِر بطنه عن كبده ومُثِل به، فجُدِع أنفه وأذناه، قال ابن إسحاق: "ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها، يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن (يقطعن) الآذان والآنُف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خلاخيل وقلائد، وأعطت قلائدها وقرطها وحشيًا وبقرت عن كبِد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها؛ فلفظتها".

وحين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث لعمه حمزة، أسد الله وأسد رسوله، قال: "لولا أن تحزن صفية ويكون سُنة مِن بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأقتلَّن بثلاثين رجلًا منهم". فلَّما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على مَنْ فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب.

قال ابن هشام: "ولمَّا وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قال: "لن أُصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت موقفًا أغيظ عليَّ من هذا"، ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أنَّ حمزة بن عبد المطلب مكتوبٌ في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد، إخوة من الرضاعة، أرضعتهم ثويبة مولاة لأبي لهب.

ولقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله، مِن قول رسول الله وأصحابه: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون)، فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر ونهى عن المُثلة. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزى فغطِّى ببُردة، ثم صلى عليه، فكبرَّ سبع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

وقال ابن إسحاق: "وقد أقبلت فيما بلغني صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخًا شقيقًا لها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبنها الزبير بن العوام: "إلقها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها". فقال لها الزبير: "يا أمه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِم؟ وقد بلغني أنْ قد مُثِل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله". فلمَّا جاء الزبير إلى رسول الله فأخبره بذلك قال: "خلِ سبيلها"، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه، وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدُفنه. ودُفن مع حمزة في قبره عُبيد الله بن جحش، وحمزة خاله، وقد مُثِل به كما مُثِل بحمزة إلا أنه لم يُبقر عن كبده. وقد أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: "أدفنوهم حيث صرُعوا".

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعًا إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش، فلمَّا لقيت الناس تنعي إليها أخاها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعي لها زوجها مصعب بن عيمر، فصاحت وولولت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن زوج المرأة منها لبمكان"، لمَّأ رأى من تثُبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

وكان من بين من خرج لاستقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم والاطمئنان على سلامته إمرأة من بني دينار من الأنصار نُعي إليها استشهاد أبيها وأخيها وابنها وزوجها، فلم تكترث وسألت عن رسول الله فلمَّا علمت أنه بخير من ذلك بريته قالت له: "كل مصيبة بعدك يا رسول الله جللٌ".

قال ابن إسحاق: "ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدارٍ من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى، ثم قال: "لكن حمزة لا بواكي له".

فلَّما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بني عبد الشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولمَّا سمع رسول الله مكابرهن على حمزة خرج عليهن وهنَّ على باب مسجده يبكين عليه، فقال: ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكن"، أي علو مَنُ بأنفسكن. ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن النواح على الموتى.

ولمَّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناول سيفه (ذو الفقار) ابنة فاطمة، وكذلك ناولها على زوجها سيفه، وقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أغسلي عن هذا دمَه يا بنية فإنه والله لقد ثدقني اليوم، وكذلك قال علي، فقال له رسول صلى الله عليه وسلم: لئن كنت صدقتَ القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة. . وكان يوم أُمَد يوم السبت للنصف من شوال. وقد نزل في تلك الغزوة ستون آية من آيات سورة (آل عمران)، فيها تقرير لمأ وقع فيها وعتاب لمن استحق العقاب ودروس بليغة للمسلمين في اصلبر والنظر للحياة ومعنى الموت.

وقد بدأت الآيات بقوله تعالى: (هذا بيانٌ للناس وهدىً وموعظةً للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلوْنَ إن كنتم مؤمنين. إنْ يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلك الأيامُ نداولها بين الناس وليعلَمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداءَ واللهُ لا يحب الظالمين. وليمحِصَّ اللهُ

الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنةَ ولمَّا يعلم اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين. ولقد كنتم تمنوْنَ الموتَ م، قبل أن تلقوْه فقج رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَت م، قبلهِ الرسلُ أفئن مات أو قتُل انقلبتم على أعقابكم ومَنْ ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئًا وسيجزي اللهُ الشاكرين). (ولقد صدقكم اللهُ وعَده إذ تحسُونَهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم م، بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرَفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم واللهُ ذو فضل على المؤمنين). (ولئن قُتلتم في سبيل الله أو مُتم لمغفرةُ من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون. ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون). (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم اللهُ من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم مِن خلْفِهم ألَّا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. يستبشرون بنعمةٍ كِل الله وفضِل وأنَّ اللهَ لا يضيعَ أجرَ المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسولِ مِنْ بعدِ ما أصابهم القرحُ للذَين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم).

فلَّما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة قضت من شوال، أذَّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، فأذَّن مؤذنه أن لا يخرجَّن معنا إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس. وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرهبًا للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى (حمراء الأسد)، وهي من المدينة على ثمانية أميال، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

وأصبح موقف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أحُد حرجًا في المدينة؛ ذلك لأنَّ اليهود والمشركين والمنافقين قالوا أنَّ محمدًا لم ينتصر يوم بدر على قريش بسبب قوة دعوته وتأييد السماء له، وإنما انتصر بسبب عدم استعداد خصومه للحرب، وأنَّ خصومه حين أعدوا للحرب عدتها، انتصروا عليه يوم أحُد. وقالوا أنَّ محمدًا لو كان نبيًا حقًا لما تخلى إلهه عن نصرته ولما وقعت به الهزيمة. وكان أكثر المنادين بذلك وأكثر الشامتين في هزيمة المسلمين

ابن أبي سلول، الذي أشاع بأنَّ الهزيمة وقعت بقوات المسلمين لمَّا لم يأخذ محمد برأيه في عدم الخروج من المدينة وانصاع لإرادة الشباب عديم الخبرة بالحرب.

وفي القوم التالي لمعركة أحُد جاء ابن سلول إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ابنه عبد الله هنالك يعالج من جراحه بالكي، تلك الجراح التي وقعت له في المعركة، وكان الإبن من أكبر المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنصحه بعدم القتال ثانيةً مع محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يستمع له ولم يعره اهتمامًا.

وفي يوم الجمعة التالي للمعركة، أراد ابن أُبيَّ أن يخطب في الناس في المسجد؛ فأجبره المصلون على الجلوس ولم يمكنوه من ذلك قائلين له: "اجلس يا عدو الله، إنك لا تستحق أن تتكلم بعد الذي فعلته" وطردوه من المسجد مهانًا؛ فجعله ذلك أكثر ثورة وأشد حقدًا على رسول الله وأتباعه. ولقد ازدادت تصرفاته المعادية للرسول وللمسلمين بعد ذلك، وكان أشد الناس خطرًا على الإسلام بسبب شدة نفاقه وزائد كيده. ولقد عرض عبد الله بن أبي أُبيَّ على رسول الله أن يقتل والده ليستريح المسلون من شره، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعه من ذلك.

ولقد تألبت أكثر القبائل على المسلمين، وظن البدو الذين كانوا يحيطون بالمدينة أنهم قادرون على أن يُغيروا على المدينة فينتهبوها، وخُيل إليهم أنَّ المسلمين قد أصبحوا غير قادرين على دفع غاراتهم. وكان (بنو أسد) أول مَنْ تهيأ لذلك. فلمَّا علم رسول الله بما يعتمونه من غزو المدينة؛ بادرهم بالغزو قبل أن يستعدوا له؛ فأرسل إليهم (أبا سلمة) في مائة وخمسين من أصحابه، فباغتوهم في ديارهم وشتتوا جموعهم واستاقوا أمامهم ما ظفروا به من أنعامهم، ثم عادوا إلى المدينة غانمين. غير انَّ أبا سلمة عاوده ألم جرحه الذي أصابه في أحُد، فلم يلبث أن مات بعد قليل.

ثم وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرًا مفاده انَّ خالد بن سفيان الهُذلي، زعيم هذيل من قبيلة بني لحيان، يجمع الرجال ليغير على المدينة، فبعث إليه من اصحابه (عبد الله

بن أنيْس) لاغتيال زعيم القبيلة (صفوان بن خالد)، فذهب إليه متنكرًا في زي رجل يريد أن ينضم إليه في حرب رسول الله، حتى إذا استيقن أنه يجمع لغزو المدينة، جعل يستدرجه حتى ظفر به فقتله على غِرة.

وعز على هذيل أن يقتل شيخها غيلةً، فجعلت تحتال لتأخذ له بثأره، واتفقت مع قبيلتي (عضل) و (القارة) من بني مخزوم لمساعدتهم في أخذ الثأر من محمد صلى الله عليه وسلم. فقاموا بمخادعة الرسول، وأرسلوا رهطًا من بني خزيمة ابن مدركة ليعلنون لرسول الله أنهم دخلوا في الإسلام وأنهم بحاجة إلى نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفقهونهم في الدين ويقرئونهم القرآن ويعلموهم أصول الإسلام. فرَّحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وبعث معهم سبعة من خيرة أصحابه وهم: (مرثد بن أبي مرثد الغنوي)، و (خالد بن البكير الليثي)، و (عبد الله بن طارق الأوسي)، و (عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح)، و(خبُيب بن عدي)، و (زيد بن الدثنة)، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرثدًا أميرًا عليهم. فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا عند ماء من هذيل يقال له (الرجيع)، ما بين عسفان ومكة، وجدوا أنفسهم فجأة محاطين عُبات المقاتلين من بني لحيان وطلبوا منهم التسليم، وأرادوهم أحياء كي يبيعونهم لقريش. فرفض أربعة منهم الاستسلام وقاتلوا الأعداء حتى قتلوا، واستسلم زيد من الدثنة وخبيب بن عدي وعبد الله الأوسي فأسروهم، وخرجوا بهم إلى مكة مكبلين بالأغلال ليبيعونهم هناك. حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق الأوسي يده من قيده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل ودفن حيث قُتِل. أما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة فباعدهما لقريش بأسيرين من هذيل كانا في مكة. واشترى خبيبًا عقبة بن الحارث، فقتله بأبيه الحارث بن عامر. واشترى زيدًا صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وقتلوه عند التنعيم، خارج مكة.

وكان خبيب بن عدي، هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، وقد قيل أنهم لمَّا هموا بقتل خبيب، قالوا له: "أتحب أنَّ محمدًا مكانك" فقال لهم: "والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه".

وقد بيعت رأس عاصم بن ثابت لإمرأة قرشية فقدت إبنين لها يوم أحُد مع من قُتل من المُشركين وكانت قد نذرت أن تشرب الخمر في جمجمة عاصم لو وقعت في يدها، لمَّا عرفت أنه قاتل ولديْها، لكن الله تعالى نجى راس عاصم بإغراق الوادي بسيل جارف جرفت مياهه جمجمة عاصم معها، ولم تنفذِ المرأة الكافرة ولم توفي بنذرها.

وكان مقتل هذين الشهيدين في صفر من السنة الرابعة للهجرة. أمَّا مقتل أصحابهم في الرجيع، فقد ذكر ابن إسحاق أنه كان في شوال من السنة الثالثة، وذلك حين لم تكن قد جفت بعدُ دماء الشهداء، في أحُد؛ فكان ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقتلهم عظيمًا، لأنهم كانوا من خيرة القراء مِن أصحابه، ولماَ كان في مقتلهم من ضروب الخيانة والغدر والمُثلة.

ولم تكن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفوس أصحابه تهدأ قليلًا من ألم هذا الحادث حتى أصابهم حادث أشد وأنكي، في صورة أخرى من صور الغدر الآثم بعد أحُد بأربعة أشهر تقريبًا، فقد قُتل أربعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غدرًا وغيلة على يد المشركين عند (بئر معونة)، وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم. ذلك أنه قدم على رسول الله شيخ من شيوخ بني عامر بن صعصعة يدُعي (أبو البراء عامر بن مالك)، ويُلقب بملاعب الأسنة، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلِم ولم يبعد من الإسلام، وقال: "يا محمد، لو بعثت رجالًا من اصحاب إلى أهل نحد فدعوتهم إلى أمرك، رجوت أن يستجبوا لك" فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أخشى عليهم أهل نجد"، فقال: "أنا لهم حامٍ ومجير، فابعثهم فليدعوا الناس إلأى أمرك". فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم (المذنر بن عمرو) في أربعين من أصحابه من خيار المسلمين، فساروا مع أبي البراء حتى نزلوا ببئر معونة، وهناك أحاط بهم رجال من قبائل بني سليم وذكوان وقاتلوهم حتى قِتلوا عن آخرهم ما عدا كعب بن زيد، فقد تركوه بين القتلى وهم يظنون أنه لقى حتفه، لكت كعبًا كتب الله له النجاة حتى أستُشهد يوم الخندق.

وكان في مرعى القوم رجلان مسلمان، وهما (عمرو بن أمية الضمري) ورجل من الأنصار قد شهدا المذبحة التي تعرض لها المسلمون عند بئر معونة، فقاما بمقاتلة المشركين حَمية لمقتل إخوانهم المسلمين. وقد قاتل الأنصاري حتى قُتِل، أما عمرو فأُخذ أسيرًا، فلمَّا أخبرهم بأنه من مُضَر قام عامر بن الطفيل بإطلاق سراحه. فخرج عمرو مقبلًا على المدينة حتى وصل (قرقرة الكدر)، وهو ماء لبني سليم على نحو ستة وتسعين ميلًا من المدينة، فنزل منزلًا ليستريح، ونزل معه رجلان من بني عامر، كان معهما عقد وجوار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم بأمره عمرو. وكان عمرو قد سأل الرجلين عن قبيلتهما حين نزلا عنده مغرف أنهما من بني عامر؛ فانتظر حتى ناما فقتلهما وهو يرى أنه أصاب بقتلهما ثأرًا من بني عامر الذين قتلوا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلمَّاً قدم عمرو بن أمية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدية وأخبره بالخبر، قال له رسول الله: "لقد قتلت قتيلين وجبت علينا ديتهما"، وأخذ عليه السلام يتدبر أمر دفع هذه الدية لقتلى بني عامر.

وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه به أشد الحزن، ومكث نحو شهر يدعو على قتلة اصحابه في بشر معونة وفي الرجيع كلما صلى، حتى أنزل الله تعالى في ذلك قوله: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) فسكنت نفسه، وانقشع عن حزنه، وأصبح بعد ذلك لا يمتد ولا يدعو على الذين دبروا اغتيال أصحابه.

* * *

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود بني النضير، الذين كانوا يسكنون جنوب شرقي المدينة، يستعينهم في دية ديتك القتيلين من بني عامر، الذيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحِلف. فوعد بنو النضير بالوفاء لكنهم أضمروا في أنفسهم اغتياله، وقد جاءهم في نفر قليل من أصحابه، وهم: أبو بكر وعمر وعلي وأسيد بن

حضير، سيد الأنصار، ورسموا أن يُلقوا عليه ضمرة من فوق منزل جلس تحته رسول الله صلى الله عليه وسلم وندبوا لذك أحدهم وهو عمرو بن جحاش.

قال بنو النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أجبت، مما استعنت بنا عليه". ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنْكم لن تجدوا الرجل على مثِل حالِه هذه – ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد – فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلُقي عيله صخرة، فريحنا منه؟"، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلُقي عليه صخرة كما قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من اصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ودبروا، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة وسط دهشة اليهود. فلمَّا استغيب أصحاب النبي النبي صلى الله عليه وسلم، قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا مقبلًا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيتُه داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر عليه السلام بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. وقد نزل في ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم غذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم).

قال ابن سعد: وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مَسلمة أنْ "أخرجوا من بلادي فلا تساكنونني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغذر؛ وقد أجُلتكم عشرًا فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه" فمكثوا على ذلك يتجهزون فأرسل إليهم عبد الله بن أُبُيَّ، حليفهم، ألا يخرجوا من ديارهم وأن يقيموا في حصونهم، وإنَّ معه ألفين من قومه وغيرهم من العرب، يدخلون معهم حصنهم فيموتون عن آخرهم، وتمدهم بنو قريظة وحلفاؤهم من غطفان. فطمع زعميهم حُيَّي بن أخطب فيما قال ابن أبُيَّ، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا لن نخرج من يدارنا فاصنع ما بدا لك". واستمع بنو النضير لرأي ابن أبُيْ وتحصنوا في قلاعهم

وأغلقوها عليهم. وسار رسول الله بقواته حتى نزل على ديارهم في شهر ربيع الأول، فحاصرهم ست ليال، نزل خلالها تحرِم الخمر، ولم يتقدم أحد لمساعدة بني النضير، ولم يتحرك إخوتهم من يهود بني قريظة لنجدتهم، ولا بنو غطفان، ولا حتى ابن أُبَّي نفسه، الذي نصحهم بالصمود والمقاومة والتحدي لقرارات محمد صلى الله عليه وسلم. وأخذ الرسول في قطع نخيل بني النضير، وظل حصاره لهم مدة أسبوعين، وقذف الله في قلوبهم الرعب فاستسلموا. وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم عن ديارهم وأن يكف عنهم دماءهم على أن يحملوا معهم، وهم خروج، ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح. ففعل وفعلوا، وخرجوا إلى خيبر، وكانت خيبر وقتذاك أكبر مركز للتجمع اليهودي في شمال المدينة. وكان من أشراف يهود بني النضير الذين ساروا إلى خيبر: (سلام بن أبي الحقيق)، و (كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق)، و (حُيِّيْ بن أخطب)؛ فلمَّأ نزلوها دان لهم أهلُها.

وقد حمَّل بنو النضير ستمائة بعير بمتاعهم، ولم يتركوا شيئًا منه، حتى أنهم اقتلعوا أبواب بيوتهم وأسقفها وأخذوها معهم. وحملت النسوة معهن جميع حليهن وملابسهن وأدوات منازلهن.

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوزيع أرض بني النضير غنيمة على المهاجرين؛ حتى لا يظلوا يعيشون عالةً على إخوتهم الأنصار، ولم يعطِ لأحد من الأنصار إلا لاثنين منهما بسبب شدة فقرهما، وهما: أبو دجانة سماك بن خرشه، وسهيل بن حنيف. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبه في الفيء من غنيمة بني النضير، يصرف منه على نفسه وأسرته وعلى حاجة المسلمين.

وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة (يونيو ٦٢٥م). وقد نزل في بني النضير سورة (الحشر) بأسرها، يذكر الله فيها ما اصابهم سبحانه م، نعمته؛ وما سلَّ" عليهم به رسولَه صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم، فقال تعالى: (سبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذي أخرج الذين كفروا مِن أهل الكتاب مِن ديارهم

لأولِ الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهُم حصونهم من الله فأتاهم اللهُ من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعبَ، يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسولَه ومن يُشاقق الله فإنَّ الله شديد العقاب. ما قطعتم من لِّينَةٍ أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله وليخُزى الفاسقين. وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه مِن خيل ولا ركابٍ ولكن اللَه يُسلط رسلَه على من يشاء والله على كل شيء قدير. ما أفاء اللهُ على رسوله من أهلِ القُرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولةَ بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فَانتهوا واتقوا الله إنَّ الله شديدُ العقاب. للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسولَه أولئك هم الصادقون). ثم يقول تعالى: (ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجم معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا وإن قوتلتم لننصرنكم واللهُ يشهد إنهم لكاذبون. لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا ألا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُن الأدبارَ ثم لا يُنصرون. لأنتم أشدُ رهبة في صدورهم مِن الله ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرىً مُحصنةٍ أو مِ، وراء جُدرُ بأسهُم بينهم شديد تحسبُهم جميعًا وقلوبُهم شتَى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون. كمِل الذين مِ، قبلهم قريبًا ذاقوا وَبال أمرهم ولهم عذابٌ أليم. كمثل الشيطانِ إذ قال للإنسان أُكفرُ فَلمَّا كفر قال إني بريء منك إني أخاف اللهَ ربَ العَالمين. فكان عاقبتهُما أنهما في النار خالدين وذلك جزاءُ الظالمين).

* * *

وبعد شهرين من إجلاء بني النضير قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في نحو أربعمائة من اصحابه بغزو نجد يريد حرب بني محارب وبني ثعلبة من غطفان؛ لأنه بلغه أنهما جمعوا الجموع لحربه. فنزل الرسول عليه الصلاة والسلام بقواته عند موضع نخل بنجد من أرض

غطفان به شجرة تعُرف (بذات الرقاع)، فسُميت الغزوة باسمها، وكان ذلك في منتصف شهر جمادي الأولى سنة أربع للهجرة. وتقابلت قوات الرسول صلى الله عليه وسلم مع جمع كبير من غطفان، فتقارب الناس ولم تقع بينهم حرب. وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم مباغتة العدو له أثناء صلاة الظهر، فصلى بالناس (صلاة الخوف)، وبعد ذلك انصرف بالناس حين تأكد من عدم رغبة أعدائه في القتال.

وفي شهر شعبان سنة أربع للهجرة، بعد عودته من غزوة ذات الرقاع، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف وخمسمائة مقاتل وعشرة فرسان إلى بدر، للوفاء بموعده مع أبي سفيان. ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوقاته عند بدر ينتظر مقدم قوات أبي سفيان، وأقام هنالك ينتظر ثمانِ ليال. وكان أبو سفيان قد جهز جيشًا كبيرًا قوامه ألفيْ رجل وخمسين فارس، وسار بهم من مكة قاصدًا بدر، حتى نزل (مجنة) من ناحية الظهران، وبعض الناس يقول قد بلغ عسفان، ثم بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإنَّ عامكم هذا عام جدب، وإني راجعٌ، فارجعوا، فرجع الناس بعد أن شربوا السويْق، فسماهم أهل مكة: جيش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق. وأقام رسول الله على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده، ولمَّا تأكد من عودة جيش قريش إلى مكة، عاد بجيشه إلى المدينة بعد أن وَفَيَّ بوعده وأظهر قوة المسلمين التي أرهبت القبائل المجاورة للمدينة.

وفي شهر ربيع الأول من العام الخامس للهجرة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس قوامة إلى (دومة الجندل)، الواقعة على طريق ناحية الشمال من المدينة جهة الشام، وكان يُعقد بها سنويًا سوقٌ شهير. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد علم أنَّ المشركين هناك يُعدون جيشًا لمحاربته. وعند وصوله لم تتصدى له أي قوة ولم يلق عدوًا، فعاد بجيشه إلى المدينة، فأقام بالمدينة بقية سنته.

وفي شهر شعبان من نفس العام قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوته إلى (بني المصطلق)، وهم بطنٌ من خزاعة، وكان قد بلغه أنَّ رئيسهم (الحارث بن أبي ضرار) قد أعد قومه لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بنو المصطلق ينزلون على بئر لهم يُقال له (المريسيع) على شاطئ البحر الأحمر من ناحية(قديد) إلى الساحل، مسافة ٨٠ كم من المدينة. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه يوم الاثنين الثاني من شهر شعبان، وكان فيه ثلاثون فرسًا، عشرة منها للمهاجرين وعشرين للأنصار، وخرج معه نفر كثير من المنافقين الذين لم يخرجوا الغزوة سابقة لها، واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة زيد بن حارثة. وبلغ الحارث بن ضرار ومَنْ معه مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، وانتهى عليه السلام إلى المريسيع، وكانت معه من زوجاته عائشة وأم سلمة، وتهيأ الجيش للقتال، وصفَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى ابي بكر الصديق وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، فرموا بالنبل ساعة، ثم أمر الرسول أصحابه فحملوا حملةَ إلى رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقُتِل عشرة منهم وأسَر سائرهم، وسبِي رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال والنساء والذرية والنعِم والشياه، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد. واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منهم من بينها ألفين من الإبل وخمسة آلاف رأس من الماشية. وكان السبيْ مائتيْ أهل بيت، وصارت (جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار) في سهم ثابت بن قيس بن شماس وابن عم له، فكاتباها على تسع أواقٍ ذهب، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابتها وأداها عنها وتزوجها، وكانت جارية جميلة. ويُقال: وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم صداقَها عِتق كل أسير من بني المصطلق، ويُقال جُعل صداقها أربعين من قومها. ولم تبق امرأة من بني المصطلق إلا رجعت إلى قومها، كرامةً لجويرية. فأسلمت جويرية وأسلم أبوها وإخوان لها، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم، فما أُعلِم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وفي رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الغزوة، وقع نزاع على الماء بين رجل من المهاجرين، هو جهجاه بن سعيد الغفاري، أجير عمر بن الخطاب، وسنان بن وبر الجُهني، حليف بني عوف بن سالم من الأنصار الخزرج، فضرب الغفاري سنانًا بيده، فنادي سنان: "يا للأنصار"، ونادى الغفاري: "يا لقريش. . يا للكنانة"، فأقبلت قريش سراعًا، وأقبلت الأوس والخزرج وشهروا السلاح، وكاد القتال أن يقع بين المهاجرين والأنصار؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟". فتكلم في ذلك ناسٌ من المهاجرين والأنصار في ترك سنان حقَه وعفا عنه واصطلحوا. وانتهز عبد الله بن أبى أُبِّيْ الفرصة ليوقع بين المهاجرين والأنصار، فأثار الأنصار على المهاجرين، وقال جملته المشهورة: "شبِّع كلبك يعقرك، لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُ منها الأذل"، ثم أقبل على مَنْ حضر مِن قومه فقال: "هذا ما فعلتم بأنفسكم"، وسمع ذلك زيد بن أرقم، فأبلغ النبي صلى الله عليه وسلم قولِه، فأمر بالحيل وخرج مِن ساعته وتبعه الناس. فلمَّا وصلوا المدينة استأذن عمر بن الخطاب رسول الله في قتل ابن أبي أبَّيْ، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولمَّا علم عبد الله بن أبّي أنَّ رسول الله قد علِم بما قاله أنكر ذلك وأقسم عليه، فعفى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد تحادث أسيد بن حضير، سيد الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن ابن أبي أبي، فقال له أسيد: "إنك يا رسول الله تستطيع أن تطرده من المدينة وسوف لا يمنعم من ذلك أحد إذا أردت فأنت الأعز وهو الأذل. إنك يا رسول الله ترفق في معاملته، ولا تنس إنك حين جئتنا كان الناس هنا يجهزون اللؤلؤ ليضعونه في تاج يتوجونه به عليهم ملِكًا، وهو يظن الآن أنك سلبته هذا المُلْك" وقد جاء عبد الله ابن ابن أبي أبَّيْ يسأل رسول الله في أن ياذن له بقتل والده جزاءً لقوله وفعله، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أردت رأسه يا رسول الله فأنا أتيك به بالله عليك فإنَّ الخزرج ليعلمون أني أحسن أبنائه وإنني أخاف أنك لو أمرت غيري بقِتلِه فسوف لا أستطيع أن أغُمض عيني عن قاتله فأقتلَه وعندئذٍ أكون قد قتلتُ مسلمًا بكافر فألقى في النار". فهدأه رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأذهب عن غضبه وثورته وطمأنه على سلامة ولده. ولقد نزلت في ابن أُبَّيْ آيات من سورة المنافقين، يقول فيها الله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعُز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون). وقد غاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاته هذه ثمانية وعشرين يومًا، وقِدم المدينة لهلال شهر رمضان.

وعند العودة من غزوة بني المصطلق وقع (حادث الإفك)، الذي أُتُهمت فيه السيدة عائشة، زوج النبي، وأم المؤمنين بالفاحشة زورًا وبهتانًا وبرأها الله تعالى من فوق سبع سماوات آيات بينات نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة النور.

وكانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سَفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وجاءت القرعة لعائشة في هذه الغزوة. وفي طريق العودة من الغزوة إلى المدينة نزل القوم في طريقهم ببعض المنازل. وفي إحدى هذه المنازل خرجت عائشة إلى الخلاء لقضاء حاجتها، ثم رجعت، فانقطع عنها عقدًا كانت ترتديه كانت أمها قد أهوته لها ليلة زفافها على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فرجعت تلتمسه حيث كانت، فجاء المكلفين بأمر رحليها يرحلون بهودجها وهم يظنون أنها بداخله، ولم يظنوا غير ذلك، لخفةِ وزنها. فلمَّا عادت بعد أن أصابت العقد إلى مكانهم لم تجد أحدًا ووجدت القافلة وارتحلت، فما كان أمامها إلا أن تجلس في مكانها تنتظر حظها فيمن يأتي ليُلحقها بالقافلة. فأدركها (صفوان بن المعطل السلمي) وكان قد تأخر عن الركب يلتمس ما فات الركب. فلمَّا وجدها وعرف أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل يسترجع قائلًا: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فما زال يسترجع حتى استيقظت، فلمَّا استيقظت قدَّم لها بعيره فركبت وانطلق يقودها حتى دخل بها المدينة في نحو الظهرية. فلمَّا رآها ابن أُبُيْ سأل: "من هذا؟"، فقيل له: "عائشة"، قال: "إمرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها" فجعل المنافقون يتكلمون في شأنه عائشة وصفوان، وأرجفت المدينة كلها بالإفك، حتى نزل الوحي من السماء ببراءتها وكذبَّ الذين جاءوا بهذا الإفك العظيم وأخزاهم وتوعدهم بالعذاب العظيم.

سقول الله تعالى: (إنَّ الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبَوُه شرًا لكم بل هو خيرٌ لكم لكلِ إمرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كِبرهُ منهم له عذاب عظيم لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفكٌ مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداءَ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله الكاذبون. ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه في الدنيا والآخرة لمسكمُ في ما أفضتم فيه عذابٌ عظيم) إلى قوله تعالى: (إنَّ الذين يرمون المحُصَنَاتِ الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتَهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون. يومئذٍ يوفيهم اللهُ دينَهم الحقَّ ويعلمون أنَّ الله هو الحقُ المبين).

وفي هذه المناسبة نزلت آيات القرآن تطلب من زوجات النبي خصوصًا والمؤمنات عمومًا الالتزام بالحجاب وذلك في قوله تعالى: (قُل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم غنَّ الله خبيرٌ بما يصنعون. وقل للمؤمناتَ يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجَهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربْن بخمرِهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليَعُلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفُلحون).

وبعد شهرين من حادث الإفك، وقع حادث الخلاف بين (زيد بن حارثة)، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته (زينب بن جحش) ابنة عمة رسول الله، وكانت جميلة وفي الخامسة والثلاثين من العمر. ونزل القرآن بحكم تطليق زينب من زيد وتزويجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُن بذلك تشريعاً ألغي التبني في الإسلام، وأباح زواج الرجل من زوجة من تبناه بعد تطليقه إياها. يقول الله تعالى في ذلك: (ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تُظامِرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءَكم ذلكم قوُمكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبي. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإنْ لم تعلموا

آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَدت قلوُبكم وكان اللهُ غفورًا رحيمًا) [الأحزاب : ٤، ٥].

وقوله تعالى في أمر زيد وزينب: (وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أَمسك عليك زوجَك وابقَ الله وتخفُى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناسَ واللهُ أحقُ أن تخشاه فلمَّا قضى زيدٌ منها وطرًا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوْا منهن وَطرًا وكان أمرُ اله مفعولًا. ما كان على النبي مِن حرج فيما فرض اللهُ له سُنة الله في الدين خلوْا مِن قبل وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا. الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا أن ركض بالله حسيبًا. ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليمًا) [الأحزاب: ٣٧ – ٤٠].

* * *

غزوة الخندق:

في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، وقعت بين المسلمين والمشركين غزوة (الخندق)، التي تعُرف أيضًا بغزوة (الأحزاب)، وفيها انتصر المسلمون بعد أن كادت تقع بهم هزيمة ساحقة محققة. ذلك لنَّ أعداء المسلمين هاجموا المدينة بثلاثة جيوش بلغ عدد رجالها عشرة آلاف رجل يدعمهم ستمائة من الفرسان وعدد كبير من المحاربين على الإبل تحت قيادة أبي سفيان، بعد أن تحالف قريش مع اليهود ومع بعض قبائل العرب، وبخاصة قبيلة غطفان للقضاء على دولة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

وقد استحالت قريش عددًا من أشراف اليهود من رؤوساء بني النضير، الذين نزحوا من مواطنهم بالمدينة واستقروا في خيبر، وهم: سلام بن أبي الحقيق، وحُيَّي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، مع نفر من بني وائل، وخرجوا حتى قدموا مكة فدعتهم قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبينوا لهم أنهم سيكونون معهم حتى يستأصلوا شأفة المسلمين.

وقد قالت قريش لأعيان اليهود: "يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه وأنتم أولى بالحق منه". فنزل فيهم قول الحق تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلًا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا) . . إلى قوله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مُلكًا عظيمًا، فمنهم من آمن به ومنهم مَنْ صد عنه وكفر بجهنم سعيرًا).

ولمَّا قال اليهود ذلك لقريش فرحوا ونشطوا لما دعاهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا لذلك واستعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب المسلمين، وإخبارهم باتفاقهم مع قريش على ذلك فاستجاب لهم مَنْ استجاب من مُرة وبني سليم وبني أشجع وبني أسد وغيرهم. وقد وعد اليهود أن يُعطوا غطفان ثمار سنة من نخيل خيبر إذا تم لهم النصر على المسلمين وخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان، وقائدها عُينيه بن حصن بن حذيفة، وفي بني فزارة، والحارث بن عوف بن حارثة المري، في بني مُرة، ومسعر بن رخيلة بن نويرة فيمن تابعه من قومه من أشجع فكان جميع القوم الذين وافوا الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب، خرجوا في شوال سنة خمسّ الهجرة (*** ٦٢٧م) وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر وإجماع المشركين على حربه وتحزرب أحزابهم، وكان في إمكانه إعداد ثلاثة آلاف مقاتل لمواجهة العدو، ولم يكن أمامه سوى مواجهة الهجوم حيث لم يعد أمامه خيار غير ذلك. وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحصن المدينة ويمنع وجود أي ثغرة في دفاعاتها ينفذ العدو منها. فالمدينة محصنة من ناحية الجنوب والشرق والغرب بجبال الحرة، ومنطقة ضعفها الوحيدة هي من ناحية الشمال حيث تتبعثر مساكن سكانها في أرض واسعة مفتوحة لا جبال فيها. ولتأمين ذلك الجانب أمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم بحفر خندق فيه. وكان (سلمان الفارسي)، قد أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر هذا الخندق بين الحرتين، وهو تكتيك فارسي معروف في حروبهم؛ فوافقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك. وعمل الجميع على حفره حتى الأطفال، وحتى يهود بني قريظة شاركوا في الحفر. وقد ضرب محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه المثل في المشاركة في الحفر. وتم حفر الخندق في خلال ستة أيام، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم معسكره بالقُرب من قمة جبل (سلع) والخندق أمامه، وجعل النساء والذراري في حصون المدينة من ناحية مساكن بني قريظة.

ولقد اصطفت قوات المسلمين ومن أمامها القوات المهاجمة، وقد حال بينهما الخندق، وقضوا على ذلك الحال أسبوعين أو أكثر يتبادلون الاتهامات شعرًا ونثرًا ويتراشقون بالسهام على البعُد. وقد قتُل، بسبب هذا التراشق، ثلاثة من المهاجمين وخمسة من المدافعين، ولم يكن في يد المهاجمين سلالم أو أدوات حصار يستطيعون بواسطتها أن يتخطوا الخندق. وقد حاول بعضهم عبور الخندق بخيولهم لكنهم فشلوا في ذلك، وكان المسلمون يقومون برد من ينجح منهم في اجتياز الخندق أو يقتلونه قبل أن يجتازه. وقد قام رماة المشركين برميْ المسلمين، فرمى حبان بن العَرِقة سعد بن معاذ بسهم بأصاب أكحله، فقال: خذها وأنا ابن العرِقة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عرَّق الله وجهك في النار". وقد جرُح سعد بن معاذ جرحًا بليغًا بسبب تلك الرمية، وكان هذا الجرح سبب موته بعد الخندق.

وطال التربص والانتظار بالأحزاب أمام الخندق، وليس بينهم وبين المسلمين إلا تبادل الرمي بالسهام والنبل مِن بعُد. وخشي حيَّيْ بن أخطب أن تفلت الفرصة من يديه، وأن تسأم قريش وغطفان طول المقام فرجع كل قبيلة من حيث أتت، لا سيما والطقس شتاء والأرض مجدبة، وقد أوشك ما معهم من علف لدوابهم أنْ ينفد، وأصاب خيولهم وإبلهم الهزال من قلة الزاد. ورأى ابن أخطب أنه لا سبيل لاقتحام المدينة إلا من ناحية بني قريظة، وكان بنو قريظة على عهدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهب ابن أخطب إلى زعيمهم كعب بن اسد، فأغلق

دونه بابه، فجعل يحتال عليه حتى دخل إليه في حصنه، فقال له: "يا كعب، إنما جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش وسادتها وغطَفان وقادتها وقد تعاهدوا أن يستأصلوا محمداً ومَنْ معه". فقال كعب: "جئتني والله بذل الدهر وبسحاب لا ماء فيه، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حيَّيْ فدعني وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمدٍ إلا صدقاً ووفاء". فلم يزل حُيَّيْ بكعب يعدُه ويغريه حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأنه يسير معهم، وقال له حُيي: "لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك". فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلَّما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان من غدر بني قريظة، بعث إليهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، في نفر من أصحابه، وقال لهم: "انطلقوا حتى تنُظروا، أحقٌ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فألحنوا لي لحنًا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به للناس". فانطلقوا فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم، وقالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: "مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد". فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، فقال له سعد بن عبادة: "دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أوبى من المشاتمة". ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه، ثم قالوا: "عضل والقارة"، أي كفر وعضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم" "الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين".

وعظمُ عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير، أخو بني عمرو بن عوف: "كان محمد يعدنا أنا نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط". وقال أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث: "يا رسول الله إنَّ بيوتنا

عورة من العدو، فأأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة"، وقد قال أوس ذلك القول وذلك عن ملأ من رجال قومه. ويورد القرآن الكريم هذه المشاهد ويصور حال المسلمين آنذاك بقوله تعالى: (إذا جاءوكم م، فوقكم ومِن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك أتُبكى المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا)، (وغذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريقٌ عنهم النبي يقولون غنَّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا. قد يعلم الله المعوقِين منكم والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلًا).

ورجع حيَّيْ بن أخطب إلى جماعة المشركين يخبرهم بما تم له مِا حمّل بني قريظة على العذر بالمسلمين، فانتقشوا ونشطوا وقويت روحهم المعنوية. وكان بنو قريظة قد طلبوا إلى ابن أخطب أن يمهلهم عشرة ايام يستعدون فيها. وأجمع رؤساء المشركين على أن يقوموا بهجوم عام على معسكر المسلمين، وأخذ فرسانهم يطوفون بالخندق يتلمسون نقطة بنصف فيه ينفذون من خلالها إلى داخل المدينة، ونجحوا في الوصول إلى مكان ضيق من الخندق أغفل المسلمون حراسته، فعبره من فرسانهم: عكرمة بن أبي جهل، ونوفل ابن عبد الله، وخوار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبدوُد. وكان عمرو بن عبدوُد بطلًأ مغوارًا لا يزال محتفظًا بقوته وسمعته بالشجاعة رغم بلوغه التسعين من العمر. فلمَّا عبر الخندق هو وأصحابه نادى على المسلمين يطلب المبارزة، فتقدم علي بن أبي طالب لمنازلته، فلمَّا عرنه سخر به وقال له: "لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أحبُ أن أقتلتك" فقال له علي: "ولكني والله أحب أن أقتلك" فاثار ذلك غضبه وحماسه فنزل عن فرسه فعقره بالسيف، ثم أقبل على عليٍّ فسدد إليه ضربة قوية من سيفه فاتقاه على بدرقته فانقدَّت، فتقهقر له علي، وجعل عمرو يلاحقه بضربات سريعة، وجعل علي يتقهقر له ويخادعه حتى خُيِّل إلى عمرو أنَّ هناك من يهاجمه مِن خلفه، فأدار رأسه لينظر، فعاجله علي بضربة خاطفة أطاحت بساقه عن جسده، فأمسك

عمرو بساقه المقطوعة فضرب بها وجه علي، لكنه أخذ يترنح بعد ذلك حتى سقط على الأرض، فأقبل عليه علي فأغمد فيه السيف حتى قتله، فوليَّ أصحابُه هاربين. وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت الخندق. وسقط نوفل بن عبد الله عن فرسه في الخندق فحمل عليه الزبير بن العوام بسيفه فشقه نصفين.

وفي صباح اليوم التالي عبأ المشركون رجالهم وفرقوا كتائبهم، وأرسلوا نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك وقتًا طويلاً من الليل وما استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من المسلمين أن يتحرك من موضعه ولا صلَّى أحد منهم ظهرًا ولا عصرًا ولا مغربًا ولا عشاءً حتى كشف الله المشركين ورجع كل فريق إلى منزله، فلمَّا صار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع قبته أمر بلالًا فأذن وأقام للظهر، وأقم بعدُ كيل صلاةٍ إقامة، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات. وقال عليه اصلاة والسلام: "شغلونا عن الصلاة الوسطي (يعني العصر)، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا".

وهمت بنو قريظة أن يغيروا على المدينة ليلًا، فجاء الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث سلَمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة. وكان الخوف على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من الخوف من قريش وغطفان.

وحُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلصُ إلى كل إمرئ منهم الكرب، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصالح غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن ينسحبوا ويخذلون بذلك قريش واليهود، فأبت ذلك الأنصار فترك ما كان أراد مِن ذلك.

إلى هذه اللحظة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه قد عملوا كل ما يستطيعون عمله وأفرغوا كل جهد لهم في الدفاع عن دينهم ومدينتهم، حتى لم يبق طوْق البشر مِنْ مدَخَّر. وهنا تدخلت عناية الله تعالى لتأخذ بيد أولئك المؤمنين المجاهدين الذين جاهدوا في الله

حق جهاده، فأخذ سيْر المعركة يتطور ويتجه إلى اتجاه إلهي لا تستطيع قوة من البشر أن تغيره، فسبحانه وعد عباده المؤمنين بالنصر إذا هم نصروه، وما النصر إلا من عنده سبحانه وتعالى.

وكان مما صنع الله لرسوله وللمؤمنين من أسباب النصر، أن جاء (نُعيم بن مسعود الشجعي) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يتدبر أمره، ونُعيم، كان من دهاة العرب من أشجع من غطفان، وكان قد هداه الله إلى الإسلام فاعتنقه وأسرَّه ولم يعلنه لأحد إلا لرسول الله حين وفد إليه خِفيةً من قومه. وعرض نُعيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمل الخديعة والحيلة والوقيعة بين الأحزاب من المشركين. فوافقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك على اعتبار انَّ الحرب خدعة، والخدعة أحد اسلحتها. فذهب نعيم، أول الأمر، إلى بني قريظة، وكان عشيرًا لهم ونديمًا في الجاهلية؛ فدخل عليهم، وهم لا يعلمون أمر إسلامه وظنهم أنه لا زال على الشِرك، فقال لهم: "يا بني قريظة، قد عرفتم وُدي إياكم وخاصَّةَ ما بيني وبينكم"، قالوا: "صدقت، لست عندنا بمتهم"، فقال لهم: "إنَّ قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم: البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحوَّلوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد واصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا فرصةً اصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به غنْ خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا مِن اشرافهم، يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه". فقالوا: "لقد اشرت بالرأي".

ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن رحب ومنْ معه من رجال قريش: "قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرًا قد رأيت عليَّ حقًا أن أبلغكموه، نصحًا لكم فاكتموا عني"، فقال: "نفعل". قال: "تعلموا أنَّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش

وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم. فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على منْ بقيَّ منهم حتى نستأصلهم؛ فأرسل إليهم: أنْ نعم. فإن بعثَت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا:.

ثم خرج حتى أتى غطَفان، فقال: "يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم تتهموني"، قالوا: "صدقت ما أنت عندنا بمتهم" قال: "فاكتموا عني"، قالوا: "نفعل، فما أمرك؟"، ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش وحذركم ما حذرهم.

فلمَّا كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صُنع الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم: "إنَّا لسنا بدار مقام، قد هلك الإبل والخيل، فاستعدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز محمدًا". فرد عليهم اليهود بقولهم: "إنَّ اليوم يوم سبت وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئًا، وقد علمتم ما نال مَنْ تعدَّى منا في السبت، ومع ذلك فنحن لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا مِن رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا، فإنا نخشى إن نالت منكم الحرب واشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه".

فلمَّا رجع الرسل بذلك قالوا: "صدَقنا والله نعيم بن مسعود". فردوا إليهم الرسل وقالوا: "والله لا نعطيكم رهنًا أبدًا. فأخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم"، فقال بنو قريظة: صَدق والله نعيم بن مسعود"، وخذل الله بينهم واختلفت كلمتُهم.

وفي ذلك الوقت الذي تفككت فيه الروابط بين اليهود وقريش وغطفان، وسئموا طول المقام أمام الخندق، وجاع الرجال والدواب، قرروا الانسحاب، وكان رسول الله قد دعا على الأحزاب بقوله: "اللهم مُنزِلَ الكتاب سريعُ الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم". وصدق اللهُ وعده لرسوله وللمؤمنين، فنصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، فبعث الله تعالى عليهم الريح العاتية في لية شاتية شددية البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم وتقوِّض خيمهم،

فظنوا أنَّ قوات المسلمين هاجمتهم وهم نيام، فولوا هاربين منهزمين مذعورين خاسرين راحلين إلى ديارهم.

ومع إشراقة الصباح، نظر المسلمون تجاه العدو من الخندق فلم يجدوا أحدًا من جموعهم الحاشدة، فقد فر الجميع هربًا إلى بلادهم؛ فأيقنوا بأنهم يؤيدون بعناية الله وأنَّ عين الله ترعاهم. وازدادوا إيمانًا بأنهم على الحق، وانَّ الله ناصرهم على عدوهم أبدًا. وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرًا لله، ولمَّا رفع راسه من سجوده، قال لأصحابه: "إنهم لن يغزننا بعد اليوم ولكنا نغزوهم". ثم هلل وهلل معه أصحابه قائلين: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء قبله ولا بعده".

وكانت غزوة الخندق آخر غزوة من المشركين للمدينة، كما حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى من القرآن في هذه الغزوة سورة تسمت بالأحزاب، تصف فيها آياتها ما وقع في هذه الغزوة والنصر الذي نصره الله تعالى للمسلمين فيها، يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحًا وجنوداً لم تروْها وكان اللهُ بما تعملون بصيرًا. إذا جاؤوكم مِن فوقِكم ومِنْ أسفلِ منكم وإذ زاغت الأبصترُ وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنون بالله الظُنونا. هنالك أُبتبى المؤمنون وزُلزوا زلزالًا شديدًا. وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم عرضٌ ما وَعدنا اللهُ ورسولُه إلا غرورًا. وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلِ يَثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيُ يقولون إنَّ بيوتنا عورةٌ وما هي بعورة إنْ يريدون إلا فِرارًا). (وَرَّد اللهُ الذين كفروا يغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى اللهُ المؤمنين القتال وكان اللهُ قويًا عزيزًا).

هذا ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر، ومات سعد بن معاذ من الجرح الذي أصابه في كاحله يوم الخندق.

ولم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة حرب وقتال، تتجلى فيها قوة المقاتلين وباسهم في القتال، بل كانت معركة أعصاب وامتحانًا للعزائم واختبارًا للقلوب، ومن أجل ذلك نجح فيها المؤمنون

الصابرون الثابتون وخسر فيها الكافرون والمنافقون. فبمقدار ما أظهر المشركون والمنافقون من الجزع والخوف والريبة والشك وضعف العزم، أظهر المؤمنون المتقون من الصبر وقوة الاحتمال ما أظهر قوة إيمانهم وشدة ثقتهم بالله وبنصره لهم، وإيمانهم بأنَّ ذلك ابتلاء وامتحان لهم، فلمَّا نجحوا في هذا الامتحان وصبروا لهذا البلاء، أعانهم الله برحمته واستنقذهم وأزال عنهم كيد عدوهم وقال الله تعالى في ذلك: (ولمَّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولهُ وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا. من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتزر وما بدّلوا تبديلًا. ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إنْ شاء أو يتوب عليهم. إن الله كان غفورًا رحيمًا. وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لما ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا).

* * *

وكان النصر على الأحزاب نصرًا عظيمًا للمسلمين ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبدى محمد صلى الله عليه وسلم، أمام عرب الجزيرة، أقوى رجل فيها، وزادت، تبعاً لذلك، قوة دولته في المدينة. وكان ما حدث خلال هذه الغزوة، من تآمر بني قريظة وخيانتهم لعهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، دافعًا لتطهير المدينة منهم والخلاص من خطرهم وقلقهم الدائم لمسلمي المدينة خلال الحصار. وكان من الضروري لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخلص من هذا العنصر الخطر المنافق حتى لا يتكرر ما حدث منهم إذا ما تعرضت المدينة لهجوم خارجي من قبل أعدائها.

ولذلك لم يُضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوقت، بعد أن ارتحلت قريش وغطفان إلى حيث قدما، فأذنَّ في الناس أن يصلوا العصر في أرض بني قريظة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضيي الله عنه فدفع إليه لواءَه، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم سار إليهم في المسلمين وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسًا، وذلك يوم الأربعاء ٢٣ من ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاله في بني

قريظة عند بئر يُقال لها بئر (أنا)، وتلاحق به الناس. وقد قفل اليهود عليهم حصونهم، وأنكروا على الرسول مقاتلتهم لهم، كما أنكروا أنهم نقضوا عهدهم له. وطلبت يهود بني قريظة مِن أحلافهم الأوس أن يأخذوا لهم الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكروهم بأيام وقوفهم معهم ضد الخزرج يوم بُعاث. لكن الأوس أجابوهم بأنَّ الله قد جُبَّ ذلك بالإسلام ولا حِلف لهم إلا مع إخوانهم المسلمين. فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يومًا أشد الحصار، ورُموا بالنبل، فلزموا جحورهم ولم يطلع منهم أحد. فلمَّا اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه أن يُطلق سراحهم على نفس شروط إخوانهم من بني النضير، ولكنه رفض لنَّ موقفهم اليوم مختلف ععن موقف إخوتهم من بني النضير. ولمَّا فقد اليهود الأمل هرب بعضهم مع أهله واعتنق البعض الآخر الإسلام إنقاذًا لأرواحهم. واقترح عليهم زعماؤهم أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم وأن يخرجوا لحرب المسلمين صفًا واحدًا، وبذلك يستطيعون إحراز النصر عليهم بعد أن يتبدد عن قلوبهم الخوف على عوائلهم، ولكنهم لجبنهم وحبهم للحياة، لم يفعلوا. وأرسلوا إلى رسول الله، في آخر الأمر، يطلبون منه أن يقبل فيهم حكمِاً حليفًا لهم من الأوس، وهو (أبو لبابة بن عبد المنذر)، فوافقهم عليه، وأرسله إليهم فشاوره في أمرهم، فأشار أبو لبابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رقبته بإشارة تفيد الذبح.

وحاول عبد الله بن أبى أُبَّيْ، خليفهم، أن يشفع فيهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض، ووافق على حكم رجل آخر من حلفائهم من الأوس، فاختاروا (سعد بن معاذ)، الذي كان يعالج وقتها، من غصابته يوم الخندق في خيمة (رفيدة الأنصارية)، وقد التف رجال من الأوس حول سعد يطلبون منه أن يشفع لهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حلفائهم من بني قريظة. فأخذ سعد من اليهود عهدًا أن يُنفذوا ما يحكم به، فأعطوه عهدًا بذلك، فحكم بأن يُقتَل الرجال وتُسبى الذراري والنساء وتُقسَّمُ الأموال غنيمة

للمسلمين. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد حكمتُ فيهم بحُكم الله مِن فوق سبع سمَوات".

ثم نزلوا على حُكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة، فكتُفِوا ونُحُوا نِأحية وحبسوا في دار كيسة بنت الحارث، وامرأة بني النجار، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا في ناحية، واستعل عليهم عبد الله بن سَلام وجمع أمتعتَهم وما وُجد في حصونهم من السلاح والأثاث والثياب، فوُجد فيها ألف وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع وألفا رمح وألف وخمسمائة قوس وخمر وجرار سكر، فأهرق ذلك كله ولم يُخمسَّن ووجدوا جِمالًا نواضح وماشية كثيرة.

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخميس السابع من ذي الحجة، ثم أمر بهم فأُدخلوا المدينة وحُضر لهم أخدودًا في السوق، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعة صحبة، وأُخرجوا إليه جماعات جماعات فضُربت أعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة إلى سبعمائة. واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائمهم جارية هي (ريحانة بنت عمرو) لنفسه، وأمر بالغنائم فجُمعت فأَخرج الخمس من المتاع والسبيْ، ثم أمر بالباقي فبيع في مَنْ يزيد وقسَّمه بين المسلمين. وقد قسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة بني قريظة على المقاتلين بواقع ثلاثة أسهم للفارس وسهماً للراجل. وقد كان من بين قتلى بني قريظة من أشرافهم: حُيَّيْ بن أخطب، وكعب بن اسد، ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت قد طرقت الرحى على (خلاد بن سويد بن الصامت)، أثناء حصار الخندق، فقتلته، فقُتلت به. وقد نزل في بني قريظة قوله تعالى من سورة الأحزاب: (وأنزل الذين ظاهروهم مِن أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطاؤها وكان الله على كل شيء قديرًا).

ولمَّا انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة، استأذنت الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلام بن أبي الحقيق، وهو بخيبر، وكان سلام فيمن حزَّب الأحزاب على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فأذِن لهم. فخرج له من الخزرج مِن بني سلَمة خمسة نفر هم: عبد الله بن عُتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود، فخرجوا وأمرَّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عتيك، ونهاهم عن قتل وليد أو إمرأة، فخرجوا حتى قدموا خيبر، وأتوا دار ابن أبي الحقيق ليلًا وقتلوه في فراشه، ولم يقتلوا إمرأته التي كانت بالدار التزامًا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم قتل النساء والأطفال.

وقبل أن نختتم ما وقع لبني قريظة وما لاقوه جراء جُرمهم، لنا أن نعلِق على ما انتقد به بعض المستشرقين الأوربيين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فعله مع بني قريظة واتهامهم له بالقسوة واستعظامهم قتله لرجالهم وحسبانهم ذلك مخالفًا لقوانين الحروب وأعرافها. ونسوا أمورًا لا يصدقُ الحكم في هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار؛ وهي أنَّ بني قريظة حنثوا بعهدهم وأيْمانهم مرات عديدة حتى أنه لم يعد يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد بعد الذي يفعلوه يوم الخندق. كذلك فإنهم حكمَّوا فيهم حليفهم سعد بن معاذ، وهم الذين اختاروه ظنًا منهم أنه سيشفعع لهم، وهم يعلمون مكانة سعد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكن سعدًا أدانهم بنص التوراة التي يؤمنون بها، فقد جاء في سِفْر (ثنية الاشتراع) ما نصه في هذا الخصوص: (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها. وإذا دفعها الربُ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. . .) [تثنية، إصحاح: ١٠ – ١٥]. فليسأل السائل إذن عما كان سيفعله اليهود والمشركون بالمسلمين لو انقلبت الدائرة عليهم؟. إنَّ القضاء الذي قضاه النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة عدل وحكمة وصواب، والجزاء الذي وقع عليهم هو جزاء مجرمي الحرب على مر العصور، والحكم على مجرمي

الحرب هو القتل ولا شيء غيره جزاء الخيانة، والخيانة في الحرب تعُرض من تقع عليهم إلى الغناء والدمار والهزيمة والقتل، فمن ارتكبها هو الأحق بالقتل. ولنا في التاريخ أمثلة كثيرة لقتلٍ وقع على الخائنين في الحرب، في التاريخ القديم والتاريخ الحديث.

١١- الفتح المبين

ما كادت شمس آخر أيام السنة الخامسة للهجرة تغرب حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في وضع القوة الذي جعله يواجه المستقبل وكله ثقة في نصر الله تعالى له وللمسلمين، وقد جعل كيان دولة الإسلام يُصبح واقعًا حقيقيًا، وجعل نور الإسلام يعم سماء العالم، ليبدد ظلمات الشِرك والوثنية والضلال الذي ساد العالم قرونًا عديدة.

وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمل على تأمين الدولة التي أقامها، وأن يعمل على ملاحقة المتحفزين للقضاء عليها والضرب على أيديهم بيدٍ من حديد، ومباغتتهم قبل أن يباغتوه حتى تثبتت أقدام الدولة الجديدة.

ومن الأعداء الذين كانوا يتربصون بدولة الإسلام (حيثلية بني بكر بن كلاب)، التي كانت تسكن شمال شرقي المدينة. وكانوا لا يزالون على شركهم. وقد نمى إلى علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يعدون العدة لغزو المدينة بقصد القضاء على دولة الإسلام بها؛ فباغتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بأن أرسل إليهم مع مُطلع العام السادس للهجرة قائده الشاب الجريء (محمد بن مسلمة)، على رأس ثلاثين من فرسان المسلمين، قبل أن ينتهوا من حشد جموعهم. ونجح ابن مسلمة في هزيمتهم وترويعهم، وقد ظنوا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل إليهم جيشًا كبيرًا طلائعه أولئك الثلاثين، فهربوا تتخطفهم الطير، وتركوا وراءهم غنائم كثيرة استولى الملسمون عليها، وعادوا بها منتصرين إلى المدينة. وذلك أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم درسًا قاسيًا لبني بكر ولمن تسول له نفسه محاربته من القبائل الأخرى المتحفزة لقتال المسلمين والمتربصة لدولة الإسلام.

وبعد عودة هذه الحملة المظفرة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته (زينب بنت جحش)، التي جاء زواجه منها بأمر من السماء نزل به الوحي، وحتى يُقرر بهذا الزواج تشريعًا يختص بتحريم التبني في الإسلام. كذلك فرُض في ذلك الوقت الحج على المسلمين مرة في العمر، لمن استطاع إليه سبيلًا.

ولم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى أهل الرجيع، وصمم على أن يأخذ بثأرهم من قبيلة بني لحيان، الذين قتلوهم غدرًا، وكان على رأس القتلى إثنان من أحصب صحابته وهما: (خبيب بن عدي)، و (عاصم بن ثابت). وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه لغزو بني لحيان يقود حملته عليهم في جمادي الأولى من العام السادس للهجرة، على رأس مائتي فارس. وحتى يباغت القوم ويوقع بهم على غرة أظهر أنه يريد الشام، فسلك طريق الشام، ثم عدل شمالًا حتى نزل منازل بني لحيان عند عُسفان. وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ماء لهم يُعرف (بالرجيع)، فوجد القوم قد هربوا وامتنعوا برؤوس الجبال< فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوامة دون قتال بعد أن أدخل الرعب والخوف في قلوبهم وبعد أن أظهر لهم قوة المسلمين، عاد وهو يقول: "أئبون تائبون عابدون لربنا حامدون".

وبعد ليالٍ قليلة من عودة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من غزوة بني ليحانـــ هاجمت خيل من (غطفان) يبلغ عددها حوالي العشرين، إبلًا للمسلمين كانت ترعى بمنطقة (الغابة)، وهي ماءٌ على طريق المدينة. وكان مع الإبل رجل من بني غفار من اليمن وزوجته، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة.

فلمَّا علم المسلمون بذلك تسابقوا بخيولهم ليلحقوا بالمهاجمين، وتراص الفرسان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرَّ عليهم (سعدًا بن زيد)، وطلب منهم اللحاق بالأعداء، فخرجوا في طلبهم: ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرسان في رجاله حتى نزل بالجبل من (ذي قَرَد) وهي ناحية خيبر، وتلاحق الناس واستطاعوا قتل مَنْ لحقوا به، وهرب الباقون إلى

مواطن غطفان. وبعد ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قواته بالعودة إلى المدينة بعد أن استردوا أموالهم وأرهبوا عدوهم.

وفي نفس الشهر، جمادى الأولى، من نفس العام بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدًا بن حارثة إلى منطقة (العيص)، في طريق المدينة القادم من الشام، ومعه سبعون فارسًا، لِما بلغه أنَّ عيرًا لقريش قد أقبلت تحمل بضاعةً من الشام. فتعرض زيد ورجاله لها وأخذوا ما فيها مِن فضة كثيرة كانت في القافلة لصفوان بن أمية، وأسروا رجال القافلة. وكان من بينهم (أبو العاص بن الربيع)، زوج (زينب) بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن أخت السيدة خديجة لأمها وأبيها. وقدم زيد بالأسرى والغنيمة إلى المدينة؛ فقسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى به المقاتلون غنيمةً بينهم بعد استخلاص الخمس منه لمستحقي الفيءْ. ولمَا أتى أبو العاص المدينة طلبا من زوجته أن تسأل أباها أن يرد إليه ماله وما كان أمانةً عنده من أموال الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال السرية وأخبرهم بالأمر وخيرَّهم بين أن يعيدوا لأبي العاص حاجته أو يحتفظوا بها، فآثروا إرجاع الحاجة لأهلها، كرامةً لأبي العاص، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج أبو العاص من المدينة حتى أتى مكة وأدى للناس أماناتهم، وعاد إلى المدينة ليعلن إسلامه ويشهره على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت زينب قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها على شركه، فلمَّا أسلم ردها النبي صلى الله عليه وسلم إليه بنكاح جديد.

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة (أكتوبر ٦٢٧م) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى (بني ثعلبة) بناحية (الطرف)، وهو ماء بطريق العراق على مسافة ستة وثلاثين ميلًا من المدينة، فخرج في خمسة عشر رجلًا، فأصاب عشرين بعيرًا، وهربت الأعراب أصحاب البعير ولم يُعثر على أحد منهم، وعاد زيد في الصباح بالنِقم إلى المدينة بعد أن غاب عنها أربع ليال.

وفي شعبان (نوفبر ٦٢٧م) من نفس العام أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة من أصحابه إلى (بني كلب) بدومة الجندل، فعرض الإسلام عليهم، فأسلم شيخهم (الصبغ بن عمرو)، وكان نصرانيًا، وأسلم معه غالب قومه، وبقي من بقي منهم على ذمته على أن يدفع الجزية، فصالحهم ابن عوف على ذلك، وتزوج ابنة الأصبغ وقدم بها المدينة، فأنجب منها ابنه سلَمة بن عبد الرحمن.

وفي نفس الشهر، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في مائة رجل إلى (بني سعد بن بكر)، بفَدَك، وهي قرية على يومين من المدينة، بينها وبين خيبر، وذلك لأنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم يريدون معاونة يهود خيبر على غزو المدينة، وكان يهود خيبر يعدون لذلك. فسار عليّ إليهم بمن معه من الرجال حتى انتهوا إلى ماء يسمى (الهمَج) بين خير وفدَك، فلمًا أحس القوم بهم هربوا تاركين وراءهم خمسمائة بعير وألفيْ شاه، فاستولى المسلمون عليها، وقدموا بها إلى المدينة دون أن يحاربوا.

وهكذا ما كادت السنة السادسة تنقضي حتى نجحت دولة الإسلام في المدينة في القيام بواجب الدفاع الهجومي من خلال تلك المناوشات التي إما كانت لرد عدوان أو لإرهاب عدو ينوي بالعدوان، وقد أدت هذه المناوشات غرضها على أكمل وجه؛ فإنه ما كادت هذه السنة تنتهي حتى كانت عيبة دولة الإسلام قد استقرت في نفوس القبائل فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ السلام يسود بين المسلمين وجيرانهم، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على تنظيم أمور دولته والتطلع إلى توسعتها خارج نطاق المدينة.

وهو في المدينة، لم ينس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسقط رأسه مكة، فقد كان بصره دائمًا متجه إليها وقلبه متعلق بها وروحه تهفو إليها. وكيف لا يتعلق بأم القرى وبها البيت الحرام والكعبة قبلة الناس جميعًا، أكرم البلاد واشرفها، وفيها أيضًا ذكريات الطفولة والصبا وذكريات أيام التأمل والتهدج. وذكريات أيام التحدي والصراع، وهي موطن الأصل ومهبط الوحي.

لم تغب عن خاطره للحظة واحدة، وهو وإن عاش في المدينة بجسده فإن كل جارحة من جوارحه كانت في شوق لأم القرى وعروس المدن. وبعد الخندق، ازداد شوقه للذهاب إلى مكة واستوحش البيت الحرام والكعبة وكل شب وطأته قدمه على أرضها. ولذلك قرر عليه الصلاة والسلام في غرة شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة أن يخرج إليها معتمرًا، وأن يحمل معه الهديْ، وأن يترك الدعوة مفتوحة لمن يريد من أتباعه أن يصحبه في هذه الرحلة التي قدَّر خطرها وتحديه لقريش بها، على ألَّا يحملوا معهم غير السيوف في أغمادها. وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون المسيرة إلى مكة مسيرة سلمية؛ حتى لا تعده قريش غزوًا لمدينتها وتحديًا لزعامتها ومكانتها فيها. وفي نفس الوقت، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بذهابه إلى مكة، أن يُظهر قوته لقريش بعد تأييد الله له ونصره له. كذلك ليُظهر هذه القوة لكل الجزيرة العربية حتى يحسب الجميع حسابه لهذه الدولة الجديدة القوية التي أقامها محمد في المدينة، والتي ترتكز أركانها على الإيمان وعبادة الله الواحد الديَّان. وفي ذات الوقت، أراد محمد صلى الله عليه وسلم بذهابه إلى مكة، أن يجرد قريش من أهم حججها في محاربته ومحاربة دعوته بزعمها أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يعظِم البيت الحرام ولا يدعو الناس للذهاب والحج إليه.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك، في قرارة نفسه، أنَّ قريشًا لن تسمح له بدخول مكة لأداء العمرة، ولذلك رمى من وراء خطوته هذه، أن يحقق هدفينْ في وقت واحد، الأول: هو أن يُظهر قريش بمظهر المانع للناس من زيارة البيت، وهي التي تدَّعي أنها حاميةُ البيت وحاميةُ عُواده، والثاني: أنَّ الإسلام قد حفظ للبيت الحران قداسته وحرمته في ظل العقيدة الجديدة، وحفظ فيه فريضة الح، على خلاف ما كانت تدعيه قريش عن هاذ الدين الجديد وعن أصحابه أمام القبائل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك حرج موقف قريش؛ فهي لا تستطيع منعه من دخول البيت فتفقد بذلك سمعتها بني القبائل، كما أنها لا تستطيع منعه بالقوة من ذلك؛ بسبب ضعفها وفقدان قوتها وسمعتها العسكرية بعد معركة الأحزاب.

ولكي يقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش كل حجة ويؤكد لها وللناس أنه إنما أتى البيت زائرًا مسالمًا، خرج في ذي القعدة معتمرًا لا يريد حربًا، واستنصر العرب ومنْ حولَه من عرب البادية ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت. ولكن الأعراب ظنوا أنَّ الحرب لابد واقعة بينه وبين قريش، وأن الرسول وأصحابه لابد هالكون في هذه الواقعة، فأبطأ عليه كثير منهم وأحجموا أن يشاركوا في هذه الرحلة الخطيرة، وخشوا أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومَن لحق بهم من العرب، وساق معه الهديْ سبعين بدنة، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائرًا للبيت ومعظمًا له.

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم، وأخذ معه من نسائه أم سلَمة، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم مع هلال ذي القعدة (فبراير ٦٢٨م)، ومعه من المسلمين نحو ألف وأربعمائة لا يحملون من السلاح غير السيوف في أغمادها، وهو سلاح المسافر. وركب صلى الله عليه وسلم ناقته (القصواء)، وسار بأصحابه حتى وصل إلى (ذي الحُليفة) على نحو عشر كيلو مترات من المدينة، فصلى هناك الظهر، ثم اتجهوا بعد ذلك نحو مكة محرمين.

امَّأ قريش، فقد أخذتها حميَّة الجاهلية حين بلغها أمر مسيرة المسلمين إلى بلدهم، وصممت على أن تمنع دخول محمد وصحبه عليهم مدينتهم مهما كلفهم ذلك، وأخذت بالتالي تستعد لمواجهة هؤلاء (الغزاة)، فأرسلت خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل في مائتين من فرسانها إلى منطقة (كراع الغميم) ليعترضوا طريق المسلمين عند مدخل مكة، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش ومن رجال ثقيف وخرجوا إلى منطقة (بلدح) خارج مكة، وعسكروا هنالك بنسائهم وصبيانهم، ووضعوا على جبال مكة عند مداخلها عيونًا تراقب حركات (الغزاة).

فلمَّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عُسفان) وصار على بُعد ستين كيلو مترًا من مكة لقيه (بشر بن سفيان الكعبي) فأنبأه نبأ قريش وعزمها على القتال، فقال رسول الله: "يا ويح قريش،

قد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام داخرين! والله الذي بعثني بالحق لا أزال أجاهدهم حتى يظهر الله الحق أو تنفرد هذه السالفة"؛ ثم قال: "مَنْ رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها؟"، فقال رجل مِ، أسلم: "أنا يا رسول الله"، فسلك بهم طريقًا وعرًا، كثير الحجارة بين شِعاب شقَّ على المسلمين اجتيازه، ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاله أن يسلكوا ذات اليمين، حتى بلغ مهبط الحديبية من أسفل مكة، وصار منها على مسيرة يومٍ واحد.

فلمَّأ رأت قريش غبار جيش المسلمين قد خالف عن طريقهم رجعوا راكضين إلى قريش.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك في (ثنية المرار) بركت ناقته، فقالت الناس: بركت الناقة وحرنت عن المشيْ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما خلأت وما هو لها بخلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها". ثم قال للناس: "إنزلوا"، قيل له: "يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه"، فأخرج سهمًا مِن كنانة، فأعطاه رجلًا من اصحابه هو (ناجية بن جندي) سائق بُدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل به في قبُيب مِن تلك القُلُب، فغرزه في جوفه، فجاش بالرواء وفاض الماء حتى ارتوى الناس وارتوت الإبل، ولا زالوا يشربون ويسقون الإبل منه حتى ارتحلوا.

فلَّما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية أتاه (بُديل بن ورقاء الخزاعي)، في رجال بن خزاعة، فكلموه، وسألوه: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأتِ يريد حربًا وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظِمًأ لحرمته، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: "يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهتموه وواجهتموه بما تكرهون". فقفالوا: "وإن كان جاء ولا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينما عنوةً أبدًا، ولا تحُدِث بذلك عنا العرب".

ثم بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (مكرو بن حفص بن الأخيف)، أخا بني عامر بن لؤي، فلمَّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلًا قال: "هذا رجل غادر"، فلمَّا انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له رسول الله نحوًا مما قال لبدُيل وأصحابه، فرجع إلى قريش، فأخبرهم بما قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم بعثوا إليه (الحليْس بن علقمة)، وكان يومئذٍ سيد الأحابيش من كنانة، فلمَّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ هذا مِن قومٍ يتألهون، فابعثوا الهديْ في وجهه حتى يراه" فلمَّا رأي الهدي يسيل عليه مِن جانب الوادي في قلائده المعلَّقة في أعناقه، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظامًا لما رأى، فقال لهم ذلك، فقالوا له: "إجلَس فإنما أنت أعرابي لا عِلأم لك". قال ابن إسحاق: انَّ الحليس عضب عند ذلك وقال: "يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدنتكم. أيُصَدُ عن بين الله مَنْ جاء معظِمًا له! والذي نفسي الحليس بيده، لتخلُن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرةَ رجل واحد"، فقالوا له: "مَهٍ، كف عنا يا حليس حتى تأخذ لأنفسنا ما نرضى به".

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (عروة بن مسعود الثقفي)، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس بين يديه، ثم قال: "يا محمد، إني تركت قومك قد استنفروا لك، وهم يقسمون بالله لا يُخلُون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت مِن قتالهم بين أمرين: إما أن تجتاح قومك، فلم نسمع برجل اجتاح قومَه قبلك، وإما أن يخذلك مَنْ نرى معك، فإني لا أرى معك إلا أوباشًا ورعاعًا من الناس لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم" فنال منه أبو بكر وقال له: "ويحك أنحن نخذله؟". وكان عروة في خلال حديثه يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه، جريًا على عادة العرب عند الملاطفة والرغبة في التواصل والتراحم، والمغيرة بن شعبة، وهو ابن أخي عروة، واقفٌ على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر، وكلَّما مدَّ عروة يده إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب المغيرة بكعب سيفه على يده وهو يقول: "كُف يدك عن وجه

رسول الله قبل أن أقطعها لك"، فيقول له عروة دون أن يعرف من هو: "ويحك ما أفظك وما أغلظك". فيبتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وانصرف عروة عن رسول الله وهو مأخوذ بما رأى من حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له وتعظيمهم لشخصه وتفانيهم في طاعته، فعاد إلى قريش يقول له: "يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في مُلكه وقيصر في مُلكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيتُ ملِكًا في قومٍ قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيتُ قومًا لا يُسلِمونه لشيء أبدًا، فرو رأيكم".

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش بمكة (خَرَاش بن أمية الخزاعى) وحمله على بعير له يُقال له (الثعلب) ليبلغِ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعثت قريش أربعين رجلًا منهم، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، فأسرهم المسلمون جميعهم، وجيء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لينظر في أمرهم، فعفا عنهم، وخلَّى سبيلهم.

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء من أجله، فقال له عمر: "يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من عديٍّ بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزُ بها مني، عثمان بن عفان" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان واشراف قريش يخبرهم بأنه لم يأتِ لحرب وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فحمله بيم يديه، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان ولعظماء قريش، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم: "إن ئت أن تطوف بالبيت فطُف"، فقال: "ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم". واحتبسته

قريش عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين انَّ عثمان بن عفان قد قُتِل، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون لهذا الخبر، وقال عليه الصلاة والسلام: "لا نبرح حتى نناجز القوم"، فدعا الناس إلى البيعة للحرب، فكانت (بيعة الرضوان)، تحت الشجرة، بايعه جميع من كانوا معه بيعة الموت، بايعوه على نصرته والثبات معه وعدم الفرار، وكان أبو سنان الأسدي أولَّ من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان. وقد بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان، فضرب إحدى يديه بالأخرى. وقد نزل في أمر هذه البيعة قوله تعالى: (لقد رضى الله ع نالمؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا. ولمَّا تمت البيعة، عاد عثمان بن عفان، وبان كذب الإشاعة التي ترددت عن مقتله. فبعثت قريش تطلب الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفدت في طلبه (سهيل بن عمرو)، أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: "إئت محمدًا فصالحِه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحُدِث العربُ عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبدًا". فأتاه سهيل بن عمرو، فلمَّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلًا قال: "قد أراد القوم الصلح خين بعثوا بهذا الرجل"، فلمَّا انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

فلمَّا التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: "يا أبا بكر، أليس برسول الله؟" قال: "بلى"، قال: "أو لسنا بالمسلمين؟" قال: "بلى"، قال: "أو ليسوا بالمشركين؟" قال: " بلى"، قال: "فعلامَ نُعطى الدنية (الذل) في ديننا؟". قال أبو بكر: "يا عمر، إلزم أمَره. فإني اشهد أنه رسول الله". قال عمر: "وأنا أشهد أنه رسول الله". ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله ألست برسول الله؟" قال: "بلى"، قال: "أو لسنا بالمسلمين؟" قال: "بلى"، قال: "أو ليسوا بالمشركين؟" قال: " بلى"، قال: "فعلامَ نُعطى الدنية في ديننا؟". قال: "أنا عبدُ الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني" قال: "فكان عمر يقول: ما

زلتُ أتصدق وأصومن وأصُلى وأعتق مِن الذي صنعتُ يومئذٍ مخافةَ كلامي الذي تكلمت به حتى رجوتُ أن يكون خيرًا".

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فقال له: "أكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: "لا أعرِف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "أكتب باسمك اللهم" نكتبها. ثم قال: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو". فقال سهيل: "لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: "اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، إن بيننا عيبةً مكفوفة (صدور منطوية على ما بها) وأنه لا إسلال ولا إغلال (لا سرقة ولا خيانة) وأنه مَنْ أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه".

فتواثبت خزاعة فقالوا: "نحن في عقد محمد وعهده"، وتواثبت بنو بكر فقالوا: :نحن في عقد قريش وعهدهم".

"وأنك ترجع عنًا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عامٌ قابل خرجنا عندك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الركب، السيوف في القِرب لا تدخلها بغيرها".

ولمَّا انتهى سهيل من الإملاء، وانتهى علي من الكتابة بموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، طلب سهيل أن يشهد على هذا الصلح رجال من الطرفين، فأشهد على الصلح رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين. وكان من شهود المسلمين: أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة ومكرز بن حفص، وعلي بن أبو طالب كاتب الصحيفة وعبد الله بن سهيل بن عمرو المندوب عن المشركين في الصلح.

فلمَّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح قدَّم هديه فذبحه، ثم جلس فحلق رأسه، حلقها له خَرَاش بن أمية، فلمَّا رأى الناس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقام بالحديبية عشرينيومًا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه قافلين إلى المدينة، حتى إذا كانوا في منتصف الطريق نزل الوحي بسورة الفتح بقوله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويُتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا وينصرك الله نصرًا عزيزًا). ثم ذكر الله تعالى أمر بيعة الرضوان بقوله تعالى: (إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومنْ أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا). ثم قال تعالى: (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطًا مستقيمًا وأمتى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها مكان الله على الله شيء قديرًا). ثم قال تعالى: (لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلِم ما لم تعلموا) أي لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رأى أنه سيدخل مكة آمنًا لا يخاف، فجعل من ذلك فتحًا قريبًا، وهو صلح الحديبية.

يقول الزُهري: "فما فتُح في الإسلام فتحٌ قلبه كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمَّا كانت الهدنة ووضعف الحرب أوزارها وأمِن الناس بمعثهم بعضًا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلَم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ولقد دخل في هاتين السنتين بعد الحديبية، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر".

قال ابن هشام: "والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأرعمائة ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

وقد التزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشروط الصلح مع قريش فَّرد مَن هاجر إليه من الرجال بعد الصلح، ولكنه لم يرد مَنْ هاجر إليه من النساء استجابةً في ذلك لأمر الله تعالى. فقد نزل عليه بصدد ذلك في سورة (الممتحنة) قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بأيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حلٌ لهم ولا هم يحلون لهن). وكانت قد هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (أم مكتوم بنت عقبة بن أبي معيط) فرارًا بدينها، بعد الصلح، وأعلنت إسلامها على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج أخواها (عمارة بن الوليد وعقبة بن الوليد) حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن يردها عليهما تنفيذًا لبنود صلح الحديبية، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم والتزم بأمر الله في ذلك. وعاد عمارة وعقبة إلى مكة دون أختهما، فشجع ذلك النساء المسلمات على الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد استبشر المسلمون بعد صلح الحديبية بفتح مكة، فقد روى ابن هشام أنَّ بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمَّا قدم المدينة: "ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمنًا؟" قال: "بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟" قالوا: "لا"، قال: "فهو كما قال لي جبريل عليه السلام".

ومن ثمرات صلح الحديبية، أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل ومُهِد للدعوة طريقها لكي تصل إلى القلوب، فبعد أن كان المسلمين محصورين في المدينة منقطعين عن العرب في البادية والحاضرة، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل في منازلها، وأن يختلطوا بالناس في ديارهم، فيشرحوا لهم مبادئ دينهم وحقيقة دعوتهم ويطلعوهم على ما في هذه الدعوة من مبادئ سامية وأخلاق عالية ومُثل كريمة وأهداف عظيمة. فأخذ الناس، بما يرون من أعمال المسلمين وأحوالهم وبما يسمعون ويشهدون من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، يُقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه. ففشا الإسلام في كثير من القبائل وآمن به كثير من الناس.

وكما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل على نشر الإسلام في بلاد العرب، أخذ يعمل على نشره في الممالك والأقطار التي تحيط بها، فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، واختار مِن أصحابه رجالًا يعرفهم بحسن الأداء وقوة البلاغ فبعث بكل كتاب رجلًا إلى ملك من الملوك. ومع أنَّ أكثر هؤلاء الحكام لم يؤمنوا، ولم يحسن بعضهم تلقي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُكرم وفادة رسوله، فإنَّ صوت الإسلام دويَّ في هذه الأقطار، وظل صداه يصدح في أرجائها حتى فتحها الله على المسلمين، ودان أهلها بالإسلام بعد زمن قليل لا يزيد على ثلاثين عامًا.

فبعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبًا، فقيل: يا رسول الله إنَّ الملوك لا يقرأون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ خاتمًا من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وأصبح كل رجل منهم يتكلن بلسان القوم الذين بعثه إليهم. فكان أول رسول بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، (عمرو بن أمية الضمري) إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى افسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعه على عينيه، ونزل من سريره إلى الأرض تواضعًا، ثم أسلم، وشهد شهادة الحق، وقال: "لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته"، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجابته وتصديقه وإسلامه، على يديْ جعفر بن أبي طالب، لله رب العالمين، وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه (أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب)، وكانت قد هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي، فتنصر هناك ومات، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتاب أن يبعث إليه بمَن قِبَلَه من أصحابه، ويحملهم ففعل. فزوجه أم حبيبة، وأصدق عنه أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية

الصَّخري، وجعل يُجق من عاج فجعل فيه كتابيْ رسول الله، وقال: "لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرها".

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، (دَحْية بن خليفة الكلبي)، إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصري ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بُصري إليه وهو يومئذٍ بحمص، وقيصر يومئذٍ ماشٍ في نذر كان عليه؛ إن ظهرت الروم على فارس أن عيش حافيًا من القسطنطينية إلى إيلءا (القدس)، فقرأ الكتاب الذي جاء فيه ما نصُه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من إتبع الهدي، أما بعد. . . فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلَم يؤتيك اللهُ أجرَ: مرتين فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسين "يا أهل الكتاب لقالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمونٌ).

ولمَّا قرأ هرقل الكتاب أذن لعظماء الروم في معسكره بحمص، فقال: "يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم مُلككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم؟" قالت الروم: "وما ذاك أيها الملك؟"، قال: "تتبعون هذا النبي العربي". فثاروا وغضبوا وهاجوا هياج حُمر الوحش ورفعوا الصليب. فلمَّا رأى هرقل ذلك منهم يئس مِن إسلامهم، وخافهم على نفسه ومُلكِه، فسَّكنهم، ثم قال: "إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحُب"، فسجدوا له.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عبد الله بن حذافة السهمي)، إلى كسرى ملك فارس يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من أتبع الهدي وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر مَنْ كان حيًا، أسلِم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس).

قال عبد الله: "فدفعتُ إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرئ عليه، ثم أخذه فمزقه، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم فرف مُلكَه". ولقد استجاب الله تعالى لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد سلَّط الله تعالى على كسرى أبرويز، إبنه (شيرويه)، فقتله ليلة الثلاثاء العاشر من جماده الأولى سنة سبع للهجرة.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (حاطب بن أبي بلتعة اللخمي) إلى المقوقس، صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، فأوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. . . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من أتبع الهدى ، أما بعد. . فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلِم تسلَم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم أهل القبط، "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). وقد قرأ المقوقس الكتاب وقال له خيرًا، وأخذ الكتاب فجعله في حُقٍ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جاريته وكتب إلى النبي كتابًا جاء فيه ما نصه: (باسمك اللهم. . . من المقوقس إلى محمد. . أما بعد، ففقد بلغني كتابك وقرأته وفهمت ما فيه، أنت تقول أنَّ الله تعالى أرسلك رسولًا وفضلَّك نفضلًا وأنزل عليك قرآنًا مبينًا؛ فكشفنا يا محمد في علمنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق مَنْ تكلم بالصدق. ولولا أني ملكتُ ملكًا عيمًا لكنت أول من سار إليك لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والمتقين. . . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين) وقد بعث المقوقس مع كتابه إلى رسول الله بجاريتين (لهما مكان في القبك عظيم) وكسوة وبغلة يركبها، ولم يزد على هذا ولم يُسلِم. فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته وأخذ الجاريتين (مارية) أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأختها (سيرين) وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذٍ غيرها وهي (دُلدُل). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضن الخبيث بُملِكه ولا بقاء

لملكه"، قال حاطب: "كان لي نُكرِماً في الضيافة وقلة اللبث ببابه، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام".

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم •شجاع بن وهب الأسدي) إلى الأمير الغساني الحارث بن أبي شَمرَ يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا، فلم يتقبل الحارث الكتاب ثم رمى به، وعاد شجاع وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعله، فقال عليه الصلاة والسلام: "باد ملكُه"، ومات الحارث على الكفر عام الفتح.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (سَليط بن عمرو العامري) إلى هوذة بن علي، رئيس بني حنيفة باليمامة يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا، فقدم عليه ورحب به وقرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورد يطلب من الرسول أن يجعل له بعض الأمر حتى يتبعه، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه، وقال: "باد وباد ما في يديه"، فلمَّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره بأنه قد مات.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عمرو بن العاص)، بعد إسلامه، في ذي القعدة سنة ثمان، إلى جَيْفَر وعبد ابنيْ الجُلُندي، وهما من الأزد بعُمان، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتابًا وختم الكتاب، فأجابا إلى الإسلام وصدَّق بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، منصرفة من الجعرانة، (العلاء بن الحضرمي) إلى المذنر بن ساوى العبدي، حاكم البحرين، يدعوه إلى الإسلام، وكتب إليه كتابًا، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه وتصديقه.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا إلى أهل اليمن يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصدقة في المواشي والأموال، وويوصيهم بأصحابه ورسله خيرًا، وكان رسوله إليهم مُعاذ بن جبل ومالك بن مرارة.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (جَبلة بن الأيهم) ملك غسان يدعوه إلى الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهدى له هدية.

كذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جرير بن عبد الله البَجَلى إلى ذي الكلاع وذي عمرو من تُبع يدعوهما إلى افسلا، فأسلما.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أنَّ لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير م، بيعَهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يُغيَّر أسقفٌ عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهانته ولا يُغيَّر حقٌ من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه، ما لصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل شيوخ القبائل يدعوهم إلى الإسلام، ومن بينهم كذاب بني حنيفة، مسليمة، بعث له كتابه مع عمرو بن أمية الصخري يدعوه إلى الإسلام، فكتب إليه مسيلمة جواب كتابه، ويذكر فيه أنه نبي مثله، ويسأله أن يقاسمه الأرض، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله. وإنَّ الأرض يورثها من يشاء مِن عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى" وبعث به مع السائب بن العوام، أخى الزبير بن العوام.

* * *

ولقد تقوت جماعة الإسلام، بعد صلح الحديبية، بإسلام اثنين من كبار رجالات قريش وهما: (خالد بن الوليد)، و (عمرو بن العاص)، كذلك شهدت إسلام (عثمان بن طلحة)، حارس الكعبة، وإسلام (قبيلة خزاعة) جميعها.

وقد أورد ابن إسحاق أنَّ عمرو قد أسلم على يد نجاشي الحبشة. يقول ابن إسحاق في ذلك: "حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن ابي أوس الثقفي، عن حبيب بن ابي أوس الثقفي، قال: حدثني عمرو بن العاص مِن فيه قال: لمَّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالًا من قريش كانوا يروْن رأيي ويسمعون مني، فقبت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور عُلوًا منكرًا وإني قد رأيتُ أمرًا"، فما تروْن فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟

قال: رأيتُ أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده؛ فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا إنْ نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يديْ محمد، وإن ظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إنَّ هذا الرأي، قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه إليه وكان أحب ما يُهدي إليه من أرضنا الجلِد، فجمعنا له جلودًا كثيرة، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه. فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمين الضمري، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيَّه، فضربت عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع. فقال: مرحبًا بصديقي، أهدُيت إليَّ من بلادك شيئًا؟ قال: قلت نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أدمًا كثيرًا. قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلًا خرج مِن عندك وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطينه لأقتله فإن قد أصاب بين اشرافنا وخيارنا. قال: فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلتُ فيها فرقًا منه؟ ثم قلت له: أيها الملك والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتك، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله، قال: قلت: أيها الملك! كذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعهِ فإنه واللهِ لعلى الحق وليظهرَن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: قلت: أفبتايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجتُ إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي، ثم خرجتُ عامدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُسلِم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، وهو مُقبل من مكة فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم وإنَّ الرجل لنبي، أذهبُوالله فأسلِم، فحتى متى؛ قال: قلت: والله ما جئت إلا لأُسلِم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله إني أبايعك على أن

يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا اذكر ما تأخر؛ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمرو، بايع فإن الإسلام يجُب ما كان قبله، وإنَّ الهجرة تجب ما كان قبلها؛ قال: فبايعته، ثم انصرفت.

وقال بن غسحاق، وحدثني منْ لا أتهم: أنَّ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، كان قد أسلم معهما حين أسلما. وكان فتح بني قريظة في ذي القعدة وصدر ذي الحجة.

وفي عام الحديبية أيضًا كان تحريم الخمر النهائي على المسلمين، وذلك بنزول قوله تعالى في سورة المائدة: (يا ايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة مهل أنتم منتهون)، وكان شرُب الخمر لم يحرم التحريم النهائي حتى ذلك الوقت، وكان محرمًا فقط وقت الصلاة، عملًا بقوله تعالى في سورة النساء: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون). وقد جاء ذلك نتيجةً لسُكر بعض المسلمين أثناء الصلاة واضطراب صلاتهم. وقد جاء هذا التحريم النهائي للخمر والميسر حفاظًا على المسلمين من أن يوقع الشيطان بهم بواسطتها في العداوة والبغضاء وأن يحملهم على الصد عن ذكر الله والسير في طريق الغواية والفساد. فأريقت الخمور في شوارع المدينة وحُطمت آنياتها وقدورها، وتبددت رائحتها إلى الأبد عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاهرة المطهرة.

* * *

وبعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية إلى المدينة بشهر، قاد ألفًا وستمائة من رجاله لفتح خيبر. وكانت خيبر قرية زراعية غنية تقع شمال المدينة على مسيرة ثلاثة أيام منها، وكانت بها زراعات واسعة وأجود أنواع النخيل التي تُنتج أجود أنواع التمر في شبه جزيرة العرب على الإطلاق. وكانت أرض خيبر قد تملكها اليهود الذين استقروا فيها وزرعوها بعد أن جاءوها، بعد طرد الروم لهم من أرض فلسطين على أيام الإمبراطور

الروماني (تيتوس) سنة سبعين للميلاد. وكان اليهود على علم كبير بشئون الزراعة؛ فعرفوا كيف يستثمرون أرض خيبر ويزرعون بها أجود المحاصيل. وقد ابتنى اليهود لهم حصونًا متفرقة بين مزارع خيبر لتحميهم من أي هجوم خارجي قد يتعرضون، كعادة اليهود حيث استقروا، وقد بلغ عدد هذه الحصون ثمانية حصنًا، خمسة منها عند مدخل خيبر وثلاثة في مؤخرتها. وتُمثِل عدد هذه الحصون الخمسة المتقدمة خط المواجهة، وعُرف ثلاثة منها باسم (النطاة)، بينما عُرف الاثنان المتبقيان باسم (الشق).

ولقد كان يهود خيبر في حلف مع قريش وقبائل غطفان وفزارة، وقد أدى صلح الحديبية إلى إلغاء هذا التحالف بين خيبر وقريش وغطفان وفزارة، مما جعلهم في عزلة وقت مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم لحصونهم وفتحه لبلدهم. ولم يكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خروجه في هذه الغزوة، كما كان يفعل من قبل في غزواته السابقة، بل أعلن عنها. وقد أرسل عبد الله بن ابي أُبَّيْ إلى يهود خيبر يخبرهم بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ويحذرهم، ويطلب منهم التصدي لهذا الغزو، بعد أن هوَّن لهم من أمر رسول الله وقواته.

وحاول يهود خيبر الاستعانة بحلفائهم من عرب غطفان على أن يؤدوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين. لكن غطفان لم تقبل عرضهم خوفًا على أنفسهم من خطر القوة الإسلامية بعد أن تأكدوا منها في صلح الحديبية.

قال ابن إسحاق: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا اشرف على خيبر قال لأصحابه: "قفوا"، ثم قال: "اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرْين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، اقدموا بسم الله"، وكان يقولها عليه السلام لكل قرية دخلها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قومًا لم يُغز عليهم حتى يُصبح، فإن سمع أذانًا أمسك وإن لم يسمع آذانًا أغار، فنزل خيبر ليلًا، فبات حتى إذا أصبح لم يسمع اذانًا فركب

وركب الرجال معه، واستقبلوا عمال خيبر غادين إلى مزارعهم ومعهم مجارف الحديد والقفف الكبيرة، فلمَّا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش، قالوا: محمد والجيش معه، فأدبروا هاربين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساد صباح المنذرين".

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على (عصر) فبني له فيها مسجد، ثم على (الصهباي)، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بوادٍ يُقال له (الرجيع) فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، ولمَّا سمعت غطفان بمنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلةً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسًا، ظنوا أنَّ القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلُوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خيبر.

وحاصر الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود في خيبر شهرًا، ثم أخذ في فخ حصونها حصنًا حصنًا، وكان أول ما فتح من حصونهم حصن (ناعم)، ثم (القموص)، حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله منهم سبايا، منهن (صفية بنت حيي بن أخطب)، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وبنتيْ عم لها، فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه. وكان دحيه بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية؛ فلما اصفاها لنفسه أعطاه ابنتيْ عمها، وفشت السبايا من خيبر في المسلمين.

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح، وحاز من الأموال ما حاز، انتهى اليهود إلى حصينهم (الوطيح) و (السلالم)، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة، حتى أيقنوا الهلاك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ففعل. كذلك طلبوا منه أن يعاملهم في الأموال على النصف وأن يسمح لهم بالبقاء في خيبر يزرعون أرضها إن أرادوا، فوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وكتب بينه وبينهم عهدًا يقر لهم فيه هذه الأمور.

ولقد أخذت المستعمرات اليهودية الأخرى بما فعلت خيبر، وهذه المستعمرات هي: فدَك، ووادي القرى، وتيماء، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على نفس شروط يهود خيبر فوافقهم الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، وكتب لهم كتبًا أمْرت لهم مثلما أقر العهد مع يهود خيبر. وكانت خيبر فيئًا بين المسلمين، أمَّا فدك فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

فلمَّا اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له (زينب بنت الحارث)، امرأة سلام بن مشكم، شاةً مسمومة، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت في الذراع السم، ثم سممت سائر الشاة، ثم جاءت بها. فلَّما وضعتها بين يديْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمَّا بشر فأساغها، وأمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها، ثم قال: "إنَّ هذا العظم ليخبرني أنه مسموم"، ثم دعا بها فأعترفت، فقال: "ما حملك على ذلك؟" قالت: "بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلتُ إنْ كان ملِكًا استرحت منه، وإن كان نبيًا فسيُخبر"، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات بشرٍ مِن أكلته التي أكل.

ولقد قدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خيبر ابن عمه (جعفر بن أبي طالب)، والمهاجرون معهِ من الحبشة، ففرح به رسول الله والتزمه وقال: "ما أدرى بأيهما أنْ أُسَر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل (عمرو بن أمية الضَمري) إلى النجاشي يطلب منه إعادة المسلمين المقيمين عنده إلى بلادهم، فحملهم النجاشي في سفينتين، وودعهم مكرمين، وكانوا ستة عشر رجلًا يقودهم جعفر. وقد كان مع جعفر زوجته (أسماء بنت عميس الخثعمية)، وابنهما (عبد الله)، الذي وُلد بأرض الحبشة. وكان ممن جاء من مهاجري الحبشة: (خالد بن سعيد بن العاص) ومعه إمرأته (أمينة بنت خلف) وأخوه (عمرو بن سعيد) ومعه امرأته (فاطمة بنت صفوان)، وغيرهم. ومن مهاجرات الحبشة:

(رقية)، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، و (أم حبيبة) بنت أبي سفيان، مع ابنتها حبيبة، و (أم سلمَة) بنت أمية، ومعها زينب ابنتها من أبي سلمة ولدتها هنالك وغيرهن.

ولمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى المدينة أقام بها سبعة اشهر، ثم خرج في ذي القعدة من العام السابع للهجرة معتمرًا (عمرة القضاء)، كان عمرته التي صدته قريش عنها العام الفائت. وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ألفان من المسلمين لأداء العمرة يحملون السيوف في قربها، حسب اتفاق صلح الحديبية، واصطحبوا معهم، على سبيل الحيطة، مائتي فرس عليهم مائتي فارس بخوذهم ودروعهم ورماحهم. وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الهدي أمامهم متوجهين إلى مكة. فلمَّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (ذي الحُليفة) قدَّم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة، وقدَمَ السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، وأحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب المسجد، ولبَّى المسلمون معه.

ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مَرِّ الظهران فوجد بها نفرًا من قريش فسألوه، فقال: "هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُح هذا المنزل غدًا إن شاء الله"، فأتوا قريشًا فأخبروهم ففزعوا.

ولمَّا وصل المسلمون إلى مكة وجدوا أهلها وقد أخلوها وصعدوا الجبال المحيطة بها كيْ يعاينوا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم من المسلمين، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها محمد صلى الله عليه وسلم مسقط رأسه بعد غيبة سبع سنوات عنها قضاها وفي كل يوم يمر منها كان يتحرق شوقًا لرؤياها ويزداد حنينًا لهوائها وترابها. عاد محمد إلى بلده مرفوع الرأس محاطًا برجال أشداء رهن إشارته، بعد أن خرج منها هاربًا خائفًا يترقب وليس معه إلا صديقه أبو بكر، وعين الله ترعاهما.

ولم يصدِق المكيون أعينهم وهم يرون محمدًا صلى الله عليه وسلم، هذا الذي كان ضعيفًا مضطهدًا مُهانًا منهم، يعود إليهم وهو يقتلى ناقته (القصواء) وحوله الرجال والأتباع رافعين هاماتهم كالأسود متحفزين للموت متحدِّين قريش بكل ما تمتلك من قوة وبكل مالها مِن أعوان

وأتباع. وقف القرشيون على تلال مكة وجبالها، وهم لا يصدقون أعينهم لما يرونه من قوة محمد صلى الله عليه وسلم ورجاله، وكيف أنهم عادوا أقوياء أشداء بعد ذل عاشوه وهوان واجهوه في مكة لأكثر من عشر سنوات. سمعوهم وهم يكبرون في صوت واحد منادين: "الله أكبر. . الله أكبر. . الله ولله الحمد". . سمعوهم يرددون كلامًا لم تسمعه آذانهم مِن قبل غير الكلام الذي يقولونه في طوافهم حول الكعبة، سمعوهم وهم يقولون: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والمُلك لا شريك لك". شاهدوا بلال وهو يعتلى الكعبة ويؤذنِ للصلاة بقوله: "لا إله إلا الله محمدًا رسول الله"، رغمًا عنهم وعن أصنامهم الصماء التي ظلت جاثمة مكانها دون حراك. إنه الإسلام، إنها إرادة الله التي أرادت التغيير عندما آن الأوان. إنها شمس الهدى التي بدأت في الإشراق على عالم الجهالة والظلمة، إنه الحق الذي جاء ليزُهِق الباطل ولو كره الكافرون.

وقد نزل في هذه العمرة قوله تعالى: (لقد صدق الله رسولَه الرؤيا بالحق لتدخُلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلِم ما لم تعلموا فجعل مِن دون ذلك فتحًا قريبًا).

وقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، في هذه العمرة، من (ميمونة بنت الحارث)، وهي إحدى بنات إحدى زوجات عنه العباس بن عبد المطلب، زوجَّها له العباس وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم، وكانت ميمونة آخر زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآخر من مات منهن.

ولمَّا انتهت الأيام الثلاثة التي سمحت بها قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى، يطلبان منه ومن المسلمين الرحيل وفاءً بما عاهدهم عليه، فاستمسحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمهلوه يومًا أو يومين حتى يُعرس بميمونة فرفضوا ذلك، فاستجاب لطلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأستعد للرحيل وأمر رجاله

بالرحيل، فرجل الجميع إلى (شرف)، وهو موضع من ضواحي مكة قرب التنعيم، على نحو تسعة أميال من مكة، وهناك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بميمونة.

وفي جمادي الأولى من العام الثامن للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية لقتال الروم، تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل، أرسلهم إلى بلدة (مؤتة) بمنطقة البلقاء من نواحي الشام، وهي ببلاد الأردن الآن. وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة هذه السرية لثلاثة من كبار قواده، يتولى أحدهم القيادة بعد الآخر على التوالي، وهم: (زيد بن حارثة)، و (جعفر بن أبي طالب)، و (عبد الله بن رواحة). وقد كانت هذه السرية أول توجه عسكري نحو بلاد الروح ونحو حلفائهم من عرب الغساسنة.

وكان هرقل، ملك الروم، حين عِلم بأمر هذه الحملة الإسلامية، قد بعث بمائة ألف مقاتل من رجاله يقودهم أخوه (تيودور) لمساعدة الغساسنة في مواجهة هذا الغزو الإسلامي لبلادهم.

ويبدو من قلة عدد المحاربين المسلمين بالنسبة لعدد قوات الروم عدم تكافؤ المعركة؛ لذا كان بالضرورة أن تنتهي لغير صالح المسلمين، خاصةً وأن المسلمين كانوا يقاتلون على غير أرضهم وأنَّ الرحلة من الحجاز إلى بلاد الشام قد استنفذت منهم جهدًا كبيرًا. ورغم نتيجة هذه المعركة الغير موافقة لإرادة المسلمين إلا أنها كانت إنذارًا خطيرًا وُجه لدولة الروم وإشعارًا لهم بالخطر الداهم القادم إليهم من عبر صحراء جزيرة العرب.

وقد استُشهد في هذه المعركة القواه الثلاثة الذين عيَّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيادة الحملة، فاصطلح الناس بعدهم على أن يتولى القيادة عليهم (خالد بن الوليد). ولقد كانت هذه المعركة فرصة سانحة لبروز نجم خالد في قيادة الجيوش الإسلامية، بعد أن نجح في تنظيم صفوف قواته القليلة العدد، وإيهام العدد بأنَّ أمدادًا تجيء إليهم من الحجاز، وانسحابه انسحابًا مشرفًا دون وقوع هزيمة ساحقة مؤكدة لجيش المسلمين. ولمَّا عاد حالد بقواته سالمةً إلى المدينة، جعل الناس يحثون عليه وعلى جنوده التراب ويدعونهم (بالفرُار)، أي الفارين من

القتال في سبيل الله، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفى عنهم هذا الاتهام الباطل، وحيَّا مجهودهم، وقال عنهم إنهم (ليسوا بالفُرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى).

* * *

١٢- من الفتح حتى الوفاة

قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها معه، وأخلت بشروط صلح الحديبية. وقد وقع ذلك النقض حين تظاهر بهم حلفاؤهم من بني بكر على (خزاعة)، حلفاء المسلمين وأصابوا منهم ما أصابوا.

وكانت بين بني بكر وبني خزاعة حروب قبل الإسلام؛ فلمَّا جاء الإسلام ووقع صلح الحديبية؛ دخلت بنو بكر في عقد مكة وعهدهم ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده. وأثناء هذا الصلح في مدة الهدنة أراد بنو بكر أن يصيبوا ثأرهم من خزاعة، فخرج (نوفل بن معاوية) في نفر من بني بكر ومكن لجماعة من خزاعة عند ماء باسفل مكة يَقال له (الوتير)، فأصابوا منهم رجالًا واقتتلوا؛ فأعانت قريش بنب بكر بالسلاح وقاتل معهم بعض القريشيين متنقبين حتى أجازوا رجال خزاعة إلى الحرم، وكان من بين رجال قريش: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العُزى، ويكرز ابن حفص بن الأخيَف، وقد قتلت قريش من خزاعة عشرين رجلًا، ثم ندمت، بعد ذلك على ما صنعت وعلمت انَّ هذا نقض للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم. وخرج (عمرو بن سالم الخزاعي) في أربعين راكبًا مِن خزاعة، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه. فقام عليه الصلاة والسلام، وهو يجد رداءه، وهو يقول: "لا نُصرت إنْ لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي"، فكان ذلك سبب فتح مكة.

ولقد أدرك أبو سفيان بن حرب الخطأ الذي وقعت فيه قريش، فخاف من بطش رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد ما رأى ما صار عليه صلى الله عليه وسلم من قوة يوم الحديبية. فسارع بالذهاب إلى المدينة حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل على ابنته

(أم حبيبة)، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلَّما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم لموته ابنة عنه، فقال: "يا بنيه، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟" فقالت: "بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم". قال: "والله لقد اصابك يا بُنيه بعدي شر". ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ما أنا بفاعل"، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: "أنا اشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فوالله لو لم أجد إلا الذي لجاهدتكم به". ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها إبنها الحسن، غلام يلعب بين يديها، فقال: "يا على، إنك أقسُى القوم بي رحيمًا. وإني قد جئت في حاجز فلا أرجعن كما جئت خائبًا فأشفع لي إلى رسول الله". فقال: "ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما تستطيع أن نكلمه فيه" فالتفت إلى فاطمة فقال: "يا بنت محمد هل لك أن تأمرى نبيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟" قالت: "والله ما بلغ ابنى ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم". قال: "يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد أسْدت عليَّ فانصحني". قال: "والله ما أعلم لك شيئًا ولكنك سيد بني كنانة فقمُ فأَجِر بين الناس ثم ألحق بأرضك". قال: "أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟". قال: "لا والله ما أظنه ولكني لا أجد لك غير ذلك". فقام أبو سفيان في المسجد فقال: "أيها الناس إني أجرت بين الناس". ثم ركب بعيره فانطلق. فلمّا قدم على قريش، قالوا: "ما وراءك؟" قال: "جئت محمدًا فكلمته فوالله ما ردَّ عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو. ثم جئت علياً فوجدته ألْيَّن القوم، وقد أشاء عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغني ذلك شيئًا أم لا؟" قالوا: "وبِمَ أمرك؟" قال: "أمرني أن أجير بين الناس ففعلت" قالوا: فهل أجاز لك محمدً؟" قال: "لا"، قالوا: "ويلك والله إن زاد الرجل على أنْ لعب بك فما يغني عنك ما قلت". قال: "لا والله ما وجدتُ غير ذلك".

فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، واتخذ خطة سرية لفتحها، فتظاهرت بأنه منجه في حملة إلى شمال المدينة في عشرة آلاف رجل، وقال عليه الصلاة والسلام عند توجهه للفتح: "اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة". فلمَّا أجمع المسير كتب (حاطب بن ابي بلتعة) إلى قريش يخبرهم بذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، علي بن أبي طالب والمقداد بن عمرو فأخذا رسولَه وكتابه فجاءا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَنْ حوله من العرب ومعظمهم مِن اسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسُليم، فمنهم مَنْ وافاه بالمدينة ومنهم مَنْ لحقه بالطريق، فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف.

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخرج يوم الأربعاء بجيشه في العاشر من شهر رمضان بعد النصر، فلمَّا انتهى إلى (الصُلصُل) قدَّم أمامه الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يُفطر فليفطر ومن أحب أن يصوم فليصم"، ثم سار، فلما كان (بقُديد) عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل، ثم نزل (مَرَّ الظهران) عشاءً فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار. وخرج العباس بن عبد المطلب، عم الرسول صلى الله عليه وسلم، آنذاك من مكة مهاجرًا مسلمًا، والتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم عند (الجحفة)، بالقرب من رابغ، وأرسله عياله إلى المدينة، وعاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم مشاركًا في فتح مكة. وقدم أبو سفيان ثانيةً عند (نيق العقاب) بين مكة والمدينة وقد أرسلته قريش ليحتس لهم الأخباء، وقالوا: غن لقيت محمدًا فخذْ لنا منه أمانًا، فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزِأم وبُديل بن ورقاء، فلمَّا رأوا العسكر أفزعهم، وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الليلة على الحرس عمر بن الخطاب، فسمع العباس بن عبد المطلب صوت أبي سفيان فقال: "أبا حنظلة؟" فقال: "لبيك فما وراءَك؟" فقال: "هذا رسول الله في عشرة آلاف فأسلِم ثكلتك أمك وعشيرتك" فأجاره، وخرج به وبصاحبيه حتى أدخلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا. وقد أمر رسول الله

أبا سفيان أن يسبقه إلى مكة ويُعلن فيها: أنَّ من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. وكان في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، كان إكرامًا لأبي سفيان ومراعاةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكانته في مكة.

فخرج أبو سفيان إلى قريش حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته قائلًا: "يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل داري فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عيله بابه فهو آمن". فتفرق الناس بين دورهم وداره والمسجد. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دون قتال يُذكر، ولم يقع إلا قتال ضعيف عند مدخل مكة بين القوات التي كان على قيادتها خالد بن الوليد وقوات قريش التي كان على قيادتها كلٌّ من عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وقد أزاحهم خالد عن طريقه دون عناء يُذكر.

دخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة، في موكب رائع مهيب، دخلها وهو راكب ناقته (القصواء) محنيًا ظهره وهو عليها في هيئة السجود شكرًا لله وعرفانًا، ممسكًا بعصا طويلة في يده، يحق به جيشه من كل مكان وتحيط به جموع أتباعه راكبين الخيول والهُجن. وياله مِن مشهد عظيم لم ترَ مكة في حياتها مثلَه مشهدًا مِن قبل، ولم ير سكان مكة، الذين اعتلوا أسطح منازلهم وتلال مدينتهم فتحًا قبله لمدينتهم. الشيء الوحيد الذي عقبه ذاكرتهم هو مشهد غزو (أبرهة ألشرم) ومجيئه لهدم الكعبة، والنهاية التعيسة التي انتهى إليها جيشه على يد الطير الأبابيل الذي ساقه الله تعالى عليه ليبيده بحجارة مِن سجيل، وشتان بين حال الجيشين. . جيش جاء في السابق ليهدم بيت الله وجيش جاء في اللاحق ليحطم الأصنام ويهدم الأوثان التي أحاطت بالبيت ودنسته. . جيش جاء ليُعلى كلمة التوحيد وليعظِم مكانة البيت وليقود العباد إلى عبادة الله الواحد الأحد.

وطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت على راحلته، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل كلما مرَّ بصنم منها يشير إليه بالعصا التي في يده ويقول: "جاء الحق وزهق

الباطل إنَّ الباطل كان زهوقًا"، فيقع الصنم على وجهه، وكان أعظمها (هُبَل). وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة، ثم جاء إلى (مقام إبراهيم)، وهو لاصقٌ بالكعبة، فصلى خلفه ركعتين، ثم جلس ناحيةً من المسجد، وأرسل بلالًا إلى عثمان بن طلحة أن يأتي بمفتاح الكعبة فجاء به عثمان فقبضه رسول الله وفتح الباب ودخل الكعبة فصلى فيها ركعتين، وخرج فأخذ بعضَادتيْ الباب والمفتاح معه، فخطب الناس يومئذٍ، ودعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: "خذوها يا بني طلحة تالدةً خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم" ورجع صلى الله عليه وسلم السِقاية إلى العباس بن عبد المطلب. وحانت الظهر، فصعد بلال أعلى الكعبة وأذَّن مِ، فوق ظهرها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة"، يعني على الكفر. ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالحزَوَرة)، وقال: "إنكِ لخيرُ أرض الله وأحبُ أرض الله إليَّ (يعني مكة)، ولولا أني أُخرجتُ منكِ ما خرجتُ. وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم السرايا إلى الأصنام التي حول الكعبة فكسرها، منها: العُزى ومناة وسُواع وبوانة وذو الكفين؛ فنادى مناديه بمكة: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره.

ولمَّا كان من الغد من يوم الفتح خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الظهر، فقال: "إنَّ الله قد حَّرم مكة يوم خلِق السماوات والأرض فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ولا يعضد (يقطع) فيها شجرًا لم تحُلُ لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي ولم تحلُل لي إلا ساعةً مِن نهار ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليُبلغ شاهدُكم غائبكم ولا يحل لنا من غنائمها شيء يا معشر قريش إنَّ الله أذهب عنكم حمية الجاهلية الناس من آدم وآدم من تراب.

ثم تلا هذه الآية: "أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ اللهَ عليم خبير" ثم قال: "يا معشر قريش، ما ترونْ أني فاعلٌ فيكم؟" قالوا: "خيرًا، أخ كريم وإبن أخ كريم" قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

قال ابن هشام، وبلغني عن يحي بن سعيد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو الله وقد أصدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: "أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم غذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟" فلمَّا فرغ من دعائه قال: "ماذا قلتم؟" قالوا: طلا شيء يا رسول الله" فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبي: "معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم".

وقال ابن إسحاق أنَّ رؤوس أهل مكة أسلمت بعد الفتح، ومن بين هذه الرؤوس: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل. وذلك حين أسلمت زوجتاهما أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة وفاختة بنت الوليد زوجة صفوان. وقد استأمنت أم حكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعكرمة فأمنَّه فلحقت به في اليمن، فجاءت به، ولمَّا أسلم عكرمة وصفوان أقرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهما على النكاح الأول.

وهكذا مع فتح مكة زهرت عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرمه، حين قال لقومه "أذهبوا فأنتم الطلقاء"، قومه الذين حاربوه بالأمس وآذوه وسبوه وشتموه وسفهوا دعوته وألبوا عليه القبائل وطردوه من موطنه يوم كان ضعيفًا إلا من قوة الإيمان ويوم كان وحيدًا إلا من صحبة الرحمن وما أعظمها قوةً وصحبة. لقد كان في استطاعته أن يقتل يومئذٍ كل كافر منهم وكل مشرك بعد أن غزى مدينتهم ودانت له بالفتح، ولكنه عفى عنهم، وقد كان بالأمس أيضًا يستطيع إبادتهم لو استجاب لدعوة ملك الجبال حين جاءه ينتظر منه الإذن بإطباق الأخشبين عليهم، ولكنك رفضت واستغفرت لهم عسى أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا. ما أعظم هذه اللحظة العظيمة التي يسجل فيها التاريخ عفو محمد صلى الله عليه وسلم عن قومه وعظمة خلقه وقوة حلمه. ليقرأ أولئك الذين وصفوا محمد صلى الله عليه وسلم بالقسوة والغلظة وبحب السيادة والسلطان، ليقرأوا سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وكناهم أن يقضوا على هذه اللعنة الطيبة وحدها ليحكموا بأنفسهم عن عنصر ومعدن هذا النب بالعظيم.

وانفض أهل مكة من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب كل إلى داره يراجع نفسه ويراجع حساباته مع محمد صلى الله عليه وسلم ونظرته لهذا النبي العظيم والبشير النذير الكريم. وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار ابنة عمه (أم هانئ بنت أبي طالب)، فاغتسل وصلى صلاة الفتح، وكانت ثمان ركعات. وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداد كبيرة من أهل مكة للدخول في الإسلام والمبايعة له، فجلس لهم على باب (الصفا) يبايعهم على السمع والطاعة ما استطاعو. ولمَّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، اللائي تجمعن لمبايعته، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على [الصفا] وأجلس عمر بن الخطاب أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أسبوعين بعد فتحها، ثم ارتحل إلى المدينة، بعد أن أزال عن مكة كل آثار وأدران الشرك والوثنية. ولم يستبق في أفسلام من مناصب البيت الحرام التي كانت في الجاهلية إلا سدانة الكعبة التي أقرها في عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده من بني عبد الدار، وهي في يدهم حتى اليوم.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاله في البلاد يحطمون الأصنام والأوثان حيث كانت، ونادى مناديه، قبل أن يفارق مكة، أنَّ مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره وحطمه. وكان من ضمن الرسل الذين أرسلهم لتحطيم الأصنام خالد بن الوليد، فقد أرسله صلى الله عليه وسلم في عدد من رجاله وأمره أن يسير إلى اسفل (تهامة) لهدم هيكل (العُزى)، وقد كان العزى أكبر صنم لقريش ببطن نخلة. ولم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدًا بالقتال؛ فخرج خالد في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى انتهوا إلى نخلة، وكانت العزى بيتًا يعظم هذا الحي من قريش وكنانة ومُضر كلها، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، فلما انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى (بني جذيمة) من كنانة، وكانوا بأسفل مكة ناحية (يَلَمْلَم) في شوال سنة ثمان للهجرة، بعد أن رجع من هدم العزى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا زال مقيمًا بمكة ولم يبرح إلى المدينة، بعثه داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلًا، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فانتهى إليهم خالد فقال لهم: "ما أنتم؟"، قالوا: "مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذَّنا فيها" قال: "فما بال السلاح عليكم؟" فقالوا: إنَّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة مخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح" قال: "فضعوا السلاح" فوضعوه فقال لهم: "استأسروا" فأستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضًا وفرقهم في أصحابه، فلمَّا كان في السَحر نادى خالد: "من كان معه أسير فليُدافِه"، والمُدافة هي الإجهاز عليه بالسيف، فقتل بنو سليم من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد، فغضب غضبًا شديدًا لما صنعه وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" وبعث علي بن أبي طالب يحمل معه فدية فتلاهم وأعطاهم حتى رضوا.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمرو بن العاص لهدم صنم (سواع) وقد كان أعظم اصنام قبيلة (هذيل)، وكان منصوبًا على بعد ثلاثة أميال خارج مكة. كذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، (سعد بن زيد الأشهلي) لهدم (منات)، وهي صنم قبيلتي كلب وخزاعة، وكانت على جبل مشرف على ساحل البحر الأحمر شمال جدة بنحو مائة وسبعين كيلو متر.

وهكذا، فقد كان فتح رسول صلى الله عليه وسلم لمكة يوم الجمعة لعشرين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة، وأقام بها خمس عشرة ليلة يصلي فيها صلاة العَصر ركعتين، ثم خرج إلى (حُنين)، بعد أن استعمل على مكة (عتَّاب بن اسيد) يصلي بهم، و (معاذ بن جبل) يعلمهم السنن والفقه، وعلى سوق مكة (سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية).

* * *

بعد أن فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، كان عيله أن يواجه عداء قبيلة (هوازن) له وتحالفها مع قبيلة (ثقيف)، التي كانت تسكن الطائف. وكانت هوازن في الجاهلية في عداء شديد وتنافس مرِى مع قريش على السيادة على عرب الحجاز وكذلك كانت ثقيف. وقد رأت هوازن في خضوع قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم انَّ فرصتها قد جاءت لتحقيق تلك السيادة بعد أن خرجت منافستها قريش من ضممار الصراع وحلبته. كذلك رأت ثقيف أيضًا انَّ محمدًا القرشي صلى الله عليه وسلم يريد أن يقيم مملكة لقريش في الحجاز تكون السيادة فيها لمكة دون غيرها من البلاد، فغرست القبيلتان الكبيرتان في الحجاز على القضاء على هذه الدولة القرشية قبل أن تقوم لها قائمة.

وكان أشراف هوازن قد اجتمعوا، بعد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة، جمعهم (مالك بن عوف النضري) ومعهم أشراف نصر وجُشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال، ولم يحضر الاجتماع أحد من كعب ولا كلاب. وكان في بني جشم (دريد بن الصمة) وهو شيخ كبير مجرب عالِمًا بالحرب، وفي ثقيف سيدان لهم هما: قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب، وسُبيع بن الحارث بن مالك فلمَّا أجمع مالك النضرب السير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلمَّا نزل (بأوطاس)، وهو وادي قرب (ذي المجاز) بين مكة والطائف، اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة، وكان عدد الخارجين أربعة آلاف مقاتل.

ولمَّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم بعث إليهم (عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي) وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم. ففعل ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم به، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر. فلمَّا أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى هوازن ليلقاهم، ذُكر له أنَّ عند صفوان بن أمية دروعًا له وسلاحًا، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفوان يومئذٍ كان لا يزال على

الشرك ولم يسلم بعد، فحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة درع بما يكفيها من السلاح على سبيل الإعارة. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هوازن يوم السادس من شهر شوال سنة ثمان للهجرة في اثنى عشر ألف مقاتل، ألفان من أهل مكة مع العشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة. واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة عتاب بن اسيد وعلى منْ تخلف عنه من الناس، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هوازن، وعندما شاهد عليه الصلاة والسلام كثرة من معه جنود قال: "*** لن نُغَلب اليوم من قلة".

والتقت قوات المسلمين مع قوات أعدائهم يوم العاشر من شهر شوال عند وادي حُنين، وهو من أودية تهامة، وكانت هوازن قد عملت هنالك كمائن لجيوش المسلمين في الوادي وباغتوهم رميًا بالسهام، فوقع الذهر في صفوف المسلمين وهرب كثير منهم في أنحاء الوادي لا يلوون عن شيء. وذكر ابن إسحاق وصفًا لما وقع للمسلمين أول الأمر في غزوة حنين بقوله عن جابر بن عبد الله قال: "لمَّا استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف حطوط إنما تنحدر فيه انحدارًا. وفي عمامته الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد. وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين، ثم قال: "أين أيها الناس، هلموا إليَّ، أنا رسول الله لا كذب أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب". وانطلق الناس، إلا أنه بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وفيمن ثُبت من المهاجرين: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب ولعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث، وإبنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد. فلمَّا انهزم الناس أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس، وكان جهوري الصوت، أن ينادي في الناس أن يثبتوا فناداهم، فاجتمعوا وعادوا لرشدهم وعاودوا القتال

مستبسلين فيه حتى حولوا الهزيمة إلى نصر، وأعملوا القتل في الأعداء، وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفًا من تراب وضرب به وجوههم وقال: شاهت الوجوه، فهزمهم الله.

وذكر ابن إسحاق أنَّ من ضمن المقاتلين الذين ثبتوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أم سليم بنت ملحان) واسمها مليكة، وقد التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أم سليم وكانت مع زوجها أبي لحة (زيد بن سهل بن الأسود بن حرام)، وهي حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ومعها جمل أبي طلحة. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أم سليم؟" قالت: "نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقْتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو يكفي الله يا أم سليم" وكان معها حنجر، فقال لها أبو طلحة: "ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟" قالت: "خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به".

فلمَّا حمى الوطيس وانهزمت هوازن، توقفت عن القتال وأعلن رجالها الاستسلام، لكن ثقيفًا استمرت تقاتل حتى قُتل سبعون من رجالها، ولمَّا أدركوا وقوع الهزيمة لا محالة بهم هرب من نجى من القتل تاركين وراءهم نساءهم وذراريهم وأموالهم غنيمة للمسلمين. وهكذا استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشجاعته وحسن قيادته وضربه المثل في التضحية والفداء أن يحّول هزيمة جيشه إلى نصر محقق وأن يحصل من الأعداء على الكثير من الغنائم والأسلاب. ولقد أحصيت الغنائم يومئذٍ فبلغت اثنين وعشرين ألفًا من رؤوس الإبل، وأربعين ألف شاةٍ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. أما عدد الأسرى الذين وقعوا في يد المسلمين من رجال هوازن ورجال ثقيف فقد كان عددًا كبيرًا جاوز الستة آلاف أسير. وتعقبت قوات المسلمين فلول هوازن حتى بلغوا (أوطاس)، وهنالك هزموهم شر هزيمة وسبوا من احتملوا من نساء وغنموا ما استطاعوا من أموال وعادوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد حضرت الملائكة هذه المعركة وقاتلت إلى صف المسلمين وذلك مصداقًا لقوله تعالى لِما نزل من آيات بينات بخصوص تلك الغزوة من سورة التوبة: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة

ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين).

وقد قُتل (دريد بن الصمة) في هذه المعركة، قتله ابن اللغنة (ربيعة بن رفيع بن ثعلبة)، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل وليدًا أو امرأة أو أجيرًا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ: "إن قدرتم على بجاد فلا يقتلنكم"، وكان (بجاد) رجلًا من بني سعد بن بكر، وكان قد أحدث حدثًا، فلمَّا ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه (الشيماء) بنت الحارث بن عبد العزى، أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، فعنفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: "تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة"؛ فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاقة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وخيرَّها بين أن تبقى معه محبته مكرمة وإما أن يعطيها ما يعتقها وترجع إلى قومها، فاختارت الأمر الثاني، فمتَّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وردها إلى قومها. فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلامًا له يقال له (مكحول) وجارية، فزوجت أحدهما الأخرى، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية، وبعد المعركة جُمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حنين وأموالها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (الجعرانة) فحبُست بها.

وبعد انتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم في حنين سار لفتح مدينة الطائف، وتقدم إليها بقواته وهو يشعر بقوة الإيمان ويزهو بنصر الله وفضله عليه، وقد تذكر، وهو في طريقه إليها، يوم طرُد منها وخرج مهانًا مغلوبًا، يوم جاء أهلها يدعوهم إلى دين الله وكان قد توسم فيهم خيرًا بعد أن رأى الشر كل الشر من قومه في مكة. تراءت هذه الصور وتتابعت في ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فحمد الله وشكره لصدقه وعده له وإعزازه بعزة الإسلام.

هاهي الطائف اليوم تقف خائفة مذعورة رغم حصونها، وقومها يرتجفون خوفًا وترتجف معهم

قلوب مَنْ هرب إليهم من منهزمي هوازن يوم حنين. لم يستطيعوا الخروج لمواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أدركوا بأنَّ الموت هو مصير كل من يجرؤ على المواجهة ويتحدي باللقاء. هاهم جند الله يحملون الموت على أسنة رماحهم وحد سيوفهم لكل كافر مشرك يتحدي إرادة الله. ولقد ظل أهل الطائف مختئبين وراء اسوار مدينتهم وحصونهم التي حاصرتها الجيوش الإسلامية مدة سبع عشرة ليلة لم يجرأوا خلالها على الخروج والمواجهة وخاصةً حين رمتهم قوات المسلمين (بالمنجنيق)؛ ونزلت عليهم حِمم النيران من كل مكان. إختبأ أهل الطائف في مساكنهم كما تختبئ الجرذان في جحورها، واعتمدت في صمودها على ما تختزنه في صوامعها ومخازنها من غلال وأقوات. وبعد أن أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم عدم جدوى الحصار، أمر برفعه عن الطائف والعودة إلى المدينة.

وهكذا لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح الطائف، إستشار عليه الصلاة والسلام (نوفل بن معاوية الديلي) فقال: "ما ترى؟"، فقال: "ثعلبٌ في جحر إنْ أقمت عليه أخذتَه وإنْ تركته لم يُضرك"، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فأَّن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك وقالوا: "نرحل ولم يُفتح علينا الطائف؟" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فاغدوا على القتال" فغدوا فاصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا قافلون إن شاء الله" فسُروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، وقد قال لهم: "قولوا لا إله إلا الله صدَق وعده ونصَر عبدَه وهزم الأحزاب ومده" فلمَّا ارتحلوا واستقلوا قال: "قولوا آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون"، وقيل: "يا رسول الله أدعُ الله على ثقيف"، فقال: "اللهم أهدِ ثَقيفًا وأْتِ بهم". وقد رُوى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد نصب المنجنيق على على أهل الطائف أربعين يومًا.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قواته إلى منطقة (الجعرانة) حيث كان قد ترك بها أسرى وأسلاب هوازن التي غنموها يوم حنين، وقام بتوزيع هذه الغنيمة على المقاتلين، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا واحدًا، وقد جاءت هذه

الزيادة في القسمة بسبب كثرة غنائم حنين، وكان قبلًا قد جعل صلى الله عليه وسلم (يوم بدر) للفارس سهمين وللراجل سهمًا واحدًا.

وقبل أن يغادر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجعرانة عائدًا إلى المدينة، جاءت رسل هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلب منه أن يرد إليهم أسلابهم ونساءهم مقابل دخولهم في طاعته وأن يدينوا بالولاء له. ولكنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خيَّرهم بين الأسلاب والنساء فاختاروا نساءهم؛ فسلمهن لهم بعد أن أخذ منهم عهدًا بالولاء والطاعة لحكومة المسلمين. وكان (زهير بن صرد الحشمي) خطيب هوازن، قد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يمنن عليهم بالإطلاق: "يا رسولالله إنَّ ما في الحظائر من النساء خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتي تكفلنك، ولو أننا مالحنا ابن أبي شمُر أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا مثل الذي اصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما"، ولقد قصد زهير بالممالحة هنا إرضاع النبي صلى الله عليه وسلم في بني سعد بن هوازن حين أخذته (حليمة السعيدية) لترضعه فيهم وهو طفل رضيع. كذلك قصد بابن أبي شمر: الحارث الغساني، أمير الغساسنة وبالنعمان بن المنذر، اشهر ملوك الحيرة من المناذرة. وقد أنشد زهير أبياتًا في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم آنذاك يستعطفه بها ويبرز بها قدره، منها قوله:

أمنن علينا رسول الله في كرم

فإنك المرءُ نرجوه وننتظرُ

أمنن على بيضةٍ قد عاقها قدَّرٌ

مفرقٌ شملها في دارها نَمِرُ

أمنن على نسوةٍ قد كنت ترضعها

إذ فوك يملؤه من محضها الدورُ

إذ أنت طفلٌ صغيرُ كنت ترضعها

وغذ يريبك ما تأتي وما تذرُ

يا خير مَنْ مَرحت كمتُ الجياد به

عند الهياج إذا ما استوقد الشررُ

فألبس العفو من كنت ترضعه

من أمهاتك إنَّ العفو مشتهرُ

إنا نؤمل عفوًا منك تلبسه

هذى البرية إذ تعفو وتنتصرُ

عفوًا عفا اللهُ عما أنت راهبه

يوم القيامة إذ يُهدي لك الظفرُ

فلَّما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشعر بن زهير، وقَّد لهوازن وهاجت مشاعره وبدى حلمه وعطفه عليهم فقال مخاطبًا هوازن: "ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم"، فقالت قريش عندئذٍ: "ما كان لنا فهو لله ولرسوله"، وقالت الأنصار مثل قول قريش، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعًا. هذه هي صفات النبي العربي العظيم: العفو عند المقدرة، والعرفان بالجميل، وصلة الأرحام، وقد تجلت هذه الصفات في شخصه الكريم يوم حنين وضرب عليه الصلاة والسلام بها أروع الأمثال.

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة إلى مكة، وقام بأداء عمرة ثانية فيها في ذي القعدة، ثم قدم المدينة في بقية ذي القعدة أو ذي الحجة. واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعتاب درهمًا كل يوم يصرف منه على نفسه وبيته.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية. ومكث قليلًا تحت الشجرة التي تمت تحتها (بيعة الرضوان)، منذ ثمانية أعوام خلت، وتذكر تلك الأيام وما جرى فيها، وصلى هنالك صلاة الشكر حمدًا وشكرًا لله على ما كان عليه في

ذلك الوقت وما أصبح عليه اليوم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل فضل الله عليه بالمزيد من العبادة ويقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا". ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واطمأنت قلوب الأنصار الذين التفوا حوله بقلوبهم وأجسادهم بعودته. وكان صاحب الرسالة العظيمة وهو في مجلسه الروحي معهم عظيمًا، يُوجِه ويُربي ويُعد الجيل الذي سينشئ حضارة أرقى وأنقى من كل الحضارات. ويُلقى بذور الإنسانية الجديدة التي ستنقذ العالم من جبروت حكام الروم والفرس وتحررهم من جبروتهم وطغيانهم.

كان عليه الصلاة والسلام إنسانًا كاملًا فاضلًا خلوقًا، وتكف شهادة الله تعالى له بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم)، كان عليه الصلاة والسلام يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كما يأكل العبد، ويمشي كما يمش العبد، لكن شعاع النور المنبثق من جنبات نفسه، كانت تجعل الأبصار تتخسر عنه، وتجعل الأباطرة والقياصرة الحكام يجثون تحت قدميه. وإن حسبت أقدار الناس وفِق جهادهم لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة المظلوم على الظالم ومواساة المكلوم على العالم فمحمد صلى الله عليه وسلم أصدقهم قيلًا وأهداهم سبيلًا وأقواهم حجة وأشدهم إيمانًا وتصديقًا بدعوته، وأقدسهم بالخلق الجميل والقلب الكبير والصبر الطويل على إبراز الحقيقة وحمايتها وتفتيح الجنون المغلقة على سناها والقلوب المظلمة على ضياها.

* * *

وأقام أهل الطائف على شِركهم وامتناعهم في طائفهم ما بين ذي القعدة إذ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخره إلى شهر رمضان من سنة تسع للهجرة. وعاد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ليستقر بها حتى يلحق بالرفيق الأعلى ويوافيه الأجل المحتوم. وقد فرح الأنصار بعودته إلى مدينتهم وكانوا يتخوفون أن يتركهم بعد أن فتح الله عليه مدينته المحببة إلى قلبه مكة المكرمة، مسقط راسه؛ لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان ليخلف وعده للأنصار في أن يبقى بينهم حتى الموت.

ولمَّا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مصرفه عن الطائف إلى المدينة، كتب (بحير بن زهير بن أبي سلمى) إلى أخيه الشاعر الشهير (كعب بن زهير بن أبي سلمى) أنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجالًا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأنَّ مَنْ بق من شعراء قريش: (ابن الزبعري)، و (هبيرة بن أبي وهب) قد هربوا في كل وجه. ونصحه بأن يأتِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تائبًا، وأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وإلا فليهرب إلى مكان آمن لا يدركه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن إسحاق: فلمَّا بلغ كعبًا الكتاب ضاقت به الأرض واشفق على نفسه وأرجف مَنْ كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول. فلمَّا لم يجد من شيء بُدًا، قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به مِن عدوه. ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة، من جهينة، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح، فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فقام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس إليه فوضع يده في يده. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه، فقال: "يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعه عنك فإنه قد جاء تائبًا، نازعًا عما كان عليه". وغضب كعب على الأنصار ما صنع به صاحبهم، وحمد للمهاجرين أنه لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير، فقال قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت بعنوان (بانت سعاد)، ومن أبياتها في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومطلعها ما يقول:

بانت(١) سعاد فقلبي اليوم تبُول(٢)

متيمٌ(٣) إثرهَا لم(٤) يُفْدَ مكبولُ(٥)

وما سعاد غداة البين(٦) إذ رحلوا

إلا أغنُ(٧) غضيض الطرف مكحولُ

هيفاء(٨) مقبلةٌ عجزاءُ(٩) مدبرةٌ

لا يشتكى(١٠) قصرٌ منها ولا طول

****

الهامش

****

(١) بانت: فارقت فراقًا بعيدًا

(٢) متبول: أسقمه الحب وأفناه

(٣) مُتيم: ذليل مستعبد

(٤) لم يفد: لم يخلص من الأسر

(٥) مكبول: لا يجد فكاكاً من القيد

(٦) غداة البين: صبيحة الفراق

(٧) أغنُ: ظبى في صوته حُسن

(٨) هيفاء: ضامرة البطن والخصر

(٩) عجزاء: فضمته العجز

(١٠) لا يُشتكى: لا يُعاب

****

يسعى الغواةُ جنابُها وقولُهُم

إنك يا ابن أبو سلمى لمقتوكُ

فقلت خلوا طريقي لا أبالكم

فكلُ ما قدَّر الرحمنُ مفعوكُ

كل ابن أنثى وإن طالت سلامتُه

يومًا على آلةٍ حدباء محمولُ

نُبئت أنَّ رسولَ الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلًا هداك اللهُ أعطاك نافلةَ

القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم

أذُنب ولو كثُرت فيَّ الأقاويل

إنَّ الرسول لنورٌ يُسضِاء به

مهندٌ من سيوف الله مسلولُ

وقد كافأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبًا على قصيدته، على عادة كرماء العرب للشعراء، بُبردة كانت عليه، ففرح بها كعب أيما فرح، وظل يرتد بها حتى وفاته. وقد توارث أنباؤه البردة من بعده وحرصوا على مداومة إرتدائها لما فيها من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن طمع فيها معاوية بن أبي سفيان، حين تولى الخلافة، فاشتراها منهم بأربعين ألف درهم، وصار معاوية يرتديها وتوارثها مِن بعده خلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس، وصار ارتداء بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم شارة من شارات الخلافة.

* * *

لقد أطلق المسلمون على غزو مكة اسم (الفتح)، وصارت كلمة الفتح، تُطلق بعد ذلك على كل غزو للمسلمين. ولقد كان فتح مكة، حقيقةً، تتويجًا ككل جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره ونجاحًا لسياسته وحكمته وتأييدًا له من ربه الذي أرسله بالهدى ودين الحق. فلقد زكاه الله تعالى واصطفاه من دون عباده واختاره لهذه الرسالة الخالدة وأيده بنصره مُظهرًا أنَّ دعوته الحق إلى يوم تقوم الساعة. ولقد صار ألد أعداء محمد صلى الله عليه وسلم، بعد هذا الفتح، وعلى رأيهم أبو سفيان، مِن أخلص أتباعه بعد أن دخلوا افسلام واعترفوا بأنه رسول

الله حقاً وصدقًا، وتبينوا أنهم كانوا على العمى، وأنهم كانوا يسيرون في طريق الضلالة حين أنكروا رسالته وتصدوا بحربهم لدعوته. وقد أحرز هؤلاء الزعماء المكانة والنفوذ السياسي في ظل دولة الإسلام وحققوا الفوائد المادية التي لم يتحقق لهم مثلها من قبل، وصاروا في مقدمة دولة الرسول صلى الله عليه وسلم التي اتسعت آنذاك وصارت تمتد من حدود دولة الروم إلى مدينة الطائف، وقد غطى نفوذها تقريبًا كل شبه جزير العرب.

في ذلك الوقت، لو نظرنا إلى العالم الخارجي ودولة الرسول الوليدة، نجد الصراع لا زال محتديًا بين أكبر دولتين آنذاك وهما: دولتي الفرس والروم، اللتان كانت لهما السيطرة العامة تقريبًا واحدة منها على الشرق والأخرى على الغرب. وكانت الغلبة لدولة الفرس على دولة الروم قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن الوضع تغير بعد الهجرة، وصارت الغلبة للروم على الفرس. وكان الفرس أول الأمر قد تقدموا بقواتهم لحصار (القسطنطينية) عاصمة دولة الروم الشرقية (بيزنطة)، محرز مِن نصرًا كبيرًا على أعدائهم الروم. لكن الفرس لم يواصلوا تهديدهم لعاصمة الروم بسبب ظروف داخلية منعتهم من التقدم ومواصلة الحرب.

وفي العام الأول للهجرة (٦٢٢ ميلادية) قام الإمبراطور الروماني (هرقل)، على رأس جيشه بالتوجه من القسنطينية إلى مكان مرابطة قوات الفرس في آسيا الصغرى، وقام بمحاربتهم ومطاردتهم، ونجح في إيقاع الهزيمة بالقائد الفارسي الشهير (شهربرز). لكن الفرس نجحوا، بعد أنْ تحالفوا مع السلاق والآثار، في هزيمة قوات هرقل وتحويل انتصاره إلى هزيمة.

وللمرة الثانية تقدمت قوات الفرس نحو عاصمة الروم وقاموا بحصارها وتهديدها، وكان ذلك في العام السابع للهجرة (٦٢٩ ميلادية)، وتقدمت قوات القائد الفارسي شهربرز إلى داخل الأراضي الرومية مكتسحة قوات الروم، حتى وصل بجيشه، المعزز بقوات من جيوش حلفائه السلاف والآثار، إلى مدينة (خلقدونيا)، على الشاطئ المقابل للبقور، وعسكر الجيش الآثار لما تحت أسوارها، لكن الروم قاوموا ذلك الغزو.

وفي شهر ديسمبر من عام ٦٣٠ ميلادية، وهو تاريخ موافق لتاريخ هزيمة قريش في غزوة الخندق، انتصر هرقل على الفرس عند مدينة نينوى، وبعد شهرين من ذلك التاريخ تقدم هرقل بقواته نحو المدائن (طيسفون)، عاصمة الفرس. وفي ذلك الوقت قام نبلاء الفرس بإقصاء مليكهم (كسرى أبرويز) عن الحكم ونصبّوا مكانه إبنه (شيرويه)، وقد قام شيرويه بقتل والده واغتصاب الحكم به، وطلب الصلح مع هرقل، ووافقه هرقل على ذلك، وقد وُقع هذا الصلح تقريبًا في نفس توقيت توقيع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش. وقد وقعت ثورات داخلية في بلاد فارس ضد شيرويه، ونجح قائده شهربرز في اعتلاء عرش فارس. وقد انسحب شهربز سريعًا عن مستعمرات الروم التي كان الفرس قد احتلوها من قبل في فلسطين ومصر وقياد وقيا حتى يثبت حكمه داخل بلاده. وقد نجح هرقل، بسبب ذلك، في استعادة بيت المقدس والحج إليها وإعادة (صليب الصلبوت) المقدس لها من يد الفرس، وقد زامن ذلك عودة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد فتحه مكة. ولقد تأكد آنذاك انتصار المسيحية على المجوسية الفارسية على يد هرقل، وتردد صدى هذا النصر في كل العالم، وبصدد ذلك نزلت سورة (الروم) التي بشرت بنصر أهل الكتاب على المشركين الوثنين.

ولقد تركت هزيمة الفرس على يد الروم الميدان مفتوحًا في جزيرة العرب لانتشار الإسلام ونجاح المسلمين في فرض سيطرتهم هناك، وهو أمر لم يكن يدور في خَلد كلٍ من الفرس والروم ولم يضعوه في حساباتهم. وقد كان للفرس نفوذ كبير في شرق جزيرة العرب، وكانوا يدعمون اليهود هناك، وقد قلص الفرس نفوذ الأحباش المسيحين هناك. وصار جنوب شبه الجزيرة ينقسم إلى (أقيال) صغيرة مستقلة. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بإرسال سرايا صغيرة إلى ملَك البلاد ليحولها إلى الإسلام ونجح في ذلك، ودخل بعضهم الإسلام عن إيمان واعتقاد بينما أظهر بعضهم الآخر الإسلام وأبطن الكفر، وتعهد قبائل هذه البلاد بأن

تدين بالولاء لدولة الإسلام في المدينة وأن تحطم أصنامها وأوثانها، وتعهدت بدفع الزكاة، على أن يحتفظ حكامها باستقلالهم الذاتي.

وسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصارى (نجران) بأن يظلوا على نصارنيتهم، مقابل دفعهم الجزية، كذلك لمن سكن هذه البلاد مِن بقايا اليهود. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث، أهل نجران، فكتب له خالد، بعد أن استقر بينهم:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يا رسول الله، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى افسلام؛ فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم تعاليم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يستسلموا قاتلتهم. وإني قدمت إليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرتني يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، وبعثت فيهم ركبانًا أظهرهم آمرهم بما أمر الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلِمهم معالم الإسلام وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام حتى تكتب إليَّ يا رسول الله . . والسلام عليك يا رسول الله".

وقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتاب خالد بما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنَّ كتابك جائني مع رسولك يخبرني أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما وعدتهم من الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

ولقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدًا لنصارى نجران جاء فيه التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. . .

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران إذا كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفيْ حُلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة وفي كل سفر ألف حلة كل حلة أوقةِ من الفضة فما زادت على الخراج أو نقضت على الأواقي وبالحساب. وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب، وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يومًأ فما دون ذلك. ولا تحبُس رسلي فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًأ إذا كان كيد باليمن ومعرة وما هلك مما أعادوا رسلي من درع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رُسلي حتى يؤدوه إليهم.

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانية ولا كاهن من كهانته ولا ريبة ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يُعشرون ولا يطأ أرضهم حبيش ومن سأل منهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. ومنْ أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة. ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مُثقلين بظلم. شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني النضر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة. وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر".

وبعد عام من رفْع رسول الله صلى الله عليه وسلم حصاره عن ثقيف، جاءه وفدها يبايعونه ويعلنون له دخولهم في الإسلام بعد أن تأكدوا أنَّ لا طاقة لهم بحرب دولة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن فك حصاره عن الطائف، شجع أحلافه من هوازن بعد إسلامهم، على مهاجمتها، وقطع تجارتها مع مكة التي كانت تشكل عماد اقتصادها، ولذلك استسلم الثقفيون، ولم يريدوا أن يصبحوا بمفرك عن دولة الإسلام

القوية في الجزيرة العربية، وكتبوا كتابًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنون فيه الولاء والتبيعة له. وقد استجاب الله تعالى لدعوة رسول الله حين جلى عن أسوار الطائف بالهداية لثقيف. وقد أمرَّ رسول الله على الطائف (عثمان بن أبي العاص)، كما أرسل إليهم كلًا من أبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لتحطيم (اللات)، ضم ثقيف، فقاما بتحطيمها.

أما عن المنطقة الواسعة الوسطى من جزيرة العرب المعروفة باسم (اليمامة)، وكانت في يد (بني حنيفة)، فقد كان أهلها حلفاء للفرس، وكانت لهم تجارة بين فارس وجنوب شبه الجزيرة، وكان معظم بني حنيفة على النصرانية. واتخذ رؤساء بني حنيفة لأنفسهم ألقاب الملوك. ولمَّا تم فتح مكة للرسول صلى الله عليه وسلم اتصل بعض رؤساء بين حنيفة به وأعلنوا دخولهم في الإسلام على أن يبقيهم الرسول في مناصبهم في قبيلتهم، وقد وافقهم الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك. إلا أنه ظهر بين بني حنيفة رجل أدعى النبوة يُدعي (مسيلمة)، الذي نعته رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة (الكذاب) فعُرف بمسيلمة الكذاب. وقد أدعي مسيلمة بأنَّ وحيًا ينزل عليه من السماء وأنه ينظم قرآنًا مثل الذي يتنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وقد وضع مسيلمة لأتباعه صلاة خاصة وطقوسًا لعبادة إلهه الذي دعى إليه وادعي أنَّ اسمه (الرحمن). وكان مسيلمة متأثرًا في أفكاره بتعاليم المسيحية وببعض التعاليم الإلحادية. وحاول هذا النبي الكذاب والمدعي. الاتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد اتفاق معه على أن يتقاسما النبوة فيما بينهما، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سفَّه عرضه وأعلن كفره ووجوب حربه. وقد باءت محاولات مسيلمة بإدعاء النبوة بالفشل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن بعد وفاة الرسول حاول مسيلمة التحالف مع مدعةٍ أخرى للنبوة ظهرت في بني تميم تدُعي (سجاح التميمية)، وكان بنو تميم يسكنون شرقي مواطن بني حنيفة ويدينون بالمسيحية على المذهب النسطوري. لكن محاولات هؤلاء المتنبئين وغيرهم من المرتدين ومانعي الزكاة الذين استفحل أمرهم بعد وفاة الرسول، وفي عهد خلافة الصديق أبي بكر، قُضي عليهم تمامًافي أول عام من أعوام خلافة أبي بكر الصديق.

وإلى الشمال الشرقي لإمبراطورية فارس، عاشت في شبه الجزيرة العربية – قبيلتان عربيتان كبيرتان هما "بكر بن وائل" و "تغلب"، وكانت كليهما على ابن النصرانية على المذهب اليعقوبي (المونوفيزيتي)، وكانتا على علاقة طيبة على الدوام مع إمبراطورية فارس أيام قوتها، ولكن حين ضعفت دولة فارس وساءت العلاقة بينها وبين هاتين القبيلتين، نجحت قبيلة بكر في إيقاع الهزيمة بقوة فارسية في معركة عُرفت باسم (ذي قار). وحين ظهرت دعوة الإسلام توثقت علاقة هاتين القبيلتين مع دولة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يُشترط عليهم الرسول عليه السلام ضرورة تحول جميع أفرادها إلى الإسلام. هاتين القبيلتين دخلتا في الإسلام طوعًا، ونجحت في عهد خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في أن تكون أول من هاجم دولة الفرس باسم الإسلام، وأول من أرسل قواعد الإسلام بين الفرس زمن الفتوح.

ولقد تطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فتح المناطق الواقعة إلى شمال المدينة عند حدود دولة الروم، عند الركن الشمالي الغربي من الجزيرة العربية، وكانت تلك المناطق تُعد مستوطنات داخلة تحت حكم الروم. ولقد أبدى رسول الله صلى الله عليه وسلم نشاطًا زائدًا نحو فتح هذه الأرجاء وتوصيل رسالته إلى أهلها وتبليغهم تلك الرسالة انطلاقًا من سياسته عليه الصلاة والسلام في تبليغ رسالته لكل العالم؛ ولذلك كان لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحتك بدولة الروم وأن تقع الحرب بينه وبينهم بعد أن رفض حكام تلك الدولة دعوتهم إليهم بالدخول في الإسلام حين أرسل رسله بكتبه إليهم يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل حملةً صغيرة إلى بلدة مؤتة، وكانت معركة مؤتة التي جاءت كأول احتكاك عسكري غسلامي مع الروم. وقد فتح مكة، بحوالي عشرة شهور، جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم حملة كبيرة إلى تلك الجهة انتقامًا لِما حدث للمسلمين في معركة مؤتة، وكانت وجهة تلك الحملة إلى بلدة (بتوك)، التي تقع على بعد مائتين وخمسين ميلًا من المدينة، على حدود دولة الروم. وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة.

ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو الروم، وأعلن لثاني مرة، عن وجهته التي يريدها. ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصد من ذلك الإعلان أن يبين لأتباعه ممن سيشاركون فيها أهمية هذه الغزوة وكثرة مشاقها وطول طريقها وخطر العدو الذي سوف يلقونه فيعدون للأمر عدته. وكان الوقت صيفًا شديد الحرارة وأصاب البلاد سنتها جدب وقحط؛ ولذلك عُرف هذا الجيش الذي أعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الغزوة (بجيش العسرة). وقد بلغ عدد المشاركين فيه حوالي ثلاثين ألف مقاتل. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الغني والثراء من المسلمين أن يجهزوا مَنْ لا قدرة لهم على الجهاز للقتال، ومن المعلوم أن (عثمان بن عفان) رضي الله عنه أنفق نفقة عظيمة على هذه الجيش، وجَّهز ثلثمائة بعير بعدتها وقدَّم ألف دينار ذهبًا عَيْنًا للمساعدة في نفقة ذلك الجيش.

وجاء أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم هي كل ماله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وحمل العباس بن عبد المطلب ما لا يقل عن تسعين ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالًا كثيرًا. وتصدق عاصم بن عدي بتسعين وَسقًا من التمر. وساهم النساء بكل ما قدَرْن عليه مِ، حليهن فكنُ يلقين في ثوب مبسوط بين يديْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأيديهن وأرجلهن من الحلى وما بآذانهن من الأقراط، وما بأعناقهن من العقود والقلائد. وتنافس المسلمون في البذل حتى إنَّ الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما: "هذا البعير بينكما تعتقبانه"، ويأتي الرجل بالنفقة فيعطيها بعض مَن يخرج.

وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارون في تجهيز الجيش كل بحسب طاقته؛ فمن استطاع أن يجهز غير نفسه جهز بقدر ما يستطيع، ومنْ لم يستطع جهز نفسه وكفى.

وفي شأن هذه الغزوة نزل قرآن يصوِّر مواقف بعض الناس من أمر الخروج فيها موقف بعض المنافقين الذين قال بعضهم لبعض "لا تنفروا في الحر"، زهدًا في الجهاد، وشكًا في الحق، وإرجاعًا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى فيهم قوله: (فرح المخلَّفون

بمقعدهم خِلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فأستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًا إنكم رضيتم بالقعود أولَ مرة فاقعدوا مع الخالفين. ولا تُعيل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقمُ على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون). ثم إنَّ رجالًا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون، وهم: سالم بن عُمير، وهرمي بن عمرو، وعُلبه بن زيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن غنمة، وسلمة بن صخر والعرِباص بن سارية.

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف من غير علة فأذِن لهم وهم بضعة وثمانون رجلًا، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم فاعذتروا إليه فلم يعذرهم، وهم اثنان وثمانون رجلًا.

وتخلف عن الخروج عبد الله بن أبى أبيُ ومن كان معه، كما تخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب منهم فيهم: كعب بن مالك، وهلال بن ربيع، ومرارة بن الربيع، وأبو خثير السالمي وأبو ذر الغفاري. وجاء قوله تعالى في هؤلاء:

(فإن رجعك الله إلى طائفةٍ منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًا إنكم رفيتم بالعقود أول مرة فاقعدوا الخالفين ولا تصُلِ على أحد منهم مات أبدًأ ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون). (ولا على الذين إذا أتوك لتحملهم قلت لا أجد مما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون إنما

السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون).

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَ بطنٍ من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواءً أو راية، ومضى لوجهه يسير بأصحابه حتى قوم بتوك في ثلاثين ألفًا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة يصلى بها ركعتين. ولحقه أبو خيثم السالمي وأبو ذر الغفاري، وهرقل ملك الروم يومئذٍ بحمِص. ولم يظهر الروم لرسول الله صلى الله عليه وسلم طوال إقامته بتبوك، وبعد انقضاء الليلة العشرين قتل عليه السلام راجعًا إلى المدينة بعد أن حققت الغزوة الأهداف التي خرجت من أجلها. وقد كان ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه يقوده بنفسه متحديًا قوة الروم رمزًا حقيقيًا لقوة دولة الإسلام في المدينة.

وقد أدرك أمراء تلك الأنحاء، القريبة من تبوك، حقيقة هذه القوة فلم يتصدوا لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجنحوا للصلح معه. فجاءه (يوحنا) صاحب إلات (إيلات الحالية) وعقد معه اتفاقها على أن يدفع وأهل إمارته من النصارى الجزية، وقد قدرت بحوالي ثلثمائة دينار كل عام. كذلك جاءه وفد من أهل (جرباء) بالأردن، ووفد من أهل (اذرح)، وهي قوية صيد على البحر الأحمر، واتفقوا معه على دفع الجزية السنوية، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا بذلك.

وأثناء مقامه، صلى الله عليه وسلم بتبوك أرسل الرسول، خالد بن الوليد، على رأس قوة قوامها أربعمائة وعشرين فارسًا إلى (دُرمة الجندل)، وهي حصن بين الشام والمدينة قرب جبل طئ، في رجب سنة تسع للهجرة، وكان مليكها يدُعي (أُكيدر) من كندة، وكان نصرانيًا، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة لصيد بقر كان يطاردها هو وأخوه (حسان)، فشدت عليه خيل خالد وأسرته وامتنع أخوه وقاتل حتى قتل وهرب منْ كان معهما، فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دُومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفيْ بعير وثمانمائة رأس غنم وأربعمائة درع

وأربعمائة رمح. ثم خرج خالد بأكيدر وأخ له كان في الحصن يُدعي (وصاد) ومما صالحه عليه قافلًا إلى المدينة، فقدم بأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى له هدية فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخليَّ سبيلهما. وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذٍ بظُفره.

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ولم يلق كيْدًا، وقدم المدينة في شهر رمضان سنة تسع، فقال: "الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجرٍ وحِسبة". وجاءه من كان تخلف عنه فحلفوا له فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ أمْرُ كعب بن مالك وصاحبيه حتى نزلت توبتهم بعد.

وبعد هذا النجاح الذي حققته حملة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك عاد إلى المدينة، بعد أن أظهر قوته للروم دون الدخول معهم في معركة فاصلة، ولكن بحملته هذه أوحي لمن سيحكم دولة الإسلام من بعده أن يتعهد بحرب الروم وغزو بلادهم، وهذا ما تم في عهد الراشدين والأمويين. وحين قامت قوات الإسلام بفتح بلاد الروم وتحويل أهلها إلى الإسلام إدعي بعض كتاب الغرب والمستشرقون المتعصبون بأنَّ الإسلام انتشر في هذه البلاد بحد السيف في وقت ضعفت فيه دولة الروم المسيحية ولم تستطع أن تحمي شعوبها من هذا التحول إلى الدين الجديد، وأنَّ هذا التحول قد فُرض عليهم والسيف على رقابهم.

وهذا القول قول مردود على اصحابه ودعواه باطلة لأنَّ كتب التاريخ جميعها قديمًا وحديثًا والتي تعرضت للفتح الإسلامي سواء كتبها مسلمون أو غير مسلمين لم تشر ولو إشارة واحدة إلى أنَّ المسلمين الفاتحين أجبروا شعبًا من الشعوب التي فتحوا بلادها على اعتناق الإسلام وترك ما هم عليه مِن ملة ودين. والمسلمون، والرسول صلى الله عليه وسلم مِن قبلهم، أسقطوا حكومات هذه الشعوب الغاشمة التي حالت بين شعوبها والإسلام ووقفت حجر عثرة في سبيلهم للتعرف على هذا الدين الجديد؛ ولمَّا سقطت هذه الحواجز المنيعة التي وضعها هؤلاء الحكام وقفت شعوب هذه البلاد على الإسلام، وكان عليها إما أن تختاره وإما أن تظل

على ديانتها. والرسول، بكسره لهذا الحاجز، إنما ينفذ أمر ربه بإبلاغ وإيصال هذا الدين إلى العالم كله لأنه أرُسل للناس كافة وعامة. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفعل، قبل الغزو المسلح، كما رأينا، بإنفاذ رسله وكتبه إلى ملوك وحكام العالم آنذاك يدعوهم إلى الإسلام ويبلغهم ويرشدهم وينذرهم ويشهد يوم القيامة أمام الله عليهم لأن الله أرسله للناس كافة وعامة (شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا). وحين رفض معظم الحكام آنذاك نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وإلى عبادة الله الواحد الأحد العز والصمد، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسر هذا الحاجز الذي أقامه الحكام بين شعوبهم والإسلام؛ وقد ضرب بنفسه المثل في ذلك في إنفاذه جيش مؤتة وقيادته بنفسه جيش غزوة تبوك وتجهيز جيش آخر، بعد ذلك، لمحاربة الروم بقيادة (أسامة بن زيد بن حارثة).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامًا للمجاهدين في كل أرجاء المعمورة، لا في الجزيرة العربية فحسب؛ وقد حمل راية الجهاد مِ، بعده قواد المسلمين المجاهدين أيام الخلفاء الراشدين والأمويين، وكانت الفتوحات الكبرى التي كونت دولة الإسلام الكبرى التي امتدت جنباتها من المحيط الأطلسي غربًا إلى حدود الصين شرقًا، ومن غانة جنوبًا إلى فرغانة شمالًا.

ولو قرأنا تفاصيل أحداث مجريات الفتوح الإسلامية واستعرضنا جهاد المسلمين في هذه الفتوح التي بدأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنا لا نجد فيها أي إكراه أو إجبار لمسيحي أو يهودي أو حتى مجوسي على ترك ملته للدخول في الإسلام. فلقد كان السيف فقط على رأس المحارب الكافر الملحد والمشرك الذي تصدى للقوات الفاتحة. أمَّا أهل الكتاب فقد كفل لهم الإسلام حق الحياة وحرية العبادة وحرية العمل وحافظ على دور عباداتهم دون التعرض لها على أن يدفعوا الجزية، إسوة بالمسلم الذي يدفع الزكاة، وصاروا أمانة في رقاب المسلمين وذمتهم لذلك عرفوا بالذميين، وبأهل الذمة. وبعد أن عرف هؤلاء الذميون سماحة الدين الجديد ومصداقيته وقوة حجته وصدق منطقه وأمانة مبلِغه وعدالة شرعته، مع تبين بطلان معتقداتهم لهم وظلم حكامهم لهم، وتأليهم لأنفسهم من دون الله وهم بشرٌ مثلهم لا

يملكون من أمر أنفسهم شيئًا، أقبلوا بعد كل هذا، على الإسلام ودخلوا فيه بأعداد كبيرة في وقت قصير. وقد شق على غلاة المسيحية وقادتهم أن يتحول أهالي بلاد كانت قلبًا للمسيحية ومعقلًا لها، مثل بلاد الشام ومصر، إلى الإسلام وأن تصبح هذه البلاد، في يوم وليلة، معقلًا للإسلام ومراكز كبرى له ومنارات عالية يشع منها نوره وهديه، فقالوا كذبًا وحقدًا وحسدًا ما زعموه من أن الإسلام انتشر في تلك البلاد بحد السيف. والدارس لتاريخ الإسلام يعرف جيدًا كيف حفظت دولة الإسلام، على مر العصور، للنصارى واليهود، الذين ظلوا على ديانتهم، حقوقهم وامتيازاتهم، وكيف ظللتهم راية التسامح في ظل الإسلام وكفلت لهم حريات وحقوق لم يكونوا يحلمون بها من قبل. وكتب التاريخ مليئة بنصوص المعاهدات التي عقدها الرسول الله صلى الله عليه وسلم وحكام المسلمين من بعده تشهد على هذا التسامح وتدحض إدعاءات وافتراءات أولئك الحاقدين الموتورين.

وعند عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة، نزل (بذي أوان)، وهي بلدة بينها وبين المدينة مسيرة يوم، جاءه خبر مسجد (الضرار) على لسان جبريل الأمين. وتتلخص قصة هذا المسجد في أنَّ (بني عمرو بن عوف)، وهم رهط من الأنصار، حين ابتنوا مسجد (قُباء)، أول مسجد بُني في الإسلام، بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونه أن يأتيهم ليصلي بهم فيه مفتتحًا إياه، فأتاهم وصلى بهم فيه. فحسدهم إخوتهم من (بني غَنم)، وكانوا من منافقيي الأنصار، فقرروا بناء مسجدٍ لهم على غرار مسجد قباء. ولمَّا فرغوا من بناء المسجد، جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يستعد للذهاب إلى تبوك، وطلبوا منه أن يأتي ليصلي بهم فيه ويدعو لهم بالبركة. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنا على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا إن شاء الله صلينا بكم فيه". فلمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ونزل بذي أوان؛ جاءه المنافقون الذين بنو المسجد الضرار وطلبوا منه أن ينفذ وعده لهم. لكن جبريل نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بنفاق القوم وتواطؤ زعيمهم (أبو عامر) في الإتفاق مع الروم والاستعانة بقواتهم في إسقاط دولة

الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم (مالك بن الدخشم) و (معن بن عدي) و (عامر بن السكن)، وطلب منهم أن يذهبوا إلى مسجد الضرار فيهدموه وعرقوه؛ وقد فعلوا ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم رغمًا عن أنف مَنْ بناه من بني غنم. وقد نزل في أمر هذا المسجد آيات من سورة التوبة، وذلك في قوله تعالى: (والذين اتخذوا مسجدًا ضراراً وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردن إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدًا لمسجد أُسِسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهربن. أفمن أسَسَ بنيانه على تقوى من الله من رضوانه خيرٌ أم مَنْ أسَسَ بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين).

وقدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق وهم: (كعب بن مالك)، و (مرارة بن الربيع)، و (هلال بن أمية)؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "لا تكلمن أحدًا من هؤلاء الثلاثة"، وأتاه مَنْ تخلَف عنه من المنافقينُ وكانوا بضعة وثمانين رجلًا فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يعذرهم الله ولا رسوله: واعتزل المسلمون تكلِم أولئك النفر الثلاثة. وظلت تلك المقاطعة خمسون ليلة حتى قبل الله توبتهم وعفى عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أنزل الله تعالى في شأن هؤلاء الثلاثة قوله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدِ ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلِفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم أنفُسهم وظنوا ألَّأ بلمأ مِن الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

* * *

وبعد أن افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودانت له قريش، وبعد أن عاد من غزوة تبوك وقد أظهر لبوادي العرب وتوابع الروم قوم دولة الإسلام، وبعد أن أسلمت هوازن وثقيف وبايعتا وفتُحت الطائف للإسلام، عرفت قبائل العرب أنَّ لا طاقة لها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأدركت ضرورة الولاء لدولة الإسلام، لذلك ضربت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود قبائل العرب من كل أنحاء شبه الجزيرة في العام التاسع للهجرة وجاءت تبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى عُرف هذا العام بعام الوفود. ونزل في ذلك قوله تعالى في سورة النصر: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد وربك واستغفره إنه كان توابًا).

وكانت أول الوفود التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة لمبايعته في ذلك العام: وفد (بني عامر)، وهم بنو عامر بن صعصعة، وفيهم رئيسهم (عامر بن الطفيل). وقد عرض ابن الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلية بني عامر؛ وهي إما أن يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مِن بعده، أو يكون الرسول رئيسًا على المدن ويكون هو رئيسًا على البادية. فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه. وهود ابن الطفيل بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوا المدينة برجال غطفان بن بني عامر، وخرج غاضبًا من عند رسول الله ولم يبايع، ومات وهو في طريق عودته إلى قومه على أثر إصابة بمرض الطاعون.

وقدم وفد بني (عبد القيس) على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم بطن من بطون قبيلة (ربيعة)، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا. كذلك قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد (بني حنيفة) من اليمامة، وفيهم مسيلمة الكذاب، فأسلموا، وأسلم معهم مسيلمة، لكنه حين رجع إلى اليمامة إدعي النبوة في قومه وكذب عليهم واتبعه بعض رجالهم، وكانت نهايته ونهاية دعواه في خلافة الصديق أبي بكر.

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد قبيلة (طئ)، وفيهم سيدهم (زيد الخيل) فأسلموا وقد سمَّي رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدهم (زيد الخير) بلاًلا من زيد الخيل. كذلك قدِم وفد (كندة) وفيهم رئيسهم (الأشعث بن قيس) وأسلموا وبايعوا. كما قدِم وفد (زبيد) باليمن وعلى رأسهم زعيمهم (معدي كرب) فبايعوا وأسلموا. وقدِم بعدهم (الأشعريون) من أهل اليمن فأسلموا وبايعوا. وقدم على النبي عليه السلام وفد من (الأزد) بقيادة (صرد بن عبد الله الأزدي) من منطقة (حضرموت) فأسلموا وحُسن إسلامهم، وقد أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم (صردًا) أميرًا على مَنْ أسلم مِن قومه وأمره بأن يجاهد بهم أهل الشِرك من قبائل اليمن. وقدِم من (نجران) وفد (بني الحارث بن معب) يعلنون إسلامهم بعد استجابتهم لدعوى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أرسل إليهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام. وجاء وفد (همدان) وأعلن إسلامه. كذلك جاء وفد (بني سعد) من (قضاعة) من اليمن ووفد (بني فزارة) فأسلموا. وجاءت وفود: (بني أسد)، و (بني عذرة)، و (بلى) و (ذي مرة)، و (فولان)، و (عبس)، وقد أسلم جميعهم. وأسلم (المنذر بن ساوى) حاكم البحرين، حين أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (العلاء الحضرمي) يدعوه إلى الإسلام، فأرسل وفدًا من عنده إلى رسول الله ليؤكد له إسلامه وإسلام قومه من أهل البحرين.

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله إلى أرجاء أركان دولته ليتولوا أمرهم نيابةً عنه وليأموهم في الصلاة ويجمعوا منهم الصدقات ويعلموهم الإسلام. فبعث (المهاجرين بن أبي أمية بن المغيرة) إلى صنعاء باليمن، كما بعث (زياد بن لبيد) ‘لى حضرموت و (عدي بن حاتم) إلى طئ وبني أسد، و (مالك بن نويره) إلى بني حنظلة، و (العلاء بن الحضرمي) إلى البحرين، و (علي بن أبي طالب) إلى أهل نجران.

وفي شهر ربيع الأول من العام التاسع للهجرة، توفى (إبراهيم)، ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجته (ماريا القبطية)، التي كان قد أهداها (المقوقس) حاكم مصر، هي وأختها (سيرين) هدية له. فتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من ماريا وأنجب منها إبنه إبراهيم.

توفى إبراهيم وهو ابن عام ونصف عام، ودفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالبقيع). وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراق فلذة كبده ودمعت عيناه وهو يواريه التراب. ويقول: (القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول إلا ما يُرضى الرب وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونو). هذا هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسان، يعيش الأفراح والأحزان. وهذه هي إرادة الله تعالى في ألا يبقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مِن بعده مِن ولد، وقد تكون إرادته سبحانه قد شاءت ذلك حتى لا يورثه المسلمون الحكم والإمامة مِ بعده، وحتى لا تكون دولة الإسلام دولة يُتوارث منها الحكم كدولتيْ الفرس والروم، وإنما تكون القيادة فيها لأصلح العناصر التي يختارها إجماع المسلمين. وهذا ما كان في اختيار الخلفاء الراشدين، الذين حكموا دولة الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحين تحولت دولة الإسلام إلى المُلك الوراثي دخل إليها الوهن والضعف وعرفت الفرقة والانقسام وحملت في عز قوتها عوامل ضعفها وأسباب انهيارها وتدهورها، وذلك حين حُرمت من حكم أصلح عناصرها واستسلمت لحكم رجال ورثوا الحكم على طبق من ذهب دون أن تتوافر لهم عناصر القيادة الحقة ومقومات الرئاسة الضرورية.

وقد كسُفت الشمس يوم موت إبراهيم، ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الناس أنَّ هذه كرامة له، وأنها كسفت حزنًا على موت إبراهيم وأسفًا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فلذة كبده. فاستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا القول ونهاهم عنه ليضع بذلك حدًا لهذه المقولات الباطلة قائلًا لهم: "إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته".

* * *

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شهر رمضان وشوالًا وذو القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع للهجرة، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم، فخرج أبو بكر رضي الله عنه في ثلثمائة رجل من المدينة ومعه عشرين

بدنة ونزلت (براءة) في نقض ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أنْ لا يُصَدَّ عن البيت أحدٌ جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهدًا عامًا بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل العرب خصائص إلى آجال فسماه، فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، وفي قول من قال منهم، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يُظهرون، منهم مَنْ سمَّى لنا ومنهم مَنْ لم يُسمِ لنا، أي لأهل العهد العام مِن أهل الشرك (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غيرُ معجزي الله وأنَّ الله مخزى الكافرين. وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنَّ الله بريءٌ من المشركين ورسولُه)، أي بَعد هذه الحجة (فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين): أي العهد الخاص إلى الأجل المسمى (ثم لم ينقُصوكم شيئًا ولم يُظاهِروا عليكم أحدًا فأتموا إليهم عهدَهم إلى موتهم إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الشهرُ الحرمُ): يعني الأربعة أشهر التي ضرب لهم أجلً، (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعُدوا لهم كل مرصد. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإنْ أحدٌ من المشركين)، أي من هؤلاء الذين أمرتك بقتلهم (استجارَك فأجِره حتى يسمع كلامَ الله ثم أبلغهُ مأمنَه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون). ثم قال: (كيف يكونُ للمشركينَ)، الذين كانوا هم وأنتم على العهد العام أن لا يخيفوكم ولا يخيفوهم في الحرمة ولا في الشهر الحرام (عهدُ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عن المسجد الحرام)، وهي قبائل من بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم يوم الحديبية، إلى المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، فلم يكن نقضها إلا هذا الحي من قريش، وهي (الديل) من بني بكر بن وائل الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم فأمر باتمام العهد لمن لم يكن نقض من بني بكر إلى مدته (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنَّ الله يحب المتقين). ثم قال تعالى: (كيف وإن يظهروا عليكم):

أي المشركون الذين لا عهد لهم إلى مدة من أهل الشرك العام (لا يرقُبوا فيكم إلًّا ولا ذمة يُرحقونكم بأفواههم وتأبى قلوبُهم وأكثرُهم فاسقون. اشتروْا بآياتِ الله ثمنًا قليلًا فصَدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون. لا يرقُبون في مؤميه إلًّا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفضلُ الآيات لقومٍ يعلمون).

ولمَّا نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج، قيل له: "يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر"، فقال: "لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي"، ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: "أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمِنى، أن لا يدخل الجنة كافر ولا يحج هذا العام مُشرك ولا يطوف بالبيت عريان. ومنْ كان له عند رسول الله عهدٌ فهو إلى موته. فخرج على رضوان الله عليه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم (القصواء)، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلمَّا رآه أبو بكر بالطريق قال: "أأمير أم مأمور؟"، فقال: "بل مأمور"، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في مَلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية. حتى إذا كان يوم النحر، قام علي ابن أبي طالب فأَذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى موته، وأجلُ الناس أربعة أشهر من يوم أذِن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدة فهو له إلى مدته". فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلمَّا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو القعدة تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له. وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة عشرة للهجرة، وهي التيس يسميها الناس بحجة الوداع، وكان المسلمون يسمونها حجة

الإسلام. قالوا: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحي كل عام ولا يحلق ولا يقصر ويغزو المغازي ولا يحج، حتى كان في ذي القعدة سنة عشر من مهاجَره صلى الله عليه وسلم، فأجمع الخروج إلى الحج وآذن الناس بذلك، فقدم المدينة بشرٌ كثير يأتمون برسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته، ولم يحج غيرها منذ تنبئ إلى أن توفاه الله. وكان ابن عباس يكره أن يُقال حجة الوداع ويقول حجة افسلام، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة مغتسلًا متدهنًا مترجلًا متجردًا في ثوبين صُحاريين إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة. فصلى الصبح بذي الحليفة ركعتين وأخرج معه نساءه كلهن في الهوادج، وأشعر هديه وقلده، ثم ركب ناقته، فلمَّا استوى عليها بالبيداء أحرم من يومه ذلك، وكان على هديه ناجية بن جُندُب الأسلمي. واختُلف فيما أُهل به: فأهل المدينة يقولون أهلَّ بالحج مُفردًا، وفي رواية غيرهم أنه قرنَ مع حجته عمرة، وقال بعضهم دخل مكة متمتعًا بعمرة ثم اضاف إليها حجة، وفي كلِ رواية والله أعلم. ومضى يسير يف الناس ويؤم أصحابه في الصلوات في مساجد له قد بناها الناس وعرفوا مواضعها. وكان يوم الاثنين بمِر الظهران فغربت له الشمس بسَرِف ثم أصبح فاغتسل ودخل مكة نهارًا، وهو على راحلته (القصواء)، فدخل من أعلى مكة مِن كدَاء حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فلمَّا رأي البيت رفع يديه فقال: "اللهم زِد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وزد مَنْ عظَّمة ممن حجه واعتمره تشريفًا وتكريمًا ومهابةً وتعظيمًا وبِرًا".

ثم بدأ مَطاف بالبيت، ثم صلى خلف المقام ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته. فلمَّا كان قبل التروية بيوم خطب بمكة بعد الظهر، ثم خرج يوم التروية إلى مِنى فبات فيها، ثم غدا إلى عرفات، وقال: "كل عرفة موقفٌ إلا بطن عَرَنة، فوقَلاٍ على راحلته يدعو، فلَّما غربت الشمس، جاء المزدلفة، فصلى هناك المغرب والعشاء بأذانٍ وإقامتين ثم بات بها، فلمَّا كان في السَحَر أذِن لأهل الضعف من اذلرية والنساء أن يأتوا مِنى قبل زمان الناس. فلمَّا برق الفجر صلى نبي الله صلى الله عليه وسلم الصبح ثم ركب راحلته حتى رمى حجرة العقبة، ثم

نحر الهديْ وحلق رأسه وأخذ مِن شاربه وعارفيه وقلَم أظفاره، ثم أصاب الطيب ولبس القميص، ونادي مناديه بمنى: إنها أيام أكل وشرب، وجعل يرمي الجمار في كل يوم عند زوال الشمس، ثم خطب الغد من يوم النحر بعد الظهر على ناقته (القصواء)، ثم صدر يوم الصدر الآخر وقال: إنما هن ثلاث يقيمهن المهاجر بعد الصدر (يعني مكة)، ثم ودَّع البيت وانصرف راجعًا إلى المدينة صلى الله عليه وسلم.

وقد أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مناسكهم وعلَمهم سنن حجهم، وهو يقول لهم ويكرر عليهم قوله: "أيها الناس خذوا عني مناسككم فلعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا"، وقد كانت بالفعل حجة الوداع، فلقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها بثلاثة أشهر وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس خطبته المعروفة (بخطبة الوداع)، خطبها يوم عرفة من فوق (جبل الرحمة)، وقد أنزل الله الوحي على رسوله وقتها مبشرًا بإتمام الدين وكماله بقوله تعالى في سورة المائدة: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا). وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته هذه:

"الحمد لله نحمه ونسعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلل فى هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد انَّ محمدًا عبدُه ورسوله. أيها الناس، إسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس أوصيكم بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير. أيها الناس، إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلتقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم. ألَأ هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فمنْ كانت عنده أمانة فليؤديها إلى مَنْ أئتمنه عليها. وإنَّ رِبا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا. وإنَّ أول ربا أبدأ به هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وهو ربا موضوع كله. وأنَّ كلَ دم

في الجاهلية موضوع وإنَّ أولَ دمائكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أمَّاً بعد، أيها الناس إنَّ الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إنما النسئ زيادة في الكفر يُضَل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليوطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وإنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حُرم، ثلاثة متوالية وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أما بعد، أيها الناس، فإنَّ لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن ألا يوَاطئن فُرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإنْ فعلنَّ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان (أسيرات) لا يملكن لأنفسهن شيئًا وإنكم إنما أخذتموهن بأبانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بينًا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أنَّ كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لإمرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؛ فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب وإنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد".

فقال الناس جميعًا: "اللهم نعم"، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فليبلغ الشاهد الغائب، أيها الناس إنَّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلُث والولد للفِراش وللعاهر الحجر. من إدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبل منه حرف ولا عدل. . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وبعد أن أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسك الحج، وأقام بمكة في حجته هذه عشرة أيام، فقل راجعًا إلى المدينة بعد أن أدى الحجة الوحيدة الكاملة في حياته. وقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وضرب على النسا بعثًا إلى الشام، وأمرَّ عليه (أسامة بن زيد بن حارثة)، وكان في الثامنة عشرة من العمر، وأمره بالسير بالجيش إلى أرض فلسطين لمحاربة الروم. فتجهز الناس، وكانت هذه السرية آخر السرايا التي جهزها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد توفاه الله دون أن تتم، وكانت أول شيء جهزه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولى الخلافة على المسلمين.

* * *

كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول: "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم أغفر لي"، فلمَّا نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال: "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم).

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم، في آخر عمره، يُكثر من قوله: سبحانك الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقلت يا رسول الله إنك تكثر من قول سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه، لم تكن تفعله قبل اليوم؟ فقال: إنَّ ربي كان أخبرني بعلامة في أُمتي فقال إذا رأيتَها فسبح بحمد ربك واستغفره فقد رأيتها (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا). وقيل أن تلك السورة لمَّا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ابنته

فاطمة فقال: "إني نَعيت إليَّ نفسي)، فبكيت فاطمة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تبكي فإنك أولُ أهلي بي لحوقًا"، فضحكت، وقد توفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر، وكانت أول أهله لحوقًا به صلى الله عليه وسلم.

وقال أنس بن مالك: أنَّ الله تبارك وتعالى تابع الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى تُوفي، وأكثر ما كان الوحي في يوم تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان جبريل يعرض القرآن كل سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا كان العام الذي قبُض فيه عرضه عليه مرتين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في رمضان العشر الأواخر، فلمَّا كانت السنة التي قبُض فيها اعتكف عشرين يومًا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، في السنة التي قبُض فيها لعائشة رضي الله عنها، "إنَّ جبريل كان يعرض عليَّ القرآن في كل سنة مرة فقد عرض عليَّ العام مرتين، وإنه لم يكن نبي إلا عاش نصفَ عُمر أخِه الذي كان قبلَه، عاش عيسى بن مريم مائة وخمسًا وعشرين سنة، وهذه اثنتان وستون سنة، ومات في نصف السنة.

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه من مرضه الذي توفى به وهي حمى أصابته أثر ضربة شمس لمدة ثلاثة عشر يومًا في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به من ذلك، أنه خرج إلى (بقيع الغرقد)، ودفن أهل المدينة، مِن جوف الليل فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلمَّا أصبح أُبتدئ بجعه من يومه ذلك.

قال ابن إسحاق أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من جوف الليل مع مولاه (أبي مويْهبة) وقال له: (يا أبا مويهبة) إني قد أمُرتُ أن استغفر لأهل البقيع فانطلق معي، فانطلقت معه، فلمَّا وقف بين أظهرهم، قال: "السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم تبع آخرُها أولَها، الآخرة شر من الأولي" ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخُيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة" قال: فقلت: "بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد

فيها ثم الجنة" قال: "لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترتُ لقاء ربي والجنة"، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذي قبضه الله فيه.

ولمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع، فوجد عائشة وهي تجد صداعًا في رأسها وهي تقول: "وارأساه"، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أنا والله يا عائشة وارأساه"، قالت: ثم قال وما ضرك لو مِتِ قبلي فقمت عليك وكفنتكُ وصليت عليك ودفنتكُ؟" قالت: "والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرستُ فيه ببعض نسائك"، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتام وجعه وهو يدور على نساءه حتى غلبه وهو في بيت ميمونة بنت الحارث، فدعا نساءه، فاستأذنهن في أن مُرَض في بيت عائشة، فأذِنَّ له. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند ميمونة يمشى بين علي بن أبي طالب والفضل بن العباس، عاصبًا راسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ولمَّا اشتد الوجع على رسول الله قال: "اهرقوا عليَّ سبَع قرب ماءٍ من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم". فأقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في طست لحفصة بنت عمر، ثم صُب عليه الماء، حتى طفق وهو يقول: "حسبكم حسبكم".

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر، ثم أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أُحد واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: "إنَّ عبدًا مِن عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله" ففهمها أبو بكر وعِرف أنَّ نفسَه يريد فبكى، وقال: "بل نحن نفديك بأنفسنا وأبناءنا يا رسول الله"، فقال: "علي رِسلك يا أبا بكر" ثم قال: "انظروا هذه الأبواب النافذة في المسجد، فسدوها إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه فإني لو كنت متخذًا من العباد خليلًا لاتخذ أبا بكر خليلًا، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده".

وقال ابن إسحاق أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ الناسَ في بعث أسامة ابن زيد، وهو في وجعه، فخرج عاصبًا راسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة

أسامة: أمَّر غلامًا حَدَثاً على جُلة المهاجرين والأنصار. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له، ثم قال: "أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلَعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمامة وإن كان أبوه لخليقًا لها"، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرع الناس في جهازهم، وازداد وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على ثلاثة أميال، فضرب به عسكره، وتتام إليه الناس وثُقل المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبدت الحمى برأسه صلى الله عليه وسلم، فأقام أسامة والناس مكانهم، لينظروا ما الله قاضٍ به في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال أسامة: "لمَّا ثقلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطتُ وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد صمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليَّ، فأعرف أنه يدعو لي.

وقالت السيدة عائشة: "لمَّا اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقدر على الصلاة بالناس في المسجد، قال: مروا أبا بكر فليُصلِ بالناس، قالت: قلت: يا بني الله إنَّ أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال: مروه فليصل بالناس، قالت: فعدتُ بمثل قولي، فقال: إنكن صواحب يوسُف، فمروه فليصل بالناس، قالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر وعرفتُ أنَّ الناس لا يحبون رجلًا قام مقامه أبدًا. وأنَّ الناس يتشاءمون به في كل حدثٍ كان، فكنت أحب أني صُرف ذلك عن أبي بكر.

قال ابن إسحاق: "لمَّا استُعز برسول الله صلى الله عليه وسلم، دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: مروا من يصلي بالناس، فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائبًا، فقال عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب: قم يا عمر في الناس وكان أبو بكر غائبًا، فقال عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب: قُم يا عمر فصل بالناس، فقام، فلمَّاً كبرَ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، وكان صوتَ عمر جهوريًا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين أبو بكر؟

يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس. قال عبد الله بن زمعة، قال لي عمر: ويحك ماذا صنعت بي يا ابن زمعة؟ والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس. قال: قلت والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

قال ابن إسحاق: لمَّا كان يوم الاثنين الذي قبض اللهُ فيه رسوله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الناس، وهم يلصون الصبح، فرفع السِتر وفتح الباب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فرحًا به، وتفرجوا فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم؛ قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورًا لِما رأى مِ، هيئتهم في صلاتهم، وما رؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئة منه تلك الساعة، قال: ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شفي من وجعه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُنحُ، (العالية) خارج المدينة، وكان قد تغيب عنها مدة بسبب ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء مرضه.

وأضاف ابن إسحاق قوله: أنه لمَّا كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبًا رأسه، إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالناس، فلمَّا خرج رسول الله تفرج الناس (أفسحوا له)، فعرف أبو بكر أنَّ الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكص عن مصلاه، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظهره وقال: صلِ بالناس، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فصلى قاعدًا عن عِين أبي بكر، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعًا صوته حتى خرج صوته من باب المسجد، يقول: "أيها الناس، سُعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون قال: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه، قال له أبو بكر: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله

وفضل كما تحب، واليوم يوم بنت خارجة أفأيتها؛ قال: نعم، ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُنحُ.

قال ابن إسحاق عن عبد الله بن العباس: خرج يومئذٍ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على الناس مِن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الناس. يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أصبح بحمد الله بارئًا، قال: فأخذ العباس بيده، ثم قال: يا علي أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. قال فقال له علي: إني والله لا أفعل؛ والله لئن مُنعناه لا يؤتيناه أحدٌ بعده. فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضحى من ذلك اليوم، بعد أن بقيَّ في مرضه ثلاثة عشر يومًا.

قال ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها قالت: رجع إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر، قالت: فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده نظرًا عرفت أنه يريده، قالت: فقلت يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم، قالت: فأخذته فمضغته له حتى لنيته، ثم أعطيته إياه فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وصفه، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: "بل الرفيق الأعلى من الجنة"، قالت: فقلت: "خيُرت واخترت والذي بعثك بالحق" قالت: وقبُض رسول الله صلى الله عليه وسلم، في ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة (٩ يونيو، حزيران ٦٣٢م) وعمره ثلاث وستون عامًا هجريًا وإحدي وستون عامًا ميلاديًا.

وكان موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثًا أذهل العقول وأفزع القلوب وروَّع النفوس، وبدا الناس في شأنه حيارى حتى بدى كأنه شيء لا يمكن أن يكون، فقد كان صلى الله عليه

وسلم ملء القلوب والنفوس والأنصار والأسماع وملء الدنيا بأسرها، فلما مات كان الفراغ الذي تركه أكبر مِن أن يتصور وكان دفعه اشد مِن أن يحتمل.

قال ابنُ إسحاق، سُمعت عائشة وهي تقول حين قبُض رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري وفي دولتي، لم أظلم فيه أحدًا، فمِن سفهي وحداثة سِني أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبُض وهو في حجِري، ثم وضعتُ رأسه على وسادة، وقمت ألتدم (أضرب صدري) مع النساء وأضرب وجهي".

قال ابن إسحاق: لمَّا تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب، فقال: إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون انَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوفى، وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات؛ ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مات.

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى في ناحية البيت، عليه بُرد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل عليه فقبَّله، ثم قال: "ما أطيبك حيًا وميتًا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأبي أنت وأمي، أمَّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتةً أبدًا"، ثم رد البرُد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: "علي رِسلك يا عمر، أنصت" فأبي إلا أن يتكلم، فلمَّا رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلمَّا سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر؟ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، ثم تلا هذه الآية:

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن

ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين) قال ابن إسحاق: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ، وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم. وقال عمر: "والله ما هو إلا أن سمعتَ أبا بكر تلاها فعقُرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفتُ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات".

هكذا ذهب الحارث الجلَل بألباب الناس حتى أذهلهم وحتى ذهب الظن بعمر أن رسول الله لم يمت وأنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها. ولقد أذهل عِظم المصيبة الناس حتى نسوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر من الناس يجوز عليه ما يجوز على الناس من الحياة والموت وأنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أدى رسالة ربه خير أداء وبينها للناس أحسن بيان.

قال ابن إسحاق: لمَّا بويع أبو بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء، والذين تولوا غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم هم: علي بني أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقُثَم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنَّ أوس بن خولى، أحد بني عوف بن الخزرج، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بدر، حضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد غُسِل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قميصه، وقد أسنده عليُ إلى صدره والعباس والفضل وقُثَم يقلبونه معه، وأسامة وشقران هما اللذان يصبان الماء عليه وعليَّ يغسلِه وعليه قميصه يدلكه به مِن ورائه وهو يقول: "بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيًا وميتًا".

ولمَّا فُرِغ مِ، غُسله صلى الله عليه وسلم كُفين في ثلاثة أثواب ثوبين صحاريْين يمنييْن وبرد حبرة، أدُرِج فيها إدراجًا. ولمَّا أرادوا أن يحفروا قبرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جيء بأبي طلحة زيد بن سهيل وهو الذي يُلحد لأهل المدينة فلحَّدَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما فُرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء وُضع في سريره في بيته، وقد كان الناس قد اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما قبضُ نبي إلا دُفن حيث يُقبَض"، فُرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تُوفى عليه فحُفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون عليه أفواجًا وقال أبو بكر وعمرو هما في الصف (الأول للفوج الأول من المصلين على رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهو إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنُزل إليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز دينه وتمت كلماته فآمن به وهذه لا شريك له فاجعلنا إلهنا فمن يتبع القول الذي أنُزل معه واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه فإنه كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا لا نبتغي بالإيمان بدَلًا ولا نشتري به ثمنًا أبدًا".

فيقول الناس "آمين. . آمين". دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان، ولم يؤِم الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد. ثم دُفن رسول الله صلى الله عليه وسلم من وسط الليل، ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا في قبره صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوس بن خولى. وقد كان شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مِن وُضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته وبُني عليه، قد أخذ قطيفة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: "والله لا يلبسها أحد بعدك أبدًا"، فدفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك بعده في الدنيا دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة، ولم يخلفِ وراءه إلا بغلته التي كان يركبها وناقته القصواء وسلاحه وأرضًا في فدَ: جعلها صدقة لأبناء السبيل. تُفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد إقامته بها عشر سنين بعد هجرته إليها، ودُفن فيها وتشرفت أرضها باحتواء مُيمانه الشريف صلى الله عليه وسلم ليذهب المسلمون حجاجًا ومعتمرون إلى زيارة قبره الشريف هناك، وهو المكان الذي

أقيم عليه ضريحه الطاهر ورُفعت عيله القبة الخضراء في مسجده الشريف بالمدينة المنورة. ووارى التراب أحب الأحباب واحتوى باطن الأرض خير خلق الله على الأرض وأعظم من وطأها ومشى على سطحها محمد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم أكرم خلق الله وسيد ولد آدم دعوة إبراهيم وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام.

ولقد رثى الكثيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زالوا يرثونه حتى تقوم الساعة وبكاه المسلمون وما زالوا يبكونه إلى يوم يلقونه ويسعد بلقائه وبشفاعته ومعيته في الفردوس الأعلى من سار على دربه وعمل بكتاب ربه وبسنته وزاد عن دينه وتمسك بالعروة الوثقى وتفانى في حفظه والدفاع عنه. وما أجمل ما رثه به (حسان بن ثابت)، حين قال ينعيه إلى المسلمين وإلى الدنيا جميعها:

أطالت وقوفًا تذرف العين جُهدها

على طلل القبر الذي فيه أحمدُ

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت

بلاد ثوى فيها الرشيد المسددُ

وبورك لحدٌ منك ضمَّن طيبًا

عليه بناء من صفيح منضدُ

تهيل عليه الترب أيدٌ وأعينٌ

عليه وقد غارت بذلك اسعدُ

لقد غيبوا حلمًا وعلمًا ورحمةً

عشية علوِّه الثرى لا يوسَّدُ

وراحوا بحزنٍ ليس فيهم بنيُهم

وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعُضدُ

يبكون من تبكى سالموات يومَه

ومنْ قد بكته الأرضُ فالناس أكمدُ

وهل عدلت يومًا رزيةُ هالكٍ

رزيةَ يومٍ مات فيه محمد؟

تقطعَ فيه منزلُ الوحي عنهمُ

وقد كات ذا نورٍ يغور وينجدُ

إمامٌ لهم يهديهم الحق جاهدًا

معلمُ صدقٍ إن يطيعوه يسعدوا

عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى

حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا

فابكي رسولُ الله يا عينُ عبرةً

ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمدُ

وما لَك لا تبكين ذا النعمة التي

على الناس منها سابغٌ يتغمدُ

فجودي عليه بالدموع وأعولِي

لفقدْ الذي لا مثلهُ الدهرُ يوجدُ

وما فقد الماضون مِثل محمدٍ

ولا مَثلُه حتى القيامة يُفقدُ

صلى الله وسلم عليك يا يخر خلق الله أجمين ويا أشرف وأكرم الأنبياء والمرسلين، وصدق الله العظيم حين أنزل فيك قوله الكريم (وإنك لعلى خلق عظيم)، كذلك قوله (وما أرسُلناك إلا رحمةً للعالمين). وجزاك الله عنا خير الجزاء إذ هديتنا إلى الطريق المستقيم ونشهد بأنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وأزلت الغمة وتركتنا على المحبة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وذلك تصديقًا لقول ربنا العزيز الحكيم: (كذلك أوحينا إليك روحًا من

أمرِنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به مَنْ نشاء مِن عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور). صدق الله العظيم.

* * *

٧- شمائل النبي محمد صلى الله عليه وسلم لإنسان الكامل

الإنسان الكامل

إن الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة، وهي المسماة بمكارم الأخلاق وطيب الشمائل فجميعها كانت خلق المصطفى عليه السلام، على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها، حتى أثنى عليه رب العالمين الذي اصطفاه وطهره وفضله على سائر العباد ولإرده بقوله عنه (وإنك لعلى خلق عظيم). إنها شهادة من الخالق البارئ المصوِّر الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق محمدًا في أحسن أحسن تقويم وجعل منه الإنسان الكامل الذي جمع كل صفات الكمال وكل تمام الخِلال.

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: "كان خلقه القرآن يرضي برضاه ويسخط بسطه". لقد تميز محمد صلى الله عليه وسلم الخلق الرفيع واتصف بالكمال، فكان أحسن الناس خلّقًا وأكملهم مزايا وأجمعهم صفات. ولقد بعثه الله تعالى ليكون المثل الأعلى والقدوة الخالصة لمعياره وليتم وتنميها مكارم الأخلاق. لقد كان عليه اصللاة والسلام ذلك التأدب الرباني السامي والعالي كما كانت لإخوانه السابقين من الأنبياء؛ جِبلةً خلقوا عليها تغذيها وتنميها نفحات الله النورانية وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا، باصطفاء الله لهم، درجة النبوة التي هي أسمى درجة يصل إليها إنسان.

ومن الآداب التي أدب بها رب العالمين نبيه محمد، الإنسان الكامل، صلى الله عليه وسلم: الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على ما يكره مع شدة الإيمان ومتانة الاعتقاد.

وقد تضافرت وتواترت على إتصافه صلى الله عليه وسلم بنهاذية هذه الأوصاف، وما خُير

محمد صلى الله عليه وسلم في أمريْن قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وما انتقم لنفسه في أمر تُنتهَك فيه حرمة الله فينتقم لله لا لنفسه. كان محمد دائم الحب للخير صلى الله عليه وسلم حتى لأعدائه، وكان دائم الصفح والتسامح مع أعدائه، دائم الدعاء لهم بالخير والهداية حتى لأولئك الذين آذوه منهم، ودائم القول في دعائه لهم: "اللهم أهدِ قومي فإنهم لا يعلمون". لقد عفا عن قومه يوم فتح مكة، أولئك القوم الذين آذوه وطردوه وفعلوا معه ما فعلوا، وقد توقعوا العفو منه لما عرفوه عنه مِن حبه للعفو، وصدقوا بما توقعوه حين سألهم: "ما لنكم أني فاعل بكم"، فقالوا في صوت واحد: "أخ كريم وابن أخٍ كريم"، فقال لهم: "لا تثريب عليكم اليوم أذهبوا فأنتم الطلقاء" لقد كان في إمكانه أن ينتقم منهم وأن يجازيهم بمثل ما فعلوا معه، لكن الروح السمحة والقلب الكبير لم يعرف الحقد ولا الغل ولا الكراهية وإنما إتسع حبه ليشمل الجميع، العدو والحبيب. لقد روى الرواة عن محمد صلى الله عليه وسلم، الإنسان الكامل، أنه ما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا ولا امرأةً ولا جارية ولا حتى دابة. كان يعامل خدمه على أنهم سادة، فلقد أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة وأحسن لإبنه أسامة بن زيد، ولقد أعتق زيدًا ورفع من منزلته إلى منزلة الأسياد بتزويجه من إبنة عمته الشريفة (زينب بنت جحش). وولى أسامة بن زيد قيادة جيش الشام، وهو دون العشرين، وجعله أميرًا على أكابر الصحابة المشاركين في الحملة على الشام ضد الروم. وحدَّث عنه خادمه (أنس بن مالك) بأنه لم يسئ إليه قط ولا بكلمة واحدة أثناء خدمته له طيلة حياته.

وكانت رحمته صلى الله عليه وسلم بعبيد غيره كرحمته بعبيده، فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها ويلبي دعوتهم إذا دعوه إلى طعام ويوصي بهم أسيادهم خيرًا، قائلًا: "هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تتكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم واتقوا الله في الضعيفيْن النساء والرقيق".

وكان محمد صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان كذلك أشجع الشجعان، حضر المواقف الصعبة ونازل نزال الأبطال وتحدى قريشًا وهو لا يملك من قوة إلا إيمانه بربه وصدق دعوته. كان شريفًا في قتاله ولم يكن غدارًا ولا خوان، وكان في قتاله أقرب الناس للعدو لا خواف ولا هياب رغم علمه باستهداف العدو له. ظهر بأسه يوم أحُد، ويوم الخندق، ويوم حُنين، وواجه الموت بثبات، وقاد الجيوش ووضع الخطط وأحرز أروع الانتصارات. كان عليه الصلاة والسلام في طليعة رجاله حين يحتدم وطيس القتال، وكان إذا حمى البأس، كان المقاتلون من رجاله يتقون به، فما يكون أحَدَ أقرب إلى العدو منه. لقد شارك عليه الصلاة والسلام في جميع الغزوات وقادها بنفسه ووضع خطط القتال فيها فأظهر في ذلك براعة لم تعُرف عن أشهر القادة العكسريين طوال التاريخ.

لقد جمع محمد صلى الله عليه وسلم الصفات الطيبة كلها لتجعل منه الإنسان الكامل الذي لا تنقصه خلة ولا تقلل من شأنه نقيصة، فهو رجل لا يشاركه رجل آخر في صفاته ومقوماته ولا يدانيه غيره في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية التي كان العالم بأسره في انتظارها. فهو نبيل عريق النسب، فقير وليس بالغني المترف الذي يطغيه بأس النبلاء والأغنياء، يتيم بين رحماء، حبيرٌ بكل ضروب العيش في البادية والحاضرة، على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه، أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زكان كان ينتظر رسالته وبعثه. ذلك محمد صلى الله عليه وسلم، فلقد أعدته فطرته وصُنع الله له للرسالة العالمية أكمل الأعداد.

كان محمد صلى الله عليه وسلم مستكملًا للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ، كانت له فصاحة اللسان وبيان اللغة، وكانت له القدرة على جمع الثقة وتأليف القلوب، وكانت له قوة الإيمان بالله وبدعوته وغيرته البالغة على نجاح هذه الدعوة.

نجح محمد صلى الله عليه وسلم في دعواه لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها نبي ورسول داعٍ صُنع على عين ربه وشُمل برعايته وعنايته. فلا حاجة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخوارق ولا المعجزات التي ينكرها العقل أو العِلل التي يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي دعوة واضحة كالشمس لكل من عين يبصر بها، وهي أقومُ سبيلٍ لمن استقام وهداه الله إليها.

كان محمد صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إضضاءً، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق. وكان أوسع الناس صدرًا وأصدقهم قولًا وألينهم عريكة وأكرمهم عشرةً. وكان أشد الناس تواضعًا، رغم ما أوتى مِن جلال القدر وعِظم المكانة والشرف، رقيق القلب، مرهف الحس. ولقد رُوي أنه أتى إليه رجل فارتعد مهابةً منه، فقال له: "هوِّن عليك يا أخا العرب، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد". وكان دائم القول: "إنما أنا عبدٌ أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد". وكان يقول للناس: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله". ولمَّا دخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة فاتحًا دخلها على ناقته (القصواء) مطأطئًا لرأسه حتى كادت تمس قادمته تواضعًا وشكرًا لله تعالى.

كان عليه الصلاة والسلام دائم التفقد لأصحابه، دائم السؤال عنهم إذا ما غاب عنه أحدٌ منهم، وكان يفرح لفرحهم ويأسى لحزنهم. وكان يعطي كل جلسائه نصيبه حتى أنَّ جليسه ليحسب أنَّ لا أحد أكرم عليه منه. مَنْ جالسه أو قاربه لحاجةٍ اصطبر عليه حتى يكون هو المنصرف عنه، ومَنْ سأله حاجةً لم يرده إلا بها أو بميسورٍ من القول. وقد وَسِع الناسَ بسطهُ وخلقهُ حتى صار أبًا لهم وصاروا هم أبناءه. كان عليه الصلاة والسلام دائم البشر، هاشًا باشًا، سهل الخلُق، ليسن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ وقد نفى الله عنه ذلك بقوله: (ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا مِن حولك).

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يجيب مَنْ دعاه، ويقبل الهدية ممن هاداه، وكان يمازح أصحابه بغير خروج، ويلاعب صبيانهم ويحنو عليهم، ويجيب دعوة من دعاه، ويعود المريض، ويحسن للجار، ويقبل عُذر المعتذر وأسف المسيء. وكان يبدأ مَنْ لقيه بالسلام. ويبدأ بالمصافحة، وما أخذ أَحُدٌ بيده فيَرسلُ يده حتى يرسل الآخَر. وكان يكرم مَنْ يدخل عليه ويفسح له مكانًا إلأى جواره إذا أراد ذلك. يحترم الكبير والصغير، ويُكني أصحابه ويدعوهم بأحب الأسماء إليهم تكرمةً لهم. يُعطى أذُنه لمن يُحدثِه ولا يُظهر الانصراف عنه أو الضجر منه ولا يقطع على أحد حديثه. كان عليه الصلاة والسلام زائد الحنان، يتألم لبكاء الصغير ولمعاناة الحيوان ويرق لضعف المُسِن والعاجز والمعوَّق.

كان محمد صلى الله عليه وسلم أوفَر الناس في مجلسه، وكان كثير الصمت، فصلٌ في الكلام، لا يقول إلا صدقًا ولا ينطق إلا حقًا. كان زاهدًا في الدنيا، متعلّلًا مِن متاعها، مفارقًا لنعيمها ورفاهيتها. كان دائم الخوف من الله والمراقبة لربه، وكان كثير التهجد بالليل ويصلي حتى تتورم قدماه، فلمَّا قيل له: "لِم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم بين ذنبك وما تأخر؟" فيقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم بحق الإنسان الكامل، والإنسان العظيم، العظيم في كل شيء وكل ميزان؛ عظيمٌ في ميزان الدين، وعظيمٌ في ميزان العلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم كبشرٍ وإنسان. وإنَّ ما قدمه محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية لكاف كل الكفاية لتخويله المكان الأسمى من التعظيم والدرجة العليا من الثناء والتكرِم إنه نقل الناس من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان، نقلهم من الشرك والوثنية إلى الحنيفية والوحدانية، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، ومن ظلام إلى نور، ومن ضلال إلى هدى، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية. لم يسبقه في ذلك أحد من أصحاب الدعوات ولم ولن يلحق به أحدٌ منهم، فهو آخر الرسل وخاتم النبيين.

سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه على الأقدام، وخصَف فعله بيده، ورقع ثوبه، وحلب شاته، وقدَم أهلهَ ونفسَه، وحمل الطوب اللبن في بناء مسجده، كان أحسن الناس معاملةً، وكان إذا استلف سلفًا قضى خيرًا منه ودعا لصاحبه. تقاضاه يومًا غريمٌ لهُ دينًا فأغلظ عليه في الطلب، فهمَّ به عمر بن الخطاب يريد أن يبطش به، فقال لعمر: مَهْ يا عمر اكت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء وأن تأمره بالصبر وحسن الطلب". وباعه يهودي بيْعًا إلى أجل فجاءه قبل الأجل يتقاضى ثمنه فقال له: "لم يحل الأجل"، فقال اليهودي: "إنكم لمُطلٌ يا بني عبد المطلب"، فهمَّ به اصحابه فنهاهم ولم يزده ذلك إلا حلمًا، فقال اليهودي: "كل شيء قد عرفته مِ، علامات النبوة وبقيت واحدة وهي أنه لا تزيده شدةُ الجهد عليه إلا حِلمًا فأردتُ أن أعرفها"، فأسلم اليهودي.

كان محمد صلى الله عليه وسلم محبًا لمن حوله مديرًا منهم بأحسن حب وولاء، فلم يعُرف في تاريخ العظمة، إنسان ظفر بنخبة من الصداقات كالتي ظفر بها محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعُرف عن إنسان أن أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به صاحب هذا القلب الكبير. لقد اختار زيد بن حارثة البقاء مع محمد صلى الله عليه وسلم موثرًا له عن أهله، وصادفه مولاه (ثوبان)، وتمنى أن يكون صديقًا له في الجنة، وصادقه بلال، وقد كان أشد الناس فرحًا حين أدركه الموت ليلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقول وهو على فراش الموت: "واطرباه غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه".

لقد توطدت صداقة بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد ومعاذ وأسامة وابن العامي وكانوا جميعهم على استعداد بافتداء رسول الله بنفسه ودمه. وليس أول على حب أصدقاء محمد لصديقهم صلى الله عليه وسلم ما قاله (زيد بن الدثِنة) حين قال له أبو سفيان، وهو قد نصُب للقتل: "أنشدك الله يا زيد أتحب أنَّ محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟" فأجابه زيد بقوله: "والله ما أُحب أنَّ محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه

وأنا جالس في أهلي"، فصاح أبو سفيان دهشًا: "ما رأيتُ من الناس أحدًا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدًا".

وكان محمد صلى الله عليه وسلم مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء، كان يفرح بابنته فاطمة ويهش لها حين تقدم عليه، وكان يلاعب أبناءها الحسن والحسين، وكان الحسن يركب على ظهره وهو ساجد في صلاته لا يُنزله عنه حتى ينزل من نفسه. قال لفاطمة، يوم جاءه ملك الموت يستأذنه في قبض روحه: "إني مفرق الدنيا"، فتبكى، ثم قال لها: "إنك لاحقةٌ بي" فتضحك، وفي الضحك والبكاء بين الأب وابنته أخلص الود والحب والحنان بين الآباء والأبناء. لقد فرح صلى الله عليه وسلم حين أنجب إبنه (إبراهيم) وحزن بفراقه يوم موته ودمعت عيناه وهو يودعه التراب، حزن حُزن الأب المحب لفلذة كبده كما يحزن كل الآباء. كان عليه الصلاة والسلام مثالًا للزوج المحب العطوف على زوجاته العادل في القسمة بينهن، فكان عليه الصلاة والسلام يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة، أمَّا المحبة فكان يقول عنها: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلُمني فيما لا أملك"، فقيل هو الجب والجماع. وكانت سيرتُه صلى الله عليه وسلم مع أزواجه حُسن المعاشرة وحُسن الخلُق، وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صحابته النوبة فخصها بالليل، وكان يقسم لثمانٍ منهن دون التاسعة، وكانت التاسعة سودة بنت زمعة، فإنها لمَّا كبرت وهبت نوبتها لعائشة. وكان إذا سافر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، ولم يقض للبواقي شيئًا. وكان إذا ما قدِم مِنْ سفر لم يطرق أهله ليلًا، وكان ينهي عن ذلك.

وكان محمد صلى الله عليه وسلم، مع زوجاته، ألين الناس، ضحاكًا بسَّامًا، ولم يجعل من هيبة النبوة سدًا رادعًا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقه وأنيابه أنهن يخاطبن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين؛ فكانت منهن مَنْ تقول له أمام أبيها: "تكلم ولا تقل إلا حقًا"،

ومَنْ تراجعه أو تغاضبه سَحابة نهارها. وكان عليه الصلاة والسلام يتولى خدمة البيت معهن وكان يقول: "خيركم خيركم لأهل بيته وأنا خيركم لأهل بيته، خدمتك زوجتك صدقة".

هذه هي شمائل محمد الإنسان الكامل، وما أعظمها مِنْ شمائل، وما أكملها مِن صفات تتجمع في شخص واحد وإنسان واحد هو نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكيف لا تتجمع مثل هذه الشمائل فيمن خلقه الله على عينه وأدبه فأحسن تأديبه واصطفاه لنفسه رسولًا وخليلًا دون سائر البشر أجمعين، وقَرن اسمه تعالى باسمه في شهادة الدخول في الدين الحنيف: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولقد تحدثت كتب السيرة وأفاضت في هذه الشمائل، كما تحدثت عن معجزات النبي المادية وبالغت فيها. وبرغم إيماننا بصدق هذه المعجزات وبالاعتراف بأنها أمر هيِّن بالنسبة لقدرة الله تعالى، إلا أننا لا نحب أن نضخم من أمر هذه المعجزات الحسية، لأنَّ معجزة الرسول الكبرى هي القرآن الكريم وحياة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ومسيرة تلك الحياة وتفرد شخصيته وعظمتها وطيب شمائله وصدقه في دعوته وإخلاصه في رسالته وشدة إيمانه في خالقه فتحت له القلوب المغلقة وألانت له الأفئدة المتحجرة وأحنت له رؤوس الجبابرة وحطمت أصنام الشرك والوثنية دون الحاجة لهذه المعجزات. وكانت المعجزات تقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتهدده الخطر وحين كانت حياته يتهددها الهلاك.

وهنالك في كتب السيرة أيضًا قضايا لا يحق التساهل فيها لخطورتها وردت في هذه الكتب سواءً عن قصد أو عن طيب نية أو دُسَّت عليها أو نقلت عن روايات ضعيفة لا يجب السكوت عليها لأنها فتحت بابًا نفذ منه أعداء الدين في الماضي والحاضر لينالوا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الطاهرة، وليتخذوا منها حُجبًا لكيدهم ودسهم لأباطيلهم ليضربوا بها الإسلام ونبي الإسلام عليه اصللاة والسلام في الصميم. وقد جاء رفضي لذهه القضايا بعد إطالة لنظر وتفحص كتب السُنة والنهل من كنوزها الثمينة من تراث النبوة، والهداية بالفطرة في تجنب الضعيف من الروايات وقبول الصحيح منها. فطرةٌ صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله

تعالى وكتب الصحاح من السنة، وتتبع المنهج التاريخي العلمي الصحيح وإعمال النقد في الروايات، والحب والغيرة على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن أنْ يُنسب إلى سيرته العطرة شيء قد يسيء فهمه المتشككون والمتربصون لدين الإسلام ولنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وما أكثرهم في هذا الرئاسة وفي كل الأزمان.

ومن هذه القضايا، قضية سِحْر النبي صلى الله عليه وسلم على يد يهودي، وأنَّ هذا السحر قد أعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدَّرها (ابن حجر العسقلاني) بستة شهور. ولقد روى هذه الرواية ابن إسحاق، وابن سعد في طبقاته الكبرى، عن حديث منسوب إلى السيدة عائشة رضوا الله عليها؛ وهي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سُحِر حتى كان يُخيل إليه أنه يضيع الشيء ولم يصنعه. ورُوى انَّ (ابن لهيعة) روى عن عمر مولى غفره:

"أنَّ لبيدًا بن الأعصم اليهودي سحَرَ النبي حتى التبس بصره وعاده أصحابُه وأُخُذ عن النساء والطعام والشراب، ثم غنَّ جبريل وميكائيل أخبراه بذلك، فأخذ النبي لبيدًا فاعترف فاستخرج السحر من جُب ثم نزعه فحلَّهُ، فكُشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُفى عنه، وأنَّ ذلك كان بعد الحديبية بتدبيرٍ من يهود المدينة مع لبيد بن ألأعصم الساحر اليهودي".

ووقع في رواية (عبد الله بن نمير) عن هشام بن عروة عن أبيه عن السيدة عائشة أنها قالت: سحر النبي صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق. ويف رواية ابن عُيينة: رجل من بني زريق حليف اليهود، وكان منافقًا. ويُجمع بينهما انَّ مَنْ أطلق أنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأمر، ومنْ أطلق عليه منافقًا نظر إلى ظاهر أمره، وقال (ابن الجوزي): "هذا يدل على أن كان أسلم نفاقًا وهو واضح". وقد حكى (القاضي عياض) في (الشفاء) أنه كان أسلم ويُحتمل أن قيل له يهودي لكونه من حلفائهم لا أنه كان على دينهم. وبنو زريق بطنٌ من الأنصار مشهور من الخزرج، وكان بين كثير من الأنصار وبين كثير من اليهود قبل الإسلام حلف وإخاء وود، فلَّما جاء الإسلام ودخل الأنصار في افسلام تبرعوا منهم.

وقد بيَّن (الواقدي) السَنة التي وقع فيها السحر، وأخرجه عنه (ابن سعد) بسندٍ له إلى عمر بن الحيكم، وهو مُرسَل. قال: "لمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي الحجة ودخل المحرم سنة سبع جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفًا في بني زريق وكان ساحرًا، فقالوا له: يا أبا الأعصم أنت اسحرنا وقد سحرنا محمد فلم نصنع شيئًا ونحن نجعل لك جعلًا على أن تسحره لنا سحرًا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير".

ووقع في رواية أبي ضمرة عن الإسماعيلي "فأقام مسحورًا أربعين ليلة". وفي رواية وهيب، عن هشام عند أحمد "ستة أشهر". ويمكن الجمع بين الرأيين أن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه والأربعين يومًا مِنْ استحكامه. وقال (السهيلي) في (الروض الأُنف): "لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي صلى الله عليه وسلم فيها في السِحر حتى ظفرتُ به في (جامع معمَّر) عن الزهري أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولًا بإسناد الصحيح فهو المعتمد.

وقولُه: "حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخيلُّ إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله"، قال المازري: "أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها. قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل. وزعموا أنَّ تجويز ذلك بعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع إذ يُحتمل على هذا أنْ يُخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحي إليه بشيء ولم يوحَ إليه بشيء. قال المازري: وهذا كله مردود لأنَّ الدليل قام على صدِق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل.

أكذلك تُنال القمم؛ مَنْ صدَّق هذه الرواية وقال أنَّ ذلك وقع برسول الله صلى الله عليه وسلم هو كمنْ صدَّق أنَّ سفيهًا يستطيع أن يقذف رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر أو أنْ يستطيع محرمٌ أنْ يصيبين بجرح. ويرد الشيخ العالم الكبير (محمد الغزالي) على من يتعلل بذلك القول بقوله: "وهذا اعتذار مرفوض، فإنَّ السحر تسلُطٌ على الإرادة واالفكر، وهذا

يستحيل بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيما والوسيلة فيه هي تسليط أرواح شرية أو بعض الجن على الجهاز العصبي للإنسان فيوقعه في اضطراب وحيرة، وهذا مرفوض مع نبي نزل عليه الكتاب وحفظه قول الله تعالى بقوله: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

وهنالك قضيته (الشاة المسمومة) الي أدُعِى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل منها وكانت سبب علة مرض موته صلى الله عليه وسلم. فقد روى (ابن سعد) أنَّ اليهود سمَّت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنَّ إمرأة يهودية من يهود خيبر، هي (زينب بنت الحارث)، امرأة سلَّام بن مشكم، أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاةً مسمومة مشوية، فأخذ منها قطعةً فلاكها في فمه ثم بصقها، فقال لأصحابه الذين كانوا يأكلون معه منها. "إمسكوا فإنَّ فخذها تعلمني أنها مسمومة". ثم أرسل إلى اليهودية فسألها بقوله: "ما حملكِ على ما صنعتِ؟" قالت: "أردت أنْ أعلم إنْ كنت صادقًا فإنَّ الله سيطلعك على ذلك وإن كنت كاذبًا أرحت الناس منك". وقد مات (بشر بن البراء) لأنه أكل من الشاة فأكثر، واحتجم رسول اله صلى الله عليه وسلم مِن أجل الذي أكل. وأضاف ابن سعد، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي قبُضِ فيه، جعل يقول في مرضه: "ما زلت أجِدُ من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر عِدادًا حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدًا".

هذا القول مردود لأنَّ الله تعالى حافظ نبيه، وأنه ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثق في أي يهودي يقدم طعاماً له، لعلمه بعداوتهم له، فما باله يُقدِم على طعام من إمرأة يعرف عنها عداوتها له وللمسلمين؟ ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الشخص الذي يُقدِم على الولائم ويسيل لعابه أمام أي نوع من أنواع اللحوم. كذلك إذا كانت الشاة أخبرته انَّ بها سُمًا، حسب هذه الرواية، فكان من الأولى أن تخبره قبل أن يأكل منها لا بعد أن يأكل ويتاثر بذلك السم الذي ادعوا أنه سبب وفاته صلى الله عليه وسلم. ومن المعلوم أنَّ مفعول السم يظهر أثره على المسمَّم سريعًا لا بعد ثلاث سنين. ولقد كان الوحي يخبر رسول الله صلى الله عليه

وسلم بكيْد اليهود له قبل وقوع ذلك الكيد مثلمًا حدث مع بني النضير حين رسموا أن يلقول عليه صخرةً من فوق منزل جلس تحته، فجاءه جبريل يخبره بكيد اليهود، فخرج راجعًا إلى المدينة وسط دهشة اليهود، فما الذي منع جبريل أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المرة بأمر هذا السم؟

وهناك قضية المغالاة في قوة الرسول الجنسية، وهذا ما أورده صاحب الطبقات، تحت عنوان: "باب ذكر ما أعُطي رسول الله صلى الله عليه وسلم من القوة على الجماع"، وهو يُنسب إلى حديث ترجع نسبته إلى أسامة بن زيد عن صفوان بن سليم أنه قال "أتاني جبريل بقدرٍ فأكلتُ منها فأُعطيت قوة أربعين رجلًا في الجماع". وقد قلَّل ابن إسحاق هذه القوة فجعلها قوة ثلاثين رجلًا لا أربعين.

كذلك هنالك قضية المغالاة في وته الجسدية والعضلية، في الرواية التي رواها ابن هشام عن ابن إسحاق، وكذلك رواها ابن سعدوابن قيم الجوزية مِن صرْع الرسول صلى الله عليه وسلم للبطل القرشي العملاق (ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف). قال ابن إسحاق: "كان ركانة أشد قريش فخلا برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شِعاب مكة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟" قال: إني لو أ'لم أنَّ الذي تقول حق لإتبعتك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفرأيت إنْ صرعتُك أتعلام انَّ ما أقول حقٌّ؟"، قال: نعم، حتى أصارعك، قال: فقام إليه ركانة يصارعه فلَّما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئًا. ثم قال: عُد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال: يا محمد والله إنَّ هذا للعجب أتصرعني؟ فقال رسول الله: "وأعجب من ذلك إنْ شئت أريكه إنْ إتقيت الله وإتبعت أمري" أُدعها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يديْ رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فقال لها: أرجعي إلى مكانك، قال فرجعت مكانها. قال: فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بني عبد مناف ساحِروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيتُ أسحر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأي والذي صنع".

هذه الروايات، وردت في كتب السيرة النبوية المعتمدة لتثبت قوة الرسول الجنسية وقوته الجسدية، وهي أقوال ليس مشكوك فيه لتبرز ما ميَّز الله تعالى بها رسوله، لكن في الحقيقة فإن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست بحاجة لإثبات مثل هذه الأمور؛ لنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يباهي بقوة جنسية ولا قوة جسدية، ولا هو أشاع بأنهي تميز على سائر البشر بشيء سوى باصطفائه بالنبوة ليكون لله نبيًا ورسولًا وداعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا. لم يصارح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بقوته الجسدية ولكنه صرعها بقوة إيمانه وشدة عزيمته وثقته بتأييد الله له ونصره، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا بحاجة للقوة الجنسية، لأنه كان رجلًا كسائر الرجال، ولم يكن متفرغًا لأمر الجنس، ولم يكن لديه الغرض في ذلك ولا القصد، كذلك لم يكن لديه الوقت، فهو رسول دعوة وقائد أمته ومعلم رسالته، ورب اسرة يقضي جلَّ يومه في الدعوة لله والنظر في أحوال أمته، ويقضي نصف ليله أو أكثر مِن نصفه في القيام حتتى تتورم قدماه، ويقضي معظم عامه صائمًا، فمن أين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالوقت حتى يستغل هذه القوة التي أوتيها كما تدعي هذه الروايات؛ ولو كان الأمر فعلًا كما يقولون لكان رسول الله في حاجة لأن يتزوج من أربعين زوجة أو ثلاثين على أقل تقدير لتصريف هذه الطاقة التي لا قِبل له لكبح جماحها، لا ليتزوج تسع زوجات، أربعة منهن فقط في سنٍ صغيرة. إنَّ المبالغة في قوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجسدية قد تكون جاءت على لسان قائليها عن حبٍ وعن إعجابٍ بهذا النبي العظيم والإنسان الكامل، لكن ما أغني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الأمور الدنيوية التي يتصق به مَنْ يبغون مُتع الحياة الدنيا، وما كان أبعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وما أشد زهده في الدنيا ولذائذها!.

وفي الوقت الذي يبالغ فيه هؤلاء بهذه الأمرو نراهم يبالغون أيضًا في تجويع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وقسوته على نفسه في أمر الزاد والطعام، فيقول صاحب الطبقات أنَّ "فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت يومًا بكسرة خبزٍ إلى والدها، فقال لها:

"ما هذه الكسرة يا فاطمة؟" فقالت: "قرص خبرزته، فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكِسرة". فقال: "إنه أولُ طعامٍ دخل فم أبيكِ منذ ثلاثة أيام. كذلك يذكر ابن سعد عن أبي هريرة رضي الله عنه "أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشد صلبه بالحَجر مِنْ شدة الجوع. وأنه كان يمر بَال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلالٌ ثم هلال لا يوقد في شيء مِنْ بيوته نار لا لخبز ولا بطبيخ. فقالوا: بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ قال: بالسوَديْن: التمر والماء". كذلك ذكر ابن سعد، أنَّ يوم تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تُوفي ودرعه مرهونة عند رجل مِن اليهود بوسقٍ (جوال) مِن شعير. هل هذا قول معقول، أوصل الأمر برئيس دولة الإسلام وقائد دولة المسلمين أن يتقوَّت مِن غلةِ عدوٍ يهودي؟

مبالغةٌ في القوة الجسدية والجنسية، يقابلها على النقيض، مبالغةٌ في الجوع والعَوز والمعاناة، وذلك ما لا يليق بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لو صدقت رواياتها وأسانيدها، فإنها مبالغة تسيء إلى السيرة العطرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواء كانت عن أغراضٍ أو عن حب، ما أغني صاحب السيرة المطهرة عنها.

وهنالك من الأمور الصغيرة التي وردت في كتب السيرة، من الأفضل لنا عنه الغيورون على سيرة الإنسان الكامل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حذفها من هذه الكتب وإغفالها، من هذه الأمور قول ابن سعد ومعه ابن القيمِّ أنه "كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مكحلة يكتحل عند النوم ثلاثًا في كل عين". وقول ابن القيمِّ أنَّ في سنن ابن ماجه وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كانت للنبي صلى الله عليه وسلم مكحلة يكتحل منها ثلاثًا في كل عين". وفي الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اكتحل يجعل في اليمني ثلاثًا، يبتدئ بها ويختم بها، وفي اليسر ثنتين". ولقد ثبت ضرر الكحل للعين، وأنه سبب من اسباب العَمى، فحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل شيئًا يضره ويضر أتباعه، وهو المثل والقدوة ونحن مأمورون بإتباع سنته من قول وعمل وسلوك، لقد كانت عينيْ رسول الله من أخلى العيون كحلها رباني، كما وصفته أم معبد.

كذلط قول ابن سعد عن صفته في مأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان سلعق أصابعه، قال عن كعب بن مرة، قال: "رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع، قال ابن هشام: بالإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث حين أراد أن يمسحها، وقبل أن يمسحها لعق الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام" بالله عليكم كيف جرؤ كاتب هذا القول على نسبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف لنا بلعق أصابعنا اليوم بعد أن اعتدنا الأمل بالملاعق والشوك والسكاكين إذا أردنا في ذلك إتباع سُنة نبينا؟

ومن القضايا التي أخذ بها بعض كتاب السيرة مثل ابن سعد وبعض المفسرين المسلمين مثل ابن حجر العسقلاني، حديث (الغرانيق)، وهو حديث يجب حذفه تمامًا من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنه لا يسيء للسيرة وحدها بل للدعوة الإسلامية عمومًا ولرسالة التوحيد التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وإخوته الأنبياء والرسل مِن قبله.

ويتلخص هذا الحديث، الذي يتصل بعودة المهاجرين الأولين من الحبشة وسبب هذه العودة، والذي يحلو لبعض المستشرقين المغرضين والكُتاب المضللين ربط تلك العودة به، في القصة الكاذبة التي أوردوها عن مصالحة وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش على أن يعترفوا بدينه مقابل أن يعترف بدوره بآلهتهم، وأن تتم المصالحة العربية، وهي تعني: الحَجر الأبيض، والغرانيق هي الحجارة البيضاء، والمقصود بها في القصة هنا: أصنام قريش وأوثانها.

ولقد وردت القصة في الجزء الثاني من كتاب (تاريخ الرسل والملوك) عمر بن جرير الطبري، وللحافظ ابُن كثير في تفسيره الكبير. وقد أورد ابن كثير هذه القصة وعلَق عليها في تفسيره للآيات الثانية والخمسين والثالث والرابعة والخمسين من سورة (الحج)، ابتداءً مِ، قوله تعالى: (وما أرسلنا مِن قبلكِ من رسولٍ ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإنَّ الظالمين لفي شقاق بعيد). ويقول ابن كثير: "قد ذكر كثير

من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان مِن رجوع كثير مِن المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنًا منهم أنَّ مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها مِن طرُقٍ كلها مُرسَلَه ولم أرها مِن وجهٍ صحيح والله أعلم". ولقد أراد ابن كثير أن يوَح هذه الروايات التي أوردت هذه القصة أنها روايات مرسَلَة، بمعني أنَّ إسنادها ينتهي إلى أحد التابعين لا إلى أحد الصحابة، وهي عنده بذلك روايات غير صحيحة.

وقد أورد ابن كثير عديدًا من الروايات التي روت هذه القصة واحدة منها تنتهي إلى التابعي (سعيد بن جبير)، الذي قال في روايته: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (النجم)، فلمَّا بلغ موضع: (أفرأيتم اللات والعُزى ومناة الثالثة الأخرى) فألقى الشيطان على لسانه قوله: (تلك الغرانيق العُلى وإنَّ شفاعتهن لتُرجي)، قالوا، أي المشركون: "ما ذكرَ آلهتنا بخير قبل اليوم "فسجد وسجدوا، فأنزل الله هذه الآية: (وما أرسلنا مِن قبلك مِن رسول ولا نبي إلا إذا تمنى. . .) إلا آخر ألاية. وتتماذي الرواية في إدعائها الكاذب فتقول: "أنَّ قريشًا أعلنت بذلك رضاها عن محمد، وأنَّ باعتراف محمد بشفاعة آلهة قريش قد زال وجه الخلاف بينهما، وأنَّ الأمر قد فشا بين الناس حتى بلغ أرض الحبشة، وبسببه عاد المهاجرون المسلمون الأولون منها إلى وطنهم مكة".

والقصة، كما هو واضحٌ مِن سردها، مختلقة من أساسها وليست بمعقولة ولا مقبولة لأنها تنقض الدعوة الإسلامية مِن أساسها وتجدد أمر الوثنية وعبادة الأصنام والشرك بالله، وهذا ما جاء الإسلام أساسًا لمحاربته والقضاء عليه، ولذلك لم يتردد ابن غسحاق حين سئل عن حقيقتها، قال أنها مِ، وَضع الزنادقة.

ولقد فنَد علماء المسلمين هذه الرواية وفضحوا كذبها الواضح، ما عدا عالمٌ واحدٌ هو الذي صَدقها وعلَّل صدقه لوقوعها بعلِل من بينها تعدد رواياتها، هذا العالم هو (ابن حجر العسقلاني)، وهو من علماء المسلمين الكبار ومؤرخيهم الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري. وقد رد علماء أجلاء على رأي ابن حجر، مستندين في ردهم على عصمة الرسل

في التبليغ عن رب العزة سبحانه وتعالى، باعتبارها أصلًا من أصول الإسلام. وهم في نقاشهم لتلك الروايات عن هذه الواقعة المزعومة يوضحون التناقض والتباين في نص الكلمات الدخيلة فيها وتفاصيلها الأخرى والتنبيه إلى أنَّ كل هذه الروايات روايات مرسَلَة، مما يدلل على بطلان هذه القصة من أساسها.

ولقد أبطل (القاضي عياض) حديث الغرانيق هذا من أربعة وجوه عقلية، بافضافة إلى ما بيَّنه من فساد أسانيده النقية، وهذه الوجوه هي، الوجه ألول منها هو عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الرذيلة ضمٍ، المستحيل أن يتمنى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه مدح آلهةٍ غير الله تعالى، أو أن يتسوَّر عليه الشيطان ويشبِّه عليه القرآن، أو أن يتعمد تغيير كلام الله تعالى، أو حتى السهو فيه اثناء نزول الوحي عليه. والوجه الثاني: أنَّ هذه العبارات الدخيلة على الآية الكريمة بعيدة الالتئام، متناقضة مع القول الذي جاء قبلها والذي جاء بعدها، وأنَّ بهذه العبارات الدخيلة اعوجاج وركاكة في الأسلوب وهو أمر غير مألوف في كلام الله المحكمَ الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه. والوجه الثالث: أنَّ هذه الرواية الضعيفة لو كانت قد صحت لوجدت فيها قريش واليهود فرصةً لا تعوُض لإقامة الحُجة على المسلمين، وكانت سببًا في فتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم وهو ما لم يحدث ولم يقل به أحد. ويواصل القاضي عياض تفنيده لهذه الدعوة الباطلة بقوله أنَّ الوجه الرابع هو أنَّ الله تعالى قد عصم نبيه أن يركن إلى المشركين شيئًا قليلًا، فكيف يركن لهم شيئًا كثيرًا؟!

وينتهي إسناد الروايتين اللتيْن رواهما الطبري في تاريخه، إحداهما إلى التابعي (محمد بن كعب بن سليم القرظي)، والثانية إلى نفس التابعي ويشترك فيها معه تابعي آخر هو (محمد بن قيس). والقرظي هذا يهودي الأصل من يهود بني قريظة، وكان قد نجي من القتل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل رجال بني قريظة، بعد غزوة الأحزاب، وكان صبيًا لم يبلغ الحُلُم، ولم يذهب القرظي إلى مكة قبل الهجرة، بل عاش حياته كلها في المدينة، ولم ير تلك الحادثة المزعومة.

ومما يؤكد كذب وتلفيق قصة الغرانيق هذه، هو أنَّ الناظر إلى سيرة النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم يتبين له مِن خلالها شخصية عظيمة قوية الإرادة ثابتة الإيمان لا تستسلم لهزيمة ولا تخضع لقوة إلا لقوة الله تعالى، ومهما كانت قوة خصومه، رأيناه وهو قوي يتحدى قريشاً بجبروتها بمفرده، ورأيناه يستهزئ بسادتها وهم يعرضون عليه المال والجاه والرئاسة والزعامة والمُلك عليهم. رأينا إيمانه لم يتزحزح قيْد أنمله في أحلك الظروف التي مرت به: وهو في الطائف حين رده أهلها مهاناً مكسور الخاطر مُصابًا، لم يشكو إلا لمولاه، ولم يكن خوفه إلا أن يكون ربه غير راضٍ عنه. رأيناه في أحُد، وهو بعد الهزيمة، جريح مهزوم، ولكنه يطلب من واحدٍ من رجاله أن يرد على أبي سفيان حين صاح قائلًا: "أعلُ هُبل"، بقوله "الله أعز وأجل". رأيناه يوم حنين، يقف متحديًا وهو يقول: "أنا النبي لا كذِب أنا ابن عبد المطلب". وإنَّ صاحب هذه الشخصية العظيمة وصاحب هذا الكمال الإنساني، وصاحب أسمى رسالة اصطفاه بها رب البرية من بين جميع خلقه وصاحب التأييد الإلهي والذي أراه الله تعالى ما رأى من آياته الكبرى، لا يعقل أن يتزحزح شبرًا واحدًا عن دعوته ورسالته التي كُلِف بها تحت أي ضغط من الضغوط أو تحت أي إغراء، وعن حجر الزاوية الذي ارتكزت عليه رسالته، وهو مبدأ التوحيد.

إنَّ الشيطان لا يمكن له أن يخترق وجدان النبي ولا قلبه أو فكره حتى يُلقي في حديث النبي لأنَّ عناية الله حافظة له والشيطان لا يستطيع الاقتراب منه، ولو اقترب لاحترق بنروه صلى الله عليه وسلم. والنبي لا ينطق عن الهوى (وما ينطقِ عن الهوى إنْ هو إلا وحي يوحي). فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم مِن قِبلِ الله تعالى في مراحل الوحي المختلفة: مرحلة الاستلام، ومرحلة الاحتفاظ بما يوحى به إليه، ومرحلة تبليغه. ورواية الغرانيق تخالف القرآن الكريم وتهدم الإسلام من أساسه وتلغي سبب وجوده، وهو بذلك تجعله هذه الرواية لوناً من ألوان العبادات الوثنية. ولا يُعقل على الإطلاق أن يتحمل محمد صلى الله عليه وسلم ما تحمَل

مِن أذى وتحقير وتسفيه واستخفاف مِن قومه، فيقوم بعد ذلك، متناسيًا كل وقع له منهم، بإرضائهم بعقد زواج بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرِك والوثنية.

وإنَّ تفير آية: (وما أرسلنا مِن قبلكِ من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته)، فالمقصود بها هنا هو أمنية الرسول صلى الله عليه وسلم وليس حديثه، كما ذهب إليه البعض، وليست كذلك قراءته وفعله، كما ذهب البعض الآخر، إنما أمنية الرسول هي أمله في إسلام قومه الذين ينتمي إليهم، وتمنيه أن يؤمنوا أو يصدقوا دعوته حتى ينالوا الخير في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة، وهو يعلم أنه على الحق وانَّ قومه على الباطل، ولكن الشيطان يحول دون تحقيق هذه الأمنية بزخرفى الشرِك والوثنية والباطل لقومه وإبعادهم عن هديْ نبي الله وزيادتهم عمى وصلف وغباء. وقد كانت هذه أمنية كل الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم، كما كانت يه أمنية محمد العزيزة صلى الله عليه وسلم. لكن قوم كل نبي كانوا يقاومونه ويعارضونه ويصدون عن سبيله بحجة المحافظة على تراث الآباء والأجداد. ولكن الله يطارد الباطل وينسخ ما يلقيه الشيطان مِن أماني ويقوم بتعريته في محكم آياته.

وقصة الغرانيق وضعها حلف الشيطان القديم ليستغلها حلف الشيطان الحديث للصد عن سبيل الله والتشكيك في دعوة رسالة التوحيد التي جاء أن نسرد رواية الكاتب المرتد (سلمان رشدى) صاحب كتاب (آيات شيطانية) لهذه القصة وخوضه فيها بطريثة روائية فجة. وقد جعل عديم الرشد هذا أحداث هذه القصة تدور في مكة المكرمة التي اختار إسمًا تنكريًا فسماها:

(جاهلية)، وهو يصور في هذه القصة النبي صلى الله عليه وسلم في حوار مع (أبو سفيان)، زعيم قريشن وهو يساومه في تخفيف هجومه على أصنامهم وأوثانهم، مقابل أن تخفف قريش من اضطهادها وإيذائها له ولأتباعه، فيعده محمد صلى الله عليه وسلم أن يفكر في الأمر بعرض الصفقة على صحابته والأخذ برأيهم فيما ينتهون إليه. وتواصل الرواية البذيئة القول بأنَّ الصحابة حذروا النبي صلى الله عليه وسلم مِن الوقوع في هذا الفخ الذي ينصبه له أبو سفيان، لكن النب يلم يقتنع برأيهم وصعد إلى (الغار) ثم ينزل منه بعد فترة ليقول لهم بأن

بجريل قد أوحى إليه بآيات جديدة قرأها عليهم، على جمع يضمهم ويضم عبدة الأصنام معًا: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وأنَّ شفاعتهم لترجى وأنها لمع الغرانيق العلا) فسجد وسجد أتباعه وسجد عبدة الأصنام معه حين سمعوه يمتدح آلهتهم. ويواصل الشيطان صاحب الايات الشيطانية روايته بقوله: "أنَّ النبي، بعد فترة، وبسبب احتجاج صحابته عليه، أدرك أنَّ أبا سفيان قد خدعه، فيذهب ثانيةً إلى الغار، ويغيب هناك لفترة ثم يعود ليقول لصحابته أن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات التي تمتدح أصنام قريش وإحلال عبارات أخرى مكانها، وهي الآيات المعروفة من سورم النجم".

ثم يُنهي المؤلف المرتد القصة بخروج النبي من مكة عائدًا إلى يثرب. ويترك هذا الكاتب الأبله قارئ هذه الملهاة بين احتمالات ثلاثة لا يمكن أن يخرج مقصوده السوداوي عنها: ألول، وهو إما أن جبريل عليه السلام قد تلبَس فص ورة شيطان فأملى تلك العبارات على النبي ثم عاد إلى صورته الأصلية فطلب منه أن يحذفها.

والاحتمال الثاني، انَّ جبريل عليه السلام قد خالف ما أمره الله به وتلاعب بالوحي الذي يحمله والذي أُمِر أن يبلغ النبي به. والثالث، انَّ النبي لم يوحي إليه بشيء وأنه ألَّف الكلام مِن عنده حين ضعفت نفسه ومقاومته أمام اضطهاد المشركين له ولجماعته فاستسلم ورفع الراية البيضاء ومدح آلهتهم، ثم رجع عن موقفه هذا لمَّا بيَّن له صحابته الخطأ الذي وقع فيه فعاد يذم آلهتهم. وكل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة تدفع مؤلفها ومن يصدقها إلى الكفر الصريح وتقطع بارتداده عن الإسلام إنْ كان قبل ذلك مسلمًا أصلًا.

ولقد تصدى كتاب الله لهذه المحاولات الهدامة قديمًا وحديثًا، وقضى عليها، وأفحم وألجم أصحابها وألزمهم الحجة البالغة فأنهارت بذلك حصون الشِرك في القِدم، وهي تنهار في كل وقت، وسيستمر انهيارها إلى الأبد وحتى قيام الساعة وسيبقي نور الله تعالى وقادًا وهاجًا، ذلك النور الذين يريدون أن يطفئوه بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

ومن القضايا التي يجب أن تَرفع من سيرة رسول الله تلك الرواية التي تقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب لأمته كتابًا في مرضه الذي مات فيه يضع فيه بعض التعاليم والوصايا، لكن المجتمعين حول فراشه لغطوا واختلفوا فاغتم رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن ذلك وامتنع عن كتابه هذا الكتاب.

يقول ابن سعد: "لمَّا حضرت رسول الله الوفاة وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلمَّ أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده" فقال عمر: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله" فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: "قربوا يكتب لكم رسول الله" ومنهم يقول ما قال عمر؛ فلمَّا كثُر اللغط والاختلاف وغموا رسول الله فقال: "قوموا عني"، فكان ابن عباس يقول: "الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "قوموا عني"، فكان ابن عباس يقول: "الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب مع اختلافهم ولَغطهم". تلك الرواية رواية غير واقعية؛ لأنه من غير المعقول أن ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم لآخر لحظات حياته ويتذكر وقتها، وهو يستعد للقاء ربه، انْ يكتب لأمته كتابًا بعد هذا العمر الطويل الذي عاشه معهم، وبعد أن اكتمل نزول الوحي عليه وتمام الدين وذلك في قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا).

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم حياة طويلة بعد البعثة قوامها ثلاث وعشرون عامًا يهدي الناس ويرشدهم ويتلقى الوحي ويبلغه لهم ويطبق تشريع الله تعالى ويسوس الدولة بعد أن أقامها في المدينة وينظم أمورها ويضع أساساتها. وإذا فرضنا بأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يوصي بشيء قبل وفاته لأهله أو لغير أهله، وقد تذكر هذا الشيء في هذه اللحظات الأخيرة التي كان يعاني فيها من سكرات الموت ويدعو ربه اثناءها بقوله: "اللهم أعني على سكرات الموت"، فإنه ليس لأحد أن يجرؤ على مخالفته في ذلك وعدم تلبية آخر

رغباته في الحياة لا عُمر ولا غير عمر. وحاشا لله أن نقول أنَّ رسول الله أو يُنسب لعمر القول بأنَّ رسول الله قد غاب عن وعيه، بل إنه عليه الصلاة والسلام ظل في كامل وعيه حتى خرجت روحه الطاهرة إلى بارئها وهو يقول: "إلى الرفيق الأعلى" صلى الله عليه وسلم.

وآخر هذه القضايا التي يجب أن نناقشها في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ونضع حدًا للغو اللاغيين فيها، وهي قضية تعدد زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي طالما اعتاد المستشرقون الحديث عنها واللمز فيها. وقد سبق أن أوضحنا أنَّ حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ليست كحياة أي شخص عادي، وأنَّ تربية هي تربية إلهية وأنَّ نمط حياته جاء مِن صُنْعُ الله تعالى وخصوصيةً له عليه الصلاة والسلام، فقد اختصه الله تعالى بأشياء لم يخصها لغيره من البشر، ومن هذه الخواص تعدد زوجاته. وهو عليه الصلاة والسلام لم يختر زوجاته لنفسه، ولكن الله تعالى اختارهن له بتكليف منه سبحانه وتعالى لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى. وهذه الزيجات لم تتم رسول الله في شبابه وقبل البعثة وإنما تمت في العشر الأواخر من حياته بعد الهجرة إلى المدينة، وقد تجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم سن الكهولة.

لقد عاش محمد صلى الله عليه وسلم في مجتمع تعددت فيه الزوجات في الجاهلية والإسلام، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يشذ عن هذا المجتمع، وإذا كان غير محمد قد تعددت زوجاته لأسباب ترفيهية أو للذائذ جنسية، فإنَّ الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم جد مختلف، فهي جاءت لتنفيذ أوامر ربانية إما لوضع تشريع، أو لزيادة رابطة أواصر، أو لإعالة أرملة فقدت عائلته في سبيل الله، أو لرعاية أسرة فقدت راعيها وتعرضت للضياع، وإما نصيبًا مِن فيءْ أو غنيمة. ولنستعرض زيجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتبين ذلك الأمر مِن خلال ملابسات تلك الزيجات.

فقد كانت أولاهن السيدة خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، تزوجها عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وقد اختلفت الآراء حول عمر السيدة خديجة عندنا تزوجها رسول الله صلى الله عليه

وسلم فيرى بعض المؤرخين أنها كانت في الأربعين مِن عمرها ومحجتهم في ذلك أنَّ السيدة خديجة. تزوجت قبل رسول الله مرتين، فلمَّا مات زوجها الثاني مرت عليها فترة كانت ترفض فيها الزواج ممن تقدم لها، وواضح من ذلك أنَّ الذين قالوا بهذا الرأي لم يقدموا دليلًا حاسمًا لقبوله. أما الرأي الذي نراه فهو أنَّ السيدة خديجة كانت في حوالي الثامنة والعشرين من عمرها أو دون ذلك ونعتمد في هذا الرأي على عدة عوامل، وهي أولًا: لو كانت السيدة خديجة في سن الأربعين كما سمحت لها مكانتها وشرفها أن تعرض نفسها للزواج وبخاصة من شاب لم يتزوج مِن قبل ويصغرها بحوالي خمسة عشر عامًا، أي من الممكن أن يكون في عمر ابنها.

ثانيًا: لو كانت في سن الأربعين لمَّا استطاعت أن تنجب أربع بنات وولديْن ذكرانًا للرسول صلى الله عليه وسلم، فالمرأة في مثل هذه السن قد لا تنجب، أو تنجب على الأكثر طفلًا أو طفلين ثم تتوقف عن الإنجاب. وقد أنجبت السيدة خديجة ابنها (الطاهر) لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام، على حسب رواية ابن هشام، أي بعد أكثر من خمس عشرة سنة على الأقل من زواجها منه، ومعنى هذا لو سلَّمنا بأنها تزوجت الرسول في سن الأربعين، أنها أنجبت الطاهر وهي في السادسة والخمسينة أو السابعة والخمسين، وواضح جدًا أنَّ المرأة لا تنجب في مثل هذه السن إلا نادرًا؛ لنَّ سن اليأس عند المرأة يبدأ قبل ذلك مهما كانت تعيش في عز ورخاء.

ثالثًا: وليس زواجُها مرتين ورفضها الخُطاب بعد ذلك دليلًا على وصولها سن الأربعين، فالفتيات في الجزيرة العربية يتزوجن في سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وقد تزوجت السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب من (خنيس بن حذافة)، ولمَّأ مات زوجها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمرها عند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ثمانية عشر عامًا، وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم عائشة وهي في سن الثانية عشرة. ولو فرضنا أنَّ السيدة خديجة تزوجت زوجها الأول وهي في الخامسة عشرة من عمرها وبقيت

معه ثلاث سنوات ومات عنها وهي في الثانية عشرة. ثم تزوجت بعد عام من زوجها الثاني وبقيت معه ثلاث سنوات أيضًا فإنها تصبح في الثانية والعشرين من عمرها عندما مات عنها زوجها الثاني. وعلى هذا فالتقرير الذي نراه صحيحًا هو أنَّ السيدة خديجة كانت لا تزيد سنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوجت منه عن عامين أو ثلاثة، وقد قال بهذا الرأي عباس العقاد استنادًا على رأي ابن كثير في كتابه السيرة النبوية.

وكان السيدة خديجة أم أبناء النبي صلى الله عليه وسلم عميقًا إلا إبراهيم، وهي التي آذرته على النبوة وجاهدت وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله تعالى إليها السلام مع جبريل عليه السلام، وهذه خاصة لا تُعرف لإمرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ولم يتزوج عليها صلى الله عليه وسلم حتى ماتت.

وكانت (سودة بنت زمعة العامرية القرشية)، أول زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة بشهر بعد أن تُوفى عنها زوجها (السكران بن عمر بن عبد شمس) بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة وأهلها على الكفر، وكانت تبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، ولم تكن جميلة ولا ذات ثراء. وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم، كما يدعي أعداؤه، أنه يتزوج لإشباع جنس، لمَّا تزوج من هذه المرأة العجوز الفقيرة وكانت أمامه الفرصة ليتزوج من فتاة صغيرة شريفة، وما كان أكثرهن آنذاك. تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من سودة بعد أن صارت أرملة لا عائل لها ولا تستطيع العيش مع أهلها المشركين خشية أن يفتنوها في دينها. فكان لابد لها مِن عائل، ولم يكن هنالك أرحم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعُتبر أبً لكل المسلمين. وقد عاشت سودة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس سنوات وتوفيت ودفنت بالبقيع في آخر عهد خلافة عمر بن الخطاب. وكانت سودة قد وهبت ليلتها للسيدة عائشة حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطلقها وأن يمتعها. وكان زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من سودة، ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم ذريةً ضعافًا يخافون عليهم، وسيجدون رجالًا يرعون أسرهم

وقد ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بنفسه، وما أروعه مِن مَثل وما أعظمها مِن قدوة صالحة.

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (السيدة عائشة) إبنة صديقه أبو بكر، ليزيد من روابط الصداقة والمحبة بينهما برابطة المصاهرة. وقد كان أبو بكر أحب الناس إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلِمَ لا يزيد هذا الحب قوة بمصاهرته مِن أحب البنات إلى قلبه ابنته الصغرى عائشة، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة مباشرةً، وكان قد خطبها من أبيها قبل الهجرة في مكة، وكانت وقتها قد تجاوزت العاشرة من العمر، وكانت قد خطبُت قبله لجبير بن المطعم بن عدي، وهذا دليل على أنها كانت مؤهلَة في نظر خُطابِها للزواج. وحين تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد من غزوة بدر كانت قد جاوزت الثانية عشرة من عمرها، ولم تكن في العاشرة كما يدعي بعض المغرضين. وقد توفيت السيدة عائشة ودفنت بالبقيع في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٨ للهجرة، وعاشت أرملة بعد وفاة سيد الخلق سبعًا وأربعين عامًا، ولم تنجب السيدة عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كانت السيدة عائشة أحب زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة.

أما (حفصة بنت عمر بن الخطاب)، فقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفس غرض زواجه من السيدة عائشة رضوان الله عليهما، فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يقوي صداقته لعمر بالمصاهرة. ولم تكن مكانة عمر في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقل مِن مكانة أبي بكر، فقد كان الإنسان له خير الصاحبيْن. ولم تكن حفصة ذات جمال، وكان أبوها قد عرض تزويجها على كلٍ من أبي بكر وعثمان، برغم أنهما كانا في السن أكبر من عمر، ليتزوج أحد منهما منها، فأظهر عدم القبول، فشَّرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزواج منها وأعلى قدرها في أن تتزوج ممن هو خير منهما. ولقد توفيت حفصة سنة ٤٥

للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولم تنجب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر (أبو داود) أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طلقَّ حفصة تطليقة، ثم راجعها.

وزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (زينب بنت خزيمة بن الحارث) القيسية من بني هلال بن عامر، فكان شفقةً بها بغد استشهاد زوجها (عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب)، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر، وهو شاب حديث الزواج منها. لذلك كان استشهاده صدمةً قاسية عليها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفكف دمعها ويجبر خاطرها فتزوجها، وضمها إليه وبني لها حجرة بجوار حجرتيْ زوجتيه سودة وعائشة. وكانت زينب بنت خزيمة تلُقب (بأم المساكين) لرحمتها الواسعة بالمساكين وحرصها على الصدقة عليهم. ولم يطل عمر زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب فقد ماتت بعد ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهرين، وهي في مقتبل العمر.

وزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (أم سلَمة)، هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية، وهي آخر زوجاته لِحاقًا به صلى الله عليه وسلم، فكان لرعاية هذه الزوجة الكثيرة العيال والتي مات عنها زوجها (أبو سلمة)، عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة المخزومي القرشي، وهو ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم (بَّره بنت عبد المطلب)، وهو كذلك أخو الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، أرضعتها (ثوبية) جارية أبي لهب. مات عنها زوجها أثر ضربة أصابته في حرب (بني أسد]، وتركها مع عيال كثيرة دون أن يكون لهم عائل، فكان عائلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كانت أم سلمة قد تجاوزت سن الخمسين حين تزوج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد توفيت سنة ٦١ للهجرة، عقب استشهاد الإمام الحسين بن علي في كربلاء.

أمَّا زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (زينب بنت جحش بن رئاب)، وهي ابنة عمته (أميمة بنت عبد المطلب)، فقد كان تنفيذًا لأمر سماوي لتطبيق تشريع إلهي نزلت به الآية رقم ٣٧ من سورة (الأحزاب) التي يقول الله تعالى فيها: (وإذا تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ

عليه أَمسِك عليك زوجَك واتقِ الله وتُخفى في نفسك ما اللهُ مُبديه وتخشي الناسَ واللهُ أحقُ أنْ تخشاه فلمَّا قضى زيدٌ منها وطَرًا زوجناكها لكي لا يكونَ على المؤمنين جرحٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوْا منُهنَّ وطرًا وكان أمُر الله مفعولًا).

وقد تربت زينب، وهي طفلة صغيرة بعيْن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنايته، وكانت له بمقام الإبنة أو الأخت الصغرى التي عرفها جيدًا وشهد نموها وهي طفلة، ثم وهي صبية، وهو الذي زوجها من مولاه (زيد بن حارثة) ليرفع مِ، قدرِه. وقد تحدث المستشرقون الحاقدون كثيرًا عن هذه الزيجة بالذات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونسجوا حولها الروايات وحلَق بهم خيالهم المريض إلى أحكام مريضة قصدوا بها الطعن في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشويه سيرته العطرة واتهامه بوقوعه في غرام إبنة عمته، حين تكشف له جمالها، وعمله على تطليقها من مولاه زيد. وقد صوَّر بعض هؤلاء المستشرقين المرضي لخطة وقوع النبي صلى الله عليه وسلم في غرام زينب وأسفه لعدم الزواج منها قبل أن يزوجها لإبنه بالتبني زيد، وصفوها "وقد دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمتها في للية صيفية، وقد هبت نسمة أزاحت ثوبها عن جسدها فبدت له نصف عارية أو تكاد وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسدها الناطق بما يكُنه مِ، كل معاني الهوى". وذكر آخرون أنه: "حين فُتح باب زينب، وهي في بيت زيد، لعب الهواء بأستار غرفتها، وكانت ممددة في فراشها في ثياب نومها، فعصف منظرها، وهي شبه عارية، بقلب ذلك الرجل الشديد الولع بالنساء وبمفاتنهن، فكتن حبه لها في نفسه، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلًا فعمل على تطليقها مِن زيد والزواج منها".

وأمثال هذه الصور التي لا تصدر إلا عن مراهقة فكرية جاء بها أصحاب النفوس الضعيفة لينالوا بها من القمة التي اعتلاها محمد صلى الله عليه وسلم والأدب الرباني الذي تأدب به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء من أمثال: (موير)، و (درمنجم)، و (واشنطن)، و (أرفنج)، و (لامانس)، و (رودنسون)، وغيرهم من المستشرقين المغرضين الذين تصدوا في

كتاباتهم لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومما يدعو للسف أنَّ هؤلاء الكتَاب الذين عمى الله بصائرهم عن هديْ محمد صلى الله عليه وسلم وأغلق عقولهم عن الفهم الصحيح لسيرته صلى الله عليه وسلم وتربيته وأخلاقه وسلوكه، اعتمدوا في رواياتهم على ما فهموه خطأ مما ورد في كتب السيرة والحديث وعلى تفسيرهم الخاطئ لبعض آيات القرآن التي عرضت لهذا الموضوع. ثم أقاموا صورهم القبيحة من خيالهم المراهق المريض في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلته بالمرأة. وقد استولوا في ذلك بتعدد زيجاته التي بلغت تسعًا.

لقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إبنة عمته زينب من طفولتها، وعرف أنها تميزت بالجمال وأنها تزداد جمالًا مع الأيام، ذلك لأنَّ الحجاب لم يكن قد فرُض يومئذٍ. فإذا كان لمحمد صلى الله عليه وسلم رغبة في الزواج من زينب وهي قد ازدادت صب وجمال عند بلوغها سن العشرين أو بعدها، فما الذي جعله ينتظر حتى تبلغ الخامسة والثلاثين ويتزوج منها بعد تطليقها من زيد؟ وإذا كانت لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة من الزواج من إبنة عمته في أي وقت، قبل أن تتزوج من مولاه زيد، فإنَّ أهلها، الذين هم أهله، كانوا سيرحبون كل الترحيب بنيل هذا الشرف الرفيع بزواج إبنتهم من محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرفوا عنه كل الكمال في جميع سنيِّ حياته. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفكر في الزواج من زينب، وهو الذي خطبها لزيد الذي كان يعتبره إبنًا له. وكان (عبد الله بن جحش)، أخو زينب، قد اعترض على هذا الزواج الغير متكافئ في نظره لكوْن أخته قرشية هاشمية وأبنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزيد مولى، اشترته خديجة وأعتقه محمد صلى الله عليه وسلم. وقد رأى عبد الله أنَّ هذا الزواج سيكون عارًا يلاحق أخته ونسلها مدى الحياة. وقد كان عارًا عند العرب، في الجاهلية وفي الإسلام، أن تتزوج الحرة عبدًا أيًا كانت مكانته وثروته. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يقض على هذه العادة الجاهلية من نفوس العرب، وجعل الأخوة إخوة في الإسلام، وأراد أن يذيب الفوارق العنصرية

بين الطبقات وأن يسوِّي بين الناس أحمرهم واسودهم. وقد راي زواج زينب من زيد فرصة لتطبيق ذلك المبدأ.

ولقد امتثلت زينب وأخوها لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولإرادة الله في إتمام ذلك الزواج، رغمًا عن نفسيهما، وذلك حين نزلت الآية الكريمة تأمر بذلك في قوله تعالى: (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة مِن أمرهم. ومنْ يعصِى الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا).

وتزوج زيد من زينب، ودفع لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مهرها عنه، ولكن زينب لم تتقبل هذا الزواج، ولم تُعطِ زيدًا الفرصة لإقامة حياة زوجية هادئة هانئة، فصارت تضايقه كثيرًا وتمردت عيلاه، حتى أثارته، وشكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة يشكو فيها يقول له: (أمسك عليك زوجك واتقِ الله)، لكن زيدًا لم يتحمل استمرار حياته مع زينب على هذا الشكل، وهي كارهة له، ولم يتحمل تعاليها عيله فقام بتطليقها.

ولقد أراد الشارع الحكيم أن يُبطل ما كانت تدين به العرب مِنْ التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، ومِنْ إعطاء المتبنِّي جميع حقوق الإبن من الصلب في اليمراث وحرمة النسب، فنزل في ذلك قوله تعالى: (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهككم والله يقول الحق ويهدي السبيل). وأجاز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجًا لمن ادعاه، كما يجوز للمتبني أن يتزوج ممن كانت زوجًا لمتبنيه. وحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطبِق هذا الحكم الإلهي فكَر في أن يطبقه على نفسه مع زيد، ولكنه تردد خشية أقوال الناس، فنزل في ذلك قوله تعالى بعدم التردد في هذا الأمر: (وتُخفي ما في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه). ولذلك أقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزواج من زينب بعد أن طلقها زيد، ترضيةً لها واستجابةً لأمر الله تعالى حيث قال: (فلمَّأ قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين جرح في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان

أمرُ الله مفعولًا). ولم تنجب زينب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاشت بعده حتى توفيت سنة ٢٢ للهجرة، وكانت أول زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لحوقًا به.

وترتبط السيدة زينب بنت جحش قصة (المغافير)، وملخصها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف على زوجاته كل يوم يتفقد أحوالهن جميعًا، لكن زوجاته لاحظن عليه أنه يطيل البقاء عند زينب، فدبرت عائشة وحفصة أمرًا، فلمَّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة من عند زينب ودخل على عائشة قالت له: "ماذا أكلت أو شربت عند زينب؟ إني أشم في فمك ريحًا غير طيب". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سقتني زينب جرعة عسل" فقال له: "لقد رعا نحلُه المغافير"، والمغافير نبات لزج رائحته كريهة. ولمَّا دخل عند حفصة، قالت له نفس القول، فحرَّم على نفسه العسل. وقد كشف الله تعالى هذا التىمي في آيات من (سورة التحريم) بقوله تعالى: (يا أيها النبي لِم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم).

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (رملة بنت أبي سفيان) المعروفة بأم حبيبة، فهي إبنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مهاجرة في الحبشة، بعد أن فارقت زوجها)عبيد الله بن جحش) الذي أرتد عن افسلام، ومات على الكفر بالحبشة. ولمَّا عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قصتها، سرعان ما خطبها لنفسه ليحل مشكلتها، ثم ليزداد التقارب بينه وبين أبيها أبي سفيان زعيم مكة، وعسى أن يكرمه الله بالدخول في افسلام. قال تعالى في ذلك:)عسى اللهُ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم موَّدة). ولا شك أنَّ إقدام الرسول صلى الله عليه وسلم على حماية بنت أبي سفيان في غربتها كان له أثر على أبيها الذي بارك هذا الزواج حين سمع به وقال في شأنه: "محمد فحلٌ لا يُقدع أنفه"، أي عزيز عظيم يُعتمد عليه.

وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي يخطب منه أم حبيبة، وحمل الخطاب عمرو بن أمية الضمري، وجعله وكيلًا له في قبول هذا الزواج. وقد وافقت أم حبيبة أن تصبح

من أمهات المؤمنين وقد عوضها الله أسمى عوِض عن زوجها الذي مات على الكفر، ولقد توفيت أم حبيبة سنة ٤٤ للهجرة، في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان.

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار)، من بني المصطلق، وكانت من سبايا بني المصطلق من خزاعة، وكانت قد أُسرت في الحرب وافتداها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أعتقها وتزوجها، وأعتق الرسول أسراهم تكريمًا لهذا الزواج، وأسلمت قبيلتها جميعها بسبب هذا الزواج وهذه المصاهرة الكريمة، وكانت جويرية أكثر النساء بركة على أهلها، توفيت سنة ٥٦ للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

وعن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (صفية بنت حُيي بن أخطب) اليهودية، إبنة سيد بني النضير، وكانت من سبايا خيبر، واصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من غنائم يهود بني قريظة، وأعتقها، وتزوجها بعد أن أسلمت. وصارت صفية من أمهات المؤمنين، توفيت سنة ٥٠ للهجرة، ودفنت بالبقيع.

وعند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (ميمونة بنت الحارث بن جبير) الهلالية، وهي آخر من تزوج بها من زوجاته صلى الله عليه وسلم. وكانت ميمونة تُسمى قبل زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم (برة) فأسماها الرسول صلى الله عليه وسلم ميمونة. وأمها هند بنت عوف بنت زهير بن الحارث، وكانت أكرم النساء أصهارًا فبناتها تزوجن من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أبي بكرو ومن العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وأخيه جعفر. ويُقال أنَّ ميمونة، بعد فتح خيبر، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وأنها نزلت فيها الآية الكريمة: (وامرأة مؤمنة إنْ وهبت نفسها للنبي إنْ أراد النبي أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين). وقد توفيت ميمونة سنة ٦٠ للهجرة.

وأمَّا عن زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من (ماريا القبطية)، أم ولده إبراهيم، فكانت جارية أهداها له (المقوقس) حاكم مصر مِن قِبل ملك الروم، هي وأختها (سيرين) في العام

السابع للهجرة، فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلمت وتزوجها، وتزوجت سيرين من شاعره (حسان بن ثابت)، وتوفيت ماريا في العام السادس عشر للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كذلك قيل أنَّ من أزواجه (ريحانة بنت زيد النضرية)، وهي من سراريه وإمائه، وهي من سبيْ بني قريظة، أعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت، وتوفيت سنة ١٥ للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إمرأتين ولم يدخل بهما، وهما: (أسماء بنت النعمان الكندية)، لإصابة وجهها بمرض جلدي (بهاق)، و (عمرة بنت زيد الكلابية) التي استعاذت به مِن نفسه فأعاذها وفكَ خطبته لها.

وهكذا، بحسبة بسيطة، نجد انَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج من أربع زوجات حرائر فتيات صغار السن بعد وفاة زوجته خديجة، وهي: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث، وتزوج من ثلاث جواري لا يدخلن في عداد الحرائر، وهما: صفية اليهودية وماريا القبطية، وريحانة اليهودية. أمَّا الباقيان فكنَّ طاعنان في السن فاتهن قطار الزواج. ولا يُعاب على الرسل أمر تعدد الزوجات لنَّ هذا التعدد وقع لأمر لإلهي. ولقد عابوا على محمد صلى الله عليه وسلم أنه تزوج مِن تسع نساء ولم يعبوا على زواج النبي داود عليه السلام من مائة امرأة، والنبي سليمان من سبعمائة إمرأة وثلاثمائة سرية، كما ورد في أسفار العهد القديم! كذلك لم يعيبوا على السيد المسيح أنه لم يتزوج!. وقد قال بعض المسشرقين أنَّ تسع زوجات لمحمد صلى الله عليه وسلم لدليل على فرط الميول الجنسية، وتقول لهم أنَّ السيد المسيح لا يوصف بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط.

وهنالك مغالطة شائعة بين كتاب الغرب في مسألة تعدد الزوجات في الإسلام، فهم يروجون بأنَّ الإسلام هو الذي أباح تعدد الزوجات، بينما الحقيقة أنه هو الذي حدد عدد الزوجات بأربع

كحد أقصى، وكان العدد قبل الإسلام بلا حدود في جميع الأديان. وها هو الغرب اليوم يطالب بالتعدد بعد أن ساد الطلاق في مجتمعه وانتشرت العلاقات المحرمة.

وبالنسبة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فقد جعل الله لهن خصائص ليست لغيرهن، منها فرض الحجاب عليهن، وهو البقاء في بيوتهن وذلك بما نزل في حقهن في الآية رقم ٣٣ من سورة الأحزاب بقوله تعالى: (وقرن في بيوتكم ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)، وألا يتزجن مِن بعده (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أنْ تنكحوا أزواجه مِن بعده أبدًا) [الأحزاب: ٥٣]. وقد حرم الله عليه أن يبدلهن أو يطلقهن، وجعلتهم أمهات المؤمنين: (النبي أولى بالمؤمنين مِ، أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) [الأحزاب: ٦].

والحقيقة أنَّ مثل هذه القضايا التي أثارتها تلك الروايات، يجب علينا أن ندرسها دراسة جيدة وأن لا نتقبل أحكام الكتاب المغرضين فيها على عِلاتها وأن لا ننساق وراء أفكارهم الهدامة بحجة حرية الرأي وحرية التفكير؛ لأنَّ هذه السيرة النبوية الطاهرة العطرة من أهم كنوز الإسلام والمسلمين، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فحياة محمد صلى الله عليه وسلم وسلوكه وأقواله وأفعاله هي السُنة النبوية المطهرة التي تعُد هي وكلام الله المُنزل أساس تشريع الإسلام، فيجب علينا أن ندافع عن هذه السيرة وأن نقرر كل ما جاء فيها استشهادًا بما جاء في كتاب الله المحكم، وأن نستأصل منها كل ما يُلقي أي ظلال شائبة غير صحيحة على حياة اشرف الخلق جميعًا، صاحب هذه السيرة العظيمة. وإنني حين أقرح ذلك إنما أجتهد برأيي من منطلق الغيرة على هذه السيرة المشرفة والحب لهذا العظيم صاحب السيرة الذي أوتي جوامع الكلِم وانسابت هدايته من ينبوع جياش حافل باليخر، عامِر بالبركات.

ومحمد صلى الله عليه وسلم في نفسه عظيم بالغ العظيمة وفقًا لكل مقياس يُقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة، ومكانة عظمة محمد صلى الله عليه وسلم في التاريخ أنَّ التاريخ كله، بعد محمد، متصلٌ به، مرهونٌ بعمله، وأنَّ حدثًا واحدًا مِن أحداثه الباقية لم يكن

ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وظهور عمله. لقد كان التاريخ شيئًا قبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم صار شيئًا آخر مختلفًا عما كان عليه بعدها، غنَّ ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وفتوحه وقوته وعظمته قوة إيمان خالص برسالته، لقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنبياء ورسل للشعوب التي أرسلوا إليها، وكانت رسالاتهم محلية، أمَّا رسالة نبي آخر الزمان فهي رسالة عالمية. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معالمها، والتي سجل معاصروها أقوالها وأفعالها فلم يتركوا شاردة ولا واردة إلا أحصوها، فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يُسمي شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني. إنَّ سيرته عليه الصلاة والسلام معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن حصدت روحه إلى الرفيق الأعلى، وسجِل حياته ناصع البياض، كامل غير منقوص، وهو النبي الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقنها للناس. ولقد نجد في القرآن حكمًا أو أمرًا لم يعمل به النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد تقلبت حياة محمد صلى الله عليه وسلم منذ أن وُلد يتيمًا إلى أن صار مؤسسًا لدولة كبرى وراعيًا لأمة أراد الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وكان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للقدوة الكاملة، وهو طفل وشاب وشيخ ووالد وصديق وزوج ورفيق وجندي وقائد ومعلم وقاضي ومهاجر، وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية. وكان مثال الإنسان الكامل، ثابتًا على العهد لم يتغير طبعه ولا اختلفت معاملته لغيره ولا تغي أسلوب حياته وطريقة معيشته؛ فالرخاء أظهر سخاءه وعفوه وشجاعته ومروءته وشهامته، والشدة أظهرن صبوه وجَلده وقوة إيمانه وعظيم ثقته بربه.

ولقد كتب الكاتب الإنجليزي العظيم (توماس كارليل) كتابه (الأبطال)، وعقد فيه فصلًا كاملًا عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجعله أول هؤلاء الأبطال العشرين الذين تضمنهم كتابه، ونموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم وتساءلنا، على رأي المرحوم الأستاذ

عباس العقاد، صاحب العبقريات، ما بالنا نوضع بتمجيد (كارليل) للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما فهمته ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ولا يدين به، لماذا لا نكتب نحن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقراء العربية كتابًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على النمط الحديث، كما كتب كُتاب السيرة الأفاضل مِن قبل!

ولذلك منذ كتبت كتابي هذا، وأنا استحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية. فمحمد صلى الله عليه وسلم قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المحلفون لجميع الناس، وهو عظيم لأنه على خلق عظيم، وإيفاء العظيم حقه لازم في كل أوان وزمان، لأنَّ العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لغوبهم ولشعوب العالم كافة.

وإنَّ التقدير لمحمد صلى الله عليه وسلم لنافعٌ لمن يقدرونه، وليس بنافع لمحمد عليه الصلاة والسلام أنْ يقدروه وهو ليس بمحتاج إلى تقدير يعد تقدير رب العالمين له ورفع قدره ووصفه بأنه صاحب الخلُق العظيم. لقد نقل محمد صلى الله عليه وسلم الناس مِن عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان، ونقل العالم مِ، ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، وإلى نور بعد ظلام، وإلى هدي بعد ضلال، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، لم يسبقه في ذلك أحد من اصحاب الدعوات ولم ولن يلحق به أحد منهم. وسبحان منْ أبدع محمدًا صلى الله عليه وسلم النبي المختار، إنه الإنسان الكامل الذي صان الإيمان مادةً ومعنى، وعاش به سيرةً ودعوة، وأقام على دعائم أمةً دولة وأنشأ باسم حضارةً ومجدًا، فصلوا تاالله وسلامه عليك يا اشرف المرسلين ويا خير خلق الله أجمعين. وصدق الله العظيم وصدق رسول الكريم وأن الحمد لله رب العالمين.

٨- الرد على مناويئ محمد صلى الله عليه وسلم والمشككين في دعوته والتصدي لمحاولة النيل من مكانته

أشاع الكُتاب البيزنطيون والأوربيون في العصور الوسطى قذائف افتراء مفرط خلال اثنى عشر قرنًا بصدد النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته، وأيدهم في ذلك رجال الدين المسيحيون في البلدان الخاضعة لحكم دولة الإسلام: (يونا الدمشقي)، و (يتودور أبو قره)، و (إيليا مطران) نصيبين، و (عبد المسيح الكندي)، وتبعهم في ذلك رهبان أوربا بدايةً من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وحتى يومنا هذا بما صرح به الباب بندكيت السادس عشر بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما. ولقد صنيغت هذه الإشاعات في روايات كاذبة وأخطاء مدلِسة تُظهر الجهل الواضح لقائليها بأحداث التاريخ وحقائقه واعتقادهم السيء الخادع. وكان من ثمار هذه الدعاية المضللة التي دأبوا على إطلقها خلال ثلاثة قرون ما عرف في أوربا نفسها باسم (أسطورة محمد في الغرب)، تلك الأسطورة التي أشاعت في أوربا الكذب الباطل والافتراء الخسيس طيلة عشرة قرون.

ويتضح لنا من الكتابات التي وردت في هذه الأسطورة ما جال في عقول الأوربيين خلال القرون عن كل ما يتصل بنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام من جهل فظيع وعداوة صريحة وأحكام عتيقة متأصلة من تخربهم الجاهل المُسبَق لسيرة الذات الشريفة التي خاضوا فيها. ولا يقتصر هذا الجهل بسيرة سيد الخلق على البسطاء من الأوربيين والشريرينِ منهم، بل ينطبق أيضًا على كبار علمائهم من فلاسفة ورجال دين ومفكرين؛ إذًا لم يكن لدى أيٍ منهم رغبة أو تطلع في أن تتوفر له المعرفة الحقة والموضوعية الصحيحة عن الإسلام وعن مؤسسة. ولم يخاطر (البرت الكبير) ولا (توماس الأكويني)، أو (روجر بيكون) في القرن الثالث عشر الميلادي، ولا (فرنسيس بيكون)، و (دسكادتيز)، و (باسكال)، و (سبينوزا)، أو (مالكبرانش) في القرن السابع عشر؛ لم يحاول أيٌ منهم، على الإطلاق، بذل أي جهد لفهم

الإسلام؛ رغم معرفتهم بقدر كبير من المعلومات عن الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم من العلماء والفلاسفة العرب.

لقد صوَّر كتاب العصور الوسطى الغربيون محمدًا صلى الله عليه وسلم مرة ساحرًا، ومرة قاطع طريق وسارق إبل، ومرة فاجرًا شنيعًا ن ومرة أخرى (كاردينالًا) لم ينجح في أن يُصبح (بابا) فاخترع دينًا جديدًا، كي ينتقم من البابوية وكنيستها. وصارت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم رمزًا لكل الجرائم الغير معقولة والشنيعة، إلى الدرجة التي صار تاريخه ، موضوع حكايات شنيعة وفساد كبير.Pilateفيها، كما قال (بيليت)

ولم يُشر مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، و Hottinger، و (هوتينجر) Biblianderبعدالة أكثر، ولم يجسر كل من (ببليندر) أيضًا أن يدرسوا السيرة النبوية دراسة صحيحة لتصحيح تلك المفاهيم Marracci(مرعشى) القديمة، بل ساروا على نهجها ومنوالها.

وتُنسب (أسطورة محمد في الغرب) إلى دراسة جاءت بهذا العنوان نشرها (الأسكندر Giornaleالأنكوني) في القرن التاسع الميلادي في (المجلة التاريخية للآداب الإيطالية) Storico della letteratara italana (Volume XIII, ١٨٨٩, pp. ١٩٩-٢٨١) واستمرت رائجة في أوربا حتى القرن الرابع عشر.

(٧٥١ – Theophaneولقد بدأ الأنكوني دراسته بذكر ما أورده المؤرخ البيزنطي (ثيوفان) ، حيث أورد فيه انَّ محمدًا (صلى الله عليه وسلم) (Chronogrophia)(٨١٨م)، في تاريخه قتله عشرة من اليهود، بعد أن صدقوه بأنه المسيح، لكنهم انقلبوا عليه لأنهم رأوه يأكل لحم البعير. ويتابع ثيوفان قوله عن حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنه كان قد ذهب إلى فلسطين، وهناك تحاور مع النصارى واليهود وأخذ عنهم محتويات كتبهما المقدسة.

وعلى نهج ثيوفان سار الأخباري (أنستاس)، و (قسطنطين بورفيروجينتيا)، و (سدرينو)، و (زونارا)، وغيرهم، ولكنهم لم يذكروا العشرة يهود المسئولين عن قتل محمد (صلى الله عليه وسلم).

، رئيس دير (نوجينت)، بأسطورة جديدة Gubertوتأخذ السطورة إتجاهًا آخر عند (جيوبيرت) مؤداها أنَّ: "بطريرك الإسكندرية حين مات أراد راهب من الرهبان أن يخلفه في منصبه، ولكنه طُرد من البطريركية، وحتى ينتقم لنفسه أعلن أنه (المسيح)، وتزوج من أرملة غنية تدُعي (خديجة)، كان الراهب قد أوهمها من أنها ستتزوج من نبي. ولقد أشاع هذا الراهب نفسه الذي سمَّي نفسه (ماثوموس) بأنه نبي. ولقد قام بتجميع العامة حوله. وقام ماثوموس بإحضار بقرة ووضع بين قرنيها كتابًا صغيرًا، وفي أحد الأيام خرجت البقرة من مخبئها أمام العامة، فقرأوا الكتاب الذي تحمله، ووجدوا فيه عبارات تُحلِل كل أشكال الفساد الأخلاقي، وقد اشاعت أفكار هذا الكتاب في أفريقيا مصر والحبشة وحتى في أسبانيا". ومما يظهر هذا بوضوح، نرى أنَّ هذه الأسطورة الجديدة أُسست بناءًا على واقعتين: ذِكر الراهب (بحيري) في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر سورة البقرة في القرآن الكريم، ومن خلال هاتين الواقعتين بني خيال الكُتاب المسيحيين الفاسد في أوربا العصور الوسطى هذه الأسطورة المتطرفة والحمقاء.

ومن دور المنسوب لبحيري الراهب المزعوم، استنتج مسيحيوا العصور الوسطى أنَّ الإسلام (هرطقة مسيحية)، وأنَّ محمدًا (صلى الله عليه وسلم) خارج منفصل عن حصن الكنيسة Pierre de clunyالمسيحية. وحتى يتدعم هذا الزعيم وينتشر، اخترع (بيير دى كلونى) قصة تدول حول بحيري زاعمًا أنَّ اسمه الحقيقي (سيرجيوس)، وأنه كان ضمن جماعة الهراطقة وهناك التقى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ولقنه بكل ما كان ينقصه من تعاليم كتابيْ العهد القديم والعهد الجديد على ضوء المذهب النسكوري الذي لا يعترف بألوهية المسيح، وأضاف لهذه التعاليم أيضًا بعض الخرافات المستخرجة من الأناجيل المزيفة.

ولقد سلك (جاك دي فترى Jacqnes fe Vitry ت ١٢٤٤م) نفس السبيل الذي سلكه دي كلوني، في إدعائه بأنَّ سيرجيوس هو بحيري، الذي كان يُدعي (سوسيو Sosio)، هو الذي حرض محمدًا (صلى الله عليه وسلم) على إدعاء النبوة، وهو الذي زوده بتعاليم كتابيْ العهد القديم والجديد وأنه اضاف إليها ما أوحي به الشيطان إليه.

وتابع (مارتن بولونكو Martin Polonco ت ١٢٧٤م) قول دى كلوني وجاك دي فتري بأن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) تثقف على يد الراهب سيرجيوس، وأنه فرض تشريعه بحد السيف، واضاف عنهما بأنه كان (مجوسيًا).

ويُمثل (فانسان دي بوفيه Vincent de Beauvais ١١٩٠ – ١٢٦٤م)، ذروة الكتاب المسيحيين في العصور الوسطى، الذين لم يرجعوا على الإطلاق في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى المصادر العربية التي تناولت هذه السيرة العطرة، ويحذو في قوله نفس حزو سابقيه في الكلام عن بحيري وعلاقته بمحمد صلى الله عليه وسلم وفي التعريض بالقرآن من أنه تعاليم وأساطير وأكاذيب جمعت من كتابيْ العهد القديم والجديد.

وكان (وليم الطرابلسي) أول من استعان في سرد سيرة محمد صلى الله عليه وسلم بالمصادر العربية، في كتابه Tractacus عن بحيري الراهب، وانتهاؤه بالتأكيد على أنَّ الإسلام هو مسيحية مجردة أخذها محمد (صلى الله عليه وسلم) من بحيري.

وقد سار (بيير باسكاسيو Pier Pascasio ١٢٢٨ – ١٣٠٠م) على نفس درب وليم الطرابلسي في استقاء مادة كتابه عن محمد صلى الله عليه وسلم من المصادر العربية، وقد قام بتأليف رواية عن محمد صلى الله عليه وسلم تستند وقائعها على خرافات سالفة كان قد لفقها الكتاب الأوربيون قبله عن علاقته ببحيري الراهب.

ومنذ مطلع القرن الثامن عشر اهتمت (أسطورة محمد في الغرب) بتوصيف الشماس بحيري (سيرجيوس)، بأنه شماس ذهب إلى روما ليحرز فيها مكانة دينية رفيعة، إلا أنه بسبب وقوع خلاف بينه وبين الباب طرُد من روما، وبسبب ذلك انشق عن الكنيسة واتخذ له ديناً جديدًا

أسُماه (الإسلام)، وبعد ذلك جعلت الأسطورة محمدًا هو الشماس وليس بحيري، وسُمي محمد ، "أن نيقولا، الذي يُقال له محمد، Liber Ngcolayأيضًا (بنيقولا). ونقرأ في (كتاب نيقولا) وكان واحدًا من سبقه شماسين كرادلة للكنيسة الرومانية".

وفي القرن السابع عشر ألَّف (فرانسيس بيكون) ١٥٦١ – ١٦٢٦م، أكذوبة كبرى وروجها عن محمد صلى الله عليه وسلم تحت عنوان (الدجال)، كذلك أنكر الكاتب الشهير (هيجودي جرووت) حقيقة الإسلام كدين وقام برفضه في بحث له بعنوان "قوام الحرب والسلام" وميَّز في بحثه الدين المسيحي عن دين الإسلام، وأشاع أكاذيب كبرى عن الإسلام كانت عاملًا من عوامل تحريك القلوب في أوربا ضد الإسلام. ولقد كان هيجو هذا، برغم شهرته في أوربا، غبيًا اشد الغباء لأنه هاجم الإسلام ونبي الإسلام وهو لا يعرف شيئًا عنهما.

وجاءت الإهانة للإسلام ونبي الإسلام في منتصف هذا القرن على يد (جوهان هوتينجر) Jahann Hottinger (١٦٢٠ – ١٦٦٧م)، في كتابه (تاريخ الشرق) الذي يذكر فيه كل ما ذكره سابقوه وما أشاعوه من إشاعات كاذبة وإهانات للإسلام ولنبي الإسلام، وسار على نهج هو تينجر الكاتب (همفري بريدو) H. Prideauxفي كتابه: "حياة محمد الدجال"، الذي وضعه بهدف أساسي، وهو محاربة الإسلام، وقد أفاض فيه بالأساطير والخرافات الكثيرة السابقة التي وردت في المصادر المغرضة بصدد حياة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان (ادريان رسلان)، أول كاتب أوربي تحري العدالة في حياة محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي (١٦٧٦ – ١٧١٨م)، في كتابه: (الدين الإسلامي) De Religione Muhanedia. وقد قصد ريلان، في كتابه هذا، تصحيح التناقضات والوشايات والمزاعم التي تفوه بها الكتاب الأفربيون في العصور الوسطى حول موضوع محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والإسلام، وانتصار الحقيقة للدين الحق. كذلك فإنَّ كتاب ريلان به الكثير من الحقائق والثوابت التي تساعد في تنوير الأوربيين بصدد موضوع الإسلام.

وفي القرن الثامن عشر اساء (والتر سكوت) ١٧٧١ – ١٨٣٢م، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إساءات بالغة في رواية (الطلسم)، التي أصدرها عام ١٨٢٥م. وأساء (فوليتر)، الذي يُسمى بأديب الثورة الفرنسية (١٦٩٤ – ١٧٧٨م)، للرسول صلى الله عليه وسلم في مسرحيته التي جعلها بعنوان (محمد) سنة ١٧٤٢م، عندما صوَّر الرسول صلى الله عليه وسلم، على خلاف حقيقته، بأنه "رجل وحشي وفظ، وعديم الضمير، مجرد من المبادئ الأخلاقية، وأنَّ رسالته رسالة رجل أفاك محتال ودجال اعتمد على السيف في إنشاء دولة له ولأتباعه بدأت في المدينة". وقد أهدى فوليتر مسرحيته إلى (بابا روما) حتى ترضى عنه المسيحية العالمية.

كذلك أساء كل من (لامانس) في كتاباته التي تفوح بغضًا لفسلام ولنبيه وتمتلئ حقدًا وكراهية، المؤرخ اليهودي (جواتياين)، الذي نسب رالة الإسلام إلى أحبار اليهود وكهانهم. كما اساء إلى الرسول أيضًا المؤرخ الفرنسي الشيوعي (رودينسون)، الذي ازدادت افتراءاته على الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه بعنوان "محمد".

فلا غرابة أن يتلفظ هؤلاء الكفار المشركون والأشرار الملحدون بمثل ما تلفظوا به وأن يتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما اتهموها به لأنهم كفرة بالدين ملاحدة، لا ينتمون إلى حظيرة الإسلام وزمرة المسلمين، وقولهم معروف من أنه نابع من مستنقع العداوة والبغضاء وبالوعات الحقد الذي يغلي في صدورهم ضد افسلام وضد نبي الإسلام. ولكن الغريب حقًا أن يصدر مثل هذا القول، وبقدر كبير من البذاءة والوقاحة، من رحل يدَّعي بأنه مسلم، أو أنه ينتسب إلى الإسلام، مدعيًا أنه يريد بما كتب أن يصحح مفاهيم الإسلام. رجل ليس له عن الإسلام إلا الإسم، اسمه (سلمان رشدي)، وُلد بالهند وسط اسرة مسلمة وتربى في مدارس بريطانيا وفي جامعة (كمردج)، التي قام معسكر التنصير الحاقد على الإسلام ببرمجته بكل ما يريد أن يدسه على الإسلام وعلى نبي الإسلام. رجل تتلمذ على يد الشيطان فصار من شياطين الإنس وأخرج كتابًا وضيعًا تحت اسم: "آيات شيطانية" Satan Verses، وقد ألَّف .

ذلك الفاقد للرشد، كتابه، وقد هدف من كتابته وهدف من تضافر معه وقام بتحريضه وتمويله من عتاة الصليبيين المحدثين تطعيم الأجيال الغربية والمتحدثين بلغات الغرب ضد الإسلام، ووضع شائعات فيه تُحاط برموز الإسلام. وهي شائعات خبيثة لم تترك رمزًا من رموز الإسلام إلا وشككت فيه وجرَّحته. ولا نغالي إذا قلنا بأنَّ هذا الكتاب بُعد من أقذر الكتب التي ظهرت في مجال الهجوم على الإسلام ومن أكثرها وقاحة في هذا القرن كله.

والكتاب في مجموعه ليس ذي أهمية ولا يستحق الرد عليه لأنَّ ما جاء به ليس بجديد بل هو افتراء وبهتان قديم أخرسته وألجمته أقلام المنصفين للإسلام ولنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم من الكتاب الأمناء المسلمين وغير المسلمين. ولكن خطر مثل هذا الكتاب يتمثل في الخوف من تأثيره على قطاعات القراء الموجه إليهم من الغربيين والمسلمين المغتربين في شتى آفاق الأرض على اختلاف أوطانهم الأصلية، والمسلمين الهنود بصفة خاصة، الذين ينتمي إليهم هذا الكاتب والذي تُعتبر اللغة الإنجليزية لغة القراءة الأساسية عندهم. ولقد ضاعف من تأثير هذا الكتاب وخطره عاملان هامان، أولهما: انَّ كاتبه للأسف مسلم ويدعي الانتماء للإسلام، مما يجعل هجومه على الإسلام ونبي افسلام يبدو من قبيل النقد للذات ويدخل تحت باب (وشهد شاهد من أهلها). والثاني: هو الرواج الشديد للكتاب والدعاية الإعلانية الواسعة والضجة المفتعلة التي صاحبت إصداره. كذلك رد الفعل العنيف في الإعلام الغربي بعد صدور حكم على مؤلفه بإهدار دمه، وإتهام المسلمين بالإرهاب ومحاربة حماية الرأي والحجر على حرية التعبير والتفكير. ولنا أن نسأل هؤلاء المتباكين على حرية الرأي والتفكير هل يرضون بأن يخرج عليهم كاتب من بني جلدتهم يهاجم المسيح أو المسيحية؟ هل ترض كنائس الشرق والقرب بذلك، وهل سيتباكي الصليبيون آنذاك على حرية الرأي والتفكير؟ بالقطع فإنهم لن يرضوا بذلك ولكن مع الإسلام فلا بأس.

وآخر وأحدث هجوم وقع على الإسلام ونبي الإسلام جاء يوم ١٣ سبتمبر من العام الماضي في الخطبة التي ألقاها الباب (بنديكت السادس عشر) بابا روما، في درس على طلاب

اللاهوت الألمان في جامعة (راتسبون) الألمانية، وتعرض خلالها بالطعن العلني في عقائد مليار ونصف مليار مسلم حين ردد قول الإمبراطور (مانويل كونين الثاني) في القرن الرابع عشر الميلادي، في حواره مع مثقف فارسي مسلم كان في زيارة للقسطنطينية حين قال: "أنَّ محمدًا لم يأتِ إلا بكل ما هو سيء وشر وغير إنساني بسبب حصنه على نشر الإسلام بالعنف وبحد السيف". وهو بذلك يقبل ويؤمن بما قاله هذا الإمبراطور الجاهل، وبالتالي فهو يدخل في باب الفتوى الدينية المحرضة ضد الإسلام والمعادية للمسلمين والمولية للعنف الدامي والمؤيدة لمقولة الحرب الشاملة ضد (افسموفا شيزم)، التي يرددها رئيسي أمريكا وحواره فيشعلون الدنيا عنفًا وإرهابًا.

وبرغم أننا لا نحبذ التورط في هذه الدعاوي والفتاوي المحرِضة على الحروب الدينية فإننا نعرف أنَّ كل الأديان قد خاضت حروبًا دامية دفاعًا عن مبادئها أو نشرًا لدعاواها، ولعل بابا الفاتيكان يعرف أنَّ الكنيسة البابوية التي يجلس الآن على كرسيها هي التي أفتت وحرضت دينيًا على شن الحروب الصليبية في العصور الوسطى ضد العرب والمسلمين بحجة مسيحية وتحت راية الصليب بينما الهدف كان استعماريًا توسعيًا. وهو الأمر الذي رافقه قتل مئات الآلاف من المسلمين والمسيحيين العرب الذين اصطفوا للدفاع عن أوطانهم ومعتقداتهم، وهي الكنيسة الكاثوليكية نفسها التي أفتت وشجعت على فرض المسيحية الكاثوليكية بحد السيف على أهالي أمريكا الجنوبية بقتل مئات الآلاف من سكانها الأصليين من الهنود الحمر. وهي الكنيسة نفسها التي أقامت (محاكم التفتيش) في بلاد الأندلس الإسلامية بالتحالف مع نبلاء الإقطاع في أوربا في العصور الوسطى فراح ضحيتها مئات الآلاف ممن ثبتوا على إسلامهم من أهل الأندلس ورُحل الآلاف منهم إلى بلاد المغرب، وهي التي أقامت المذابح الدموية هناك لمئات الآلاف من المسلمين واليهود وأحرقت ودمرت التراث الإسلامي الخالد الذي خلفته الحضارة الإسلامية هناك مدة ثمانية قرون. فليسأل الباب نفسه وضميره ويقرأ التاريخ ليرى من الذي أتى بالسوء الشر اللا إنسانية ونشر دينه بالعنف وبحد السيف؟ إنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم

جاء رحمة للبشرية جمعاء وزوّده ربه بمكارم الأخلاق وبالسماحة والعدالة جاء بكل الآفاق، ولقد امتدحه الرحمن الرحيم بالقول له: (وإنك لعلى خُلق عظيم) وصدق الله العظيم.

ويكفي لإظهار مظاهر الرحمة للتبشر في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، أنه جاءهم بالإسلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور. وليضمن لهم العيش السعيد في الدنيا والجنة والنجاة من النار في الآخرة. ولقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاوي الشرك التي سقط البشر في مستنقعها، وجاهد وتحمل وصبر كل ما تعرض له من جفاء ومعاناة وإساءة وأضرار من أجل الهدف السامي الذي بُعث من أجله، وهو أن يأخذ بيد كل البشر إلى كل ما هو خير وفلاح في الحياة الدنيوية وفي يوم الحساب. كان هو القلب الكبير الذي حمل لكل البشر الحب الكثير، وكان الداعي إلى الله والبشير والنذير والسراج المنير صلى الله عليه وسلم على آله وصحبه أجمعين.

* * *

خاتمة

لم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله. بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية في تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم وأن يكونوا قدوة للناس في حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق وفي مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط. ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة، فيهم من الغرائز والمواهب ما في سائر الناس، ولكنهم كانوا حكماء في استخدامها فلم يقتلوا غرائزها ولم يميتوا شهواتهم بل حكمَّوا فيها عقولهم وضمائرهم فضبطوها وسيطروا عليها وساروا بها على وفق ما أراد الله منها ونهجوا بها المنهج الذي بلغ بهم غاية الكمال الروحي، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسماني فوصفوا أنفسهم بذلك في المنزلة الكريمة بما أوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة. ولقد كان الرسل والأنبياء مُثلًا عليا للجنس البشري، ونماذج كاملة في كل زمان ومكان أرُسلوا فيه، وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس، بأقوالهم وأفعالهم. كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى في إسعاد خلقه، وكيف يغالبون قوي الشر التي تريد أن تفسد الحياة على الأرض. وقد كان الأنبياء مثلًا عليا وقدوة حسنة لمن جاء بعدهم لو عُرف تاريخ حياتهم على الوجه الأكمل، وأقيمت لهم كافة الفرص لإظهار الفضائل التي كانوا يتحلون بها. ولكن اصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجلوا إلا لقليل من أقوالهم وعن مسيرة حياتهم. كما أنَّ الزمن ذهب بآثار الكثيرين منهم، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التي وضحت كل معالمها، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها فلم يتركوزا منها شاردة ولا واردة إلا أحصوها. فهو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان؛ إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله إلى جواره وسِجل حياته كامل غير منقوص، وسُنته من قول وفعل وسلوك وتدبير يتمم بعضها بعضًا.

ولقد تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن كان يتيمًا إلى أن صار رئيس دولة وداعي أمة دين وراعي أمة في جميع مراحل الحياة فمارس صروفها ووفيَّ بحقوق المراتب كلها، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة. فقد كان طفلًا وشابًا وشيخًا ووالدًا وأخًا وزوجًا وجارًا ورفيقًا وصاحبًا وجنديًا وقائدًا وفاتحًا ومهاجرًا وقاضيًا وقبل شيء كان إنسانًا. وكان في كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من الألف إلى الياء، وكان مثال (الإنسان الكامل)، ثابتًا على العهد لم يتغير طبعه ولم تتبدل خلقه ولا اختلفت معاملته مع الناس ولا تغير أسلوب معيشته. فإذا ان الرخاء قد أظهر من هالسخاء والعفو والشهامة والمروءة فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات والثبات عن دالشدائد والملمات والثقة في ربه خالق الأرض والسماوات. لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وآخر المرسلين، أرسله الله تعالى رب العالمين هدً ونورًا للناس أجمعين، فعليها منا السلام إلى يوم الدين.

وصلى الله وسلم عليك أيها النبي الأمين

وعلى آلك وأصحابك الطيبين الطاهرين

وأن الحمد لله رب العالمين

تم بحمد الله

مصادر ومراجع البحث

المصادر والمراجع العربية:

- القرآن الكريم
- كتب الصحاح: صحيح البخاري، صحيح مسلم.
- كتب السنن: ابن ماجه، أبي داود، الترمذي، والنسائي.
- كتب الأسانيد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، موطأ الإمام مالك.
- ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة
- ابن تيمية: السياسة الشرعية.
- ابن سعد: الطبقات الكبرى.
- ابن سيد الناس: عيون الأثر في السيَّر.
- ابن شبه: أخبار المدينة.
- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الصحاب.
- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هديْ خير العباد.
- ابن كثير: السيرة النبوية.
- ابن هشام: السيرة النبوية.
- الأزرقي: أخبار مكة.
- رفاعة الطهطاوي: نهاية الإعجاز بأخبار ساكن الحجاز
- السمهودي: وفاء الوف بأخبار دار المصطفى
- السهيلي: الروض الأُنف
- الطبري: تاريخ الرسل والملوك
- الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن
- عباس العقاد: عبقرية محمد
- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء.
- عطية القوصي: محمد النبي المصطفي
- محمد رشيد رضا: الوعي المحمدي
- محمد بن عبد الوهاب: سيرة الرسول
- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، اسليرة
- الواقدي: المغازي

ب- المراجع الأجنبية:

- Andrae,T. "Mohammed, The Man and his Faith", Landon ١٩٣٦.

- Blachere, R.: "Le Probleme de Mahomet', Paris ١٩٥٢.

- Buhi, F: "Mahammad in the Encgclopeadia of Islan" v.III Leiden ١٩٣٦.

- Charles, J: "Mahomet, Israel et Le Christ", Paris ١٩٥٠.

- Demom bynes, G: "Mahomet", Parid ١٩٦٩.

- Goitein, S.: "Studies in Islamic History and Inistitions", New York ١٩٦٧.

- Rodin Son, M: "Mohammed", td. By: Anne carter, New York ١٩٧٤.

- Watt, M: "Mohammad at Mecca", Oxford ١٩٥٣.

- Watt, M: "Mohammad at Medina", Oxford ١٩٥٦.

- Watt, M: "Mohammad, Prophet and Stateman, Oxford ١٩٦١.